عبدالفتاح عبدالعزيز

رواية

آريوس

ARIOS

أرض الوافدين

تشكيل للنشر والتوزيع

كوخ الثكلى

أثقلت خطواتي رياح ديسمبر القارصة، التي أخذت تشتد وتخبو عبر ساحل البحر الثائر عن يميني، بينما أهيم على شاطئه الرملي موليًا وجهي شطر شمس الغروب المذهبة حين قاربت على التواري خلف ذلك التقاطع؛ الذي اجتمع فيه قلب البحر البعيد بسماء الخريف المتلفعة ببياضٍ شاحب شابته حمرة الغروب الوشيك، لكن تلك الهبّات الباردة لبثت بريئة من قشعريرة مضطربة جالت بين الفينة والأخرى خلال ضلوعي وأوصالي، فصرتُ أمشي على إثرها بروح كهلٍ منحنٍ في جسدِ شابٍ فتيٍ، إنما المذان بشأنها شهور خلت استحكم فيها التيه من زمام روحي الهشة؛ إثر جلد الذات المتواصل على ما مضى، ليهبني ندوبًا بالنفس، وأنات بالجسد، وإدراكًا آخذًا في الانحسار كينبوعٍ ضحل اجتمعت عليه عشرات الضباع العطشين، حتى لم ألحظ أثناء مسيري الشارد أني اجتزت المنطقة العامرة بمبانيها عن يساري، وحل محلها تلك الكثبان الرملية العالية التي أضفى عليها شعاع الغروب شيئًا من القدسية والبهاء والكآبة.

ألجمت شرودي كي أولي ظهري للغروب الآفل وأعود من حيث أتيت، قاطعًا ممشاي الذي تمادى بهذا الغروب عن سائر القُرَب، لكني أبصرتُ شبح كوخٍ صغير بالساحل على مرمى نظري بعُد عن موضع استفاقتي بمقدار دقيقتين من الهرولة، غلب على ظني أنه مجرد كوخٍ لصيادين يعملون بالبحر، إلا أن هاجسًا بداخلي أخذ يلح بأني قد أجد لديه ضالتي التي فتأت تجافيني. مترددًا ما بين إكمالٍ نحوه أو الرجوع وقفت، فما هي إلا دقائق ويرخي الليل سدوله التي لا يقطع حلكتها في هذه البقعة سوى دوران شعاع الفنار القابع عند آخر العمران، إلا أنني بالأخير غالبت وجلي وأكملت نحوه حثيث الخطى.

maktabbah.blogspot.com

لمْ أدرِ لمَ تلاشت تلك القشعريرة وحل محلها ارتفاع نبضات قلبي التي تسارعت كأنها تسابق خطواتي المتلاحقة بمضمار هواجسي، حتى بلغت خط نهاية السبق على مشارف الكوخ، لأجد سيدةً عجوز أمام سدته، كستها جلباب رمادية، وانسدل فوق صدرها طرفان مهترآن لوشاحٍ أسود أحاط مؤخرة عنقها وكتفيها، بينما افترشت رمال الشاطئ في وقارٍ ناظرة نحو البحر في سكونٍ مُراقب، ومسندة ظهرها إلى جزع نخلة قديمة نُشبت في الأرض رفقة ثلاث أخريات شكلن أعمدة الكوخ، ثم وُصلن من الأعلى ومن الجوانب بقطعٍ من الخشب كستها قطع من البلاستيك والقماش.

لم يبدُ عليها أنها لاحظت وقوفي جوارها؛ وكأن مراقبة البحر استحوذت على كامل جوارحها، لذا تنحنحتُ ملقيًا السلام، لتلتفت نحوي بابتسامةٍ واسعة:

«قبلت البشرى».

ابتسمتُ لها في وجلٍ:

«ماذا تقصدين يا أماه؟!».

عادت نحو البحر بوجهها الأبيض الذي حاك به الزمن تجاعيده، وطبعت عليه الشمس آثار لفحاتها كأنها تخشى أن تُضيع ثانية دون متابعة تواتر أمواجه، ثم أردفت بصوتٍ واهن:

«أعني أنك بمثل عمر ابني الذي أفتقده، وطالما ظهرت أمامي بغير موعد، فقد يكون بزوغك من البشريات بقرب لقائنا».

- أرجو أن تصدق بشارتك، ويأتيك عاجل غير آجل!

- بل تمنى لي أن أذهب إليه، علّ الله يقبل منالك!

أجابت دون أن توليني وجهها، ليتكفّل ردها بإلقاء حجرة استفسار فوق بركة فضولي، إلى جانب تلك الألفة التي نضحت من حولها، فاستأذنتها في افتراش الأرض جوارها قبل أن أسأل:

«فيم كان رحيله؟».

أشارت بوجهها نحو البحر.

- طلبه الرزق قلبي.

- وهل طال غيابه؟

- طال للحد الذي ظنوا خلاله أنه لن يعود، أما أنا فعلى يقينٍ من تشبث أنفاسه بالحياة.

عندها بدأتْ ألامس تلابيب فاجعتها، غريق تأبى أمه الثكلى أن تسلّم بفقدانه وتطارد أملًا يائسًا في نهاية مطافه قد تنفجر لوعةً أو تفقد في سبيله عقلها، إلا أن الغموض الذي غلّف ردودها، واليقين المعتلي لنبرة صوتها ظلّا كفيلين بمزيدٍ من الإثارة لفضولي، حيث أخذا يُلقيان شباكًا من التساؤلات أحاطت تصوراتي، وبذات الوقت رقّ لحالها قلبي الذي يعتصره مرارة الفقد مثلها، لذلك أردت أن أستزيد علمًا عنها وعن ابنها الغائب؛ علّني أستطيع مواساتها، فذو العلة أدرى بلوعتها:

«هل يعمل ابنك بصيد البحر؟».

أومأت بوجهها بمعنى الموافقة دون أن تنفرج شفتاها عن رد، ودون أن تلتفت نحوي كعادة

ردودها، لكني لم أكتفِ مضيفًا:

«إذا كان يعمل بإحدى مراكب الصيد الكبيرة التي تبحر بين الفينة والأخرى أمامنا».

«هل أكلت يا ولدي؟ لدي بعض من بقايا طعامي داخل الكوخ».

قالتها حين مالت برأسها نحوي بنصف التفاتة، لأدرك أنها لا تريد أن نتمادى في الحديث عن ولدها الغائب، فقدَرت ذلك إلى حين ورددت:

«الحمد لله يا أمي، لقد أكلت قبل خروجي إلى الشاطئ».

عاودت النظر نحو البحر من جديد ليغلف الصمت مجلسنا لبرهةٍ قصيرة، قطعتها بأن قالت: **«يبدو أنك غريب عن بلدنا، كما أن ذلك المصيف الذي أتيت من ناحية شواطئه يظل خاويًا على عروشه في الشتاء ولا يرتاده المصطافون، ففيم كان قدومك؟»**.

- إن لقدومي حكاية طويلة، ولا أريد أن أثقل كاهلك بهمي.

- تحمل قسماتك الكثير، ولعل انفراج همك عندي، فلا تعلم مثالب القدر كيف ترتب حكمتها التي تفوق جل ما ندرك ونخطط.

قبل أن أجيل بذهني ما إن كنت سأحكي أو أمتنع، ومع أواخر خيوط الغروب الحمراء في الأفق التي تظل متشبثة بالدنيا بعد مغيب الشمس؛ قطع حديثنا بزوغ فتاة تحمل فوق رأسها صينية مغطاة بقطعةٍ من القماش تهدلت أجنابها عن حواف تلك الصينية بينما أمسكت بها بيدها اليمنى، اقتربت من الكوخ من ناحية الكثبان التي ربضت خلفنا في خطواتٍ أثارت حفناتٍ من التراب خلف كعبيها اللذين بالكاد ظهرا من تحت جلبابها الأصفر الباهت، حتى وقفت بين أيدينا مسلطة نظرها ناحيتي في توجس لم تفلح في طمس معالمه عن وجهها ذي القسمات الدقيقة، الذي رسم عمرًا جاوز العقد الثاني بقليل. التفتت نحو السيدة وقالت:

«أحضرت غداءك يا خالة».

«لا تخافي يا ابنتي، هو غريب ودود رق لحال خالتك».

أومأت الفتاة برأسها بعد أن أنزلت الصينية بين يديها قبل أن تدلف لتفرغ ما تحمل عليها داخل الكوخ الذي لمحت بساطته من موضعي: فرشة صوفية على الأرض الرملية، استقر فوقها حرام رصاصي قديم، بعض الأواني وزجاجات الماء، موقد ومصباح يعملان بالكيروسين، وقليل من الملابس المعلقة على باطن إحدى جزوع النخل...

ما إن انتهت الفتاة من أمرها حتى عادت نحونا حاملة صينيتها الفارغة على رأسها.

- سأعود الآن يا خالة قبل استحكام الظلام، هل لكِ حاجة لنقضيها حين تعودك أختي بالصباح؟

- جزاك الله عني خيرًا يا ابنتي.

همت الفتاة بالانصراف، لكنها ما إن ابتعدت لخطوات خلف الكوخ -تابعتها خلالها بنظري- حتى توقفت ملتفتة ناحيتي، ثم أشارت بأن آتيها؛ ذهبتُ نحوها بلا تردد، فعاجلتني:

«إن كنت سارقًا فهي لا تملك من حطام الدنيا كما ترى، على الرغم من أن ظني فيك خلاف ذلك».

لم أجبها على ما قالت، بل أخرجت حافظة نقودي مستلًا منها بضع مئات من الجنيهات زادت عن شطر ما أملك، مددت يدي بهم نحوها وقلت:

«ابتاعي في الغد كل ما يلزم ذلك الكوخ وتحتاجه خالتك».

بادرتني علامات التعفف التي ارتسمت على وجهها، مع إشاحةٍ مرتبكة ندت عن يدها اليسرى، أتبعتها بأن قالت بملامح جامدة:

«نحن لا نقبل إحسانًا يا سيد».

«هي ليست لكِ، إنما لخالتك، وكل ما أرنوه منكِ هو معرفة حكاية ابنها الغائب».

maktabbah.blogspot.com

قلت ذلك حين وضعت النقود بتلك الصينية تحت الغطاء الذي كوّرته الفتاة فوقها، حتى أرفع عنها شيئًا من الحرج، فأخبرتني في عجالةٍ أن ابن السيدة الوحيد ككثيرٍ من شباب قريتهم القابعة خلف الكثبان، كان يعمل في صيد السمك الصغير ما أسمته «**الزريعة**» التي تلقيها الأمواج قرب الشواطئ، ليبيعونها لمزارع تربية الأسماك، وفي ليلةٍ عاصفة قبل شهرٍ أو يزيد، أخبره رفيقه أن هناك سربًا ألقته الأمواج قرب سواحلهم، وأن العديد من صيادي القرية قد سبقوهم، فهب من فراشه إليه، وجاءا إلى البحر مسرعين، وبينما أخذ يسبح ممسكًا بطرف شبكتهما داخل البحر في قلب الظلام الدامس حالما بقي صديقه قرب الشاطئ ممسكًا الطرف الآخر؛ أحس الأخير أن الشبكة قد ارتخت، ناداه فلم يجب، سحب الشبكة فلم يجده، فهرع إلى الساحل يستغيث بباقي الصيادين المتباعدين، والذين ظلوا يبحثون عنه طوال الليل دون جدوى ليفترضوا أن الأمواج المرتدة أخذته، واختفى في عرض البحر كما غرق شباب من قبله، معقبة ذلك بكون الغريب في الأمر أن هذا الشاب كان يجيد السباحة، لكن هذا كثيرًا ما حدث، وهو أن يغرق مجيدوها، أما الأغرب أن جثمانه إلى الآن لم يظهر على الشاطئ منتفخًا كعادة الغرقى، فأولئك الذين تعلق جثثهم في البحر هم غرقى قلب البحر

بمراكب الهجرة أو الصيد وغيرها، حيث تعلق بين صخور أو شعاب أو تحت حطام سفنهم، أما غرقى تلك الشواطئ عادة ما يلفظ البحر جثامينهم بعد عدة ساعاتٍ أو حتى بضعة أيام، لذا رفضت أمه التسليم بموته دون جسد عندما علمت بالأمر في الصباح، وجاءت لتفترش الشاطئ وتأبى الرجوع، بينما ظل أهل بلدتهم يبحثون عن جثمانه لعدة أيام، فيها لبثت على حالها لا تغادر شاطئ البحر، فرقَّ رفقاء ابنها لأمرها، وشيدوا لها الكوخ ليقيها البرد والمطر في اليوم الثالث من مكوثها، آملين أن تعود أدراجها ما إن يجدوا جثمانه، لكن يومًا بعد يوم صاروا يفقدون الأمل في ظهوره، موعزين لها بأن هذا يحدث في بعض الأحيان، وهو أن تنجرف جثث غرقى الشواطئ إلى قلب البحر وتعلق به، ذلك قبل أن يتوقفوا عن البحث واحدًا تلو آخر، بينما لم تفقد أمه الأمل، وواصلت إقامتها، لذا صارت تعودها هذه الفتاة وأختها كل شروقٍ وغروب لأنها قريبة لأمهما.

انتهى حديثها فأومأت برأسي بمعنى التفهم في أسى أضيف إلى ما أحمل، ثم ودّعتها بعد أن كررت عليها بأن تُحضر كل ما تحتاج إليه تلك العجوز.عدت نحو الكوخ لأجدها على حالها شاردة، بينما ازدادت هبات الريح برودة، فعاجلتني قبل أن أجلس جوارها: «**هل أخبرتك أن إسماعيل قد غرق؟**».

- نعم يا أمي.
- وهل صدّقتها؟

لم أرد أن أكسر خاطرها، لا سيّما أنني بمرارة كسر الخواطر عليم، لذا أجبت:

«**لا أعلم، كم من غائبٍ تأكد للناس فقدانه ثم أخلف القدر يقينهم**».

maktabbah.blogspot.com

تنهدت بزفيرٍ مكتوم، بينما تناظر البحر على حالها، لم أدرِ هل اغتباطًا لجوابي المعضد لأملها، أم هي إحدى لحظات المكاشفة مع الذات والاستسلام للأمر الواقع التي تملكت منها كرد فعلٍ على كلامي الذي يحمل رائحة الشفقة أكثر من حمله للحقيقة.

لكنها أردفت:

«**لا تشفق عليّ يا بني مثل من علم بحالي أو مر عليّ من قبلك، فأنا على يقين بأن إسماعيل لا زال منتصبًا في الحياة حتى لو تيقن العالم كله من خلاف ذلك**».

ثم صمتت لبرهةٍ قبل أن تقول بصوتٍ هامس كأنما تتحدث إلى حالها:

«**ستأخذني إليه كما وعدتني**».

- من التي وعدتك؟

التفتت نحوي بوجلٍ كأنها لم تحسب حسابًا لكوني قد أسمعها.

- ها! لا تلقِ بالًا، ألن تعود إلى المصيف؟ لقد جن عليك الليل.

هنا أدركت أن تلك السيدة لا مجال للظن في قلبها بشأن نجاة ابنها، فأخذ التحير يتكاثر داخل صدري وينبشه بشأن ذلك اليقين الثابت في ردودها، وذاك الحديث المبهم عمن ستأخذها إليه، كأن ثباتها أخذ يزعزع قناعتي بكون ما تحمله بين طيات صدرها مجرد نفحات أملٍ باهتة بها تتشبث، ليخالجني الشك بأن الأمر آخذًا في التطور إلى اضطراباتٍ وهامية تراها وتصدقها، وبين هذا وذاك، وفوق تعاطفي مع فاجعتها؛ تحركت بداخلي تلك العاطفة التي لم تتوقف عن كي أوصال ضميري منذ رحيل أمي، كأنما أخشى أن أتركها هي الأخرى فيأكلني جلد الذات بشأنها فيما بعد، لذا رددت:

«كما أسلفتِ، الليل قد جن وليس هناك من يفتقدني في مسكني، فهل تسمحين لي أن أبيت ليلتي برفقتك يا أماه؟».

- بك مرحبًا يا بُني، لكني أخشى عليك من قرص الجو ها هنا ولا يحوي كوخي سوى غطاءٍ واحد.

- لا تخشي علي؛ ملابسي ثقيلة واعتدت تلك البرودة، لكن لندخل إلى الكوخ ونغلق علينا بابه.

وقفت مادًا يدي نحوها لتتشبث بها وتدلف إلى الكوخ الذي تراكم أمام بابه كومة صغيرة من التراب، أخذت أزيحها حين جلست هي فوق فرشتها الصوفية ممسكةً بمصباح جاز صغير ربض إلى جوارها، وعلى ضوء القمر المتسلل في خفوتٍ، أشعلت فتيل المصباح بعود ثقابٍ وغطته من بعدها بقارورته الزجاجية حالما انتهيت من إزاحة التراب وإغلاق الباب، فابتسمت لي على ضوء المصباح الأصفر وأشارت بأن أجلس إلى جوارها.

maktabbah.blogspot.com

كانت هبات الريح تهز جوانب الكوخ البلاستيكية وسقفه؛ مخلفة أصوات خشخشة تعلو وتخبو بين حينٍ وآخر، إلا أنني على عكس اضطراب الأجواء من حولنا شعرت بطمأنينة تغلّف روحي، وسكينة تدب في أوصالي جارها، بينما اعتدلت في جلستها وأخذت ترص الأطباق الثلاثة اللائي أحضرتهن الفتاة الصغيرة بيننا. أحد هذه الأطباق توسطته قطعة صغيرة من الجبن، والآخر سكنته بيضة واحدة، أما الثالث فحوى قطعًا من الباذنجان المقلي، استقر فوقها رغيفان اقتسمناهما وهي تقول:

«أنا لا آكل سوى رغيف واحد، إن ابتغيت المزيد لدي آخر من طعام فطوري رفقة

قطعة من الجبن».

- وأنا في العادة لا أتناول طعامًا في الليل، لكني سأخالف عادتي من أجل اقتسامك العيش والملح.

ما إن انتهينا من تلك اللقيمات، وقامت بجمع الأطباق فوق بعضها، وأزاحتها بجانب الكوخ حتى عاجلتني:

«لم تخبرني بعد عن حكايتك الطويلة».

قالتها ثم تناولت الموقد الصغير، أشعلت ناره الخافتة دون أن تضع أعلاها أي وعاء، لأدرك أنها تريد تدفئة ذلك الجو القارص قليلًا، وما هي إلا لحظات -لم أكن خلالها قد أجبت بعد- حتى أحسست بالدفء يتسرب رويدًا رويدًا إلى كافة أركان الكوخ حين نظرت نحوي مرة أخرى منتظرة جوابي، لم أرغب في الحديث عن حياتي السابقة بما حملت من خذلان، لكني ابتغيت أن أتثبت من مكنون صدرها الذي تبني عليه يقينها بخصوص نجاة ولدها، لأدرك من خلاله ما إذا كان أصل ذلك اليقين خللًا قد قطع شوطًا كبيرًا في التغلب على عقلها إثر تلك اللوعة التي تعتريها على ابنها، أم أصله أمر اختلط فيه الواقع بالخيال مثل منامٍ أو إحساسٍ أو ما شابه استندت عليه في ترسيخ أملها وذلك أهون، ولن تحكي إلا إذا جاريتها في الحديث وحكيت لها عن حالي، ومن ثم تتقارب خواطرنا فتحكي هي الأخرى، لذا تنهدت في زفيرٍ ثقيل، وشردت بنظري مردفًا:

«منذ تسعة أعوام كنت شابًا يافعًا بأولى سنوات تخرجي من الجامعة، أقطن رفقة أمي وشقيقتي في قريةٍ نائية تابعة لمحافظةٍ داخلية مجاورة. حين حالفني حسن القدر واستطعت نشر أولى أعمالي الروائية التي لاقت نجاحًا مقبولًا بالنظر لكونها باكورة إنتاج كاتب شاب، بل الأفضل من ذلك أنها نبأت عن مستقبلٍ أدبيٍ يعلو فيه شأني كما قالوا حينها، ليملأني قولهم فخرًا وثقةً وتطلع».

- وصدقت نبوءتهم؟

- لا أظن.

- لم؟

- في العام التالي أصدرت ثاني أعمالي بينما يملؤني التلهف لازدياد سطوعي، لكن على عكس كل آمالي لم تلق أي نجاح أو انتشار، حتى دار النشر لم تُصدر منها سوى طبعة واحدة ولم تُبَع بأكملها، بعدها أخبروني بانعدام رغبتهم في التعاقد معي على أخرى.

- وهل تملّك منك اليأس حينها؟

أومأت برأسي بمعنى الموافقة قبل أن أتراجع بجسدي للوراء حتى أسندت ظهري لأحد جذوع النخل.

- تملّك مني للدرجة التي كادت تدفعني لاعتزال الكتابة للأبد، والبحث عن عملٍ ثابت أتعكز عليه في كسب قوتي عوضًا عن البحث عن دار نشرٍ أخرى لتنشر لي من جديد، فالأصعب من إحساس القهر النابع عن الإخفاق هو أن يُسبق ذلك بنجاحٍ وتطلع، ثم يأتي الإخفاق ليكسر ما اكتسبت من ثقة، بل بالأحرى يتركك في حالةٍ أدنى من تلك التي كنت عليها قبل نجاحك فيما سبق.

اعتدلت في جلستها وأمالت وجهها ناحيتي.

- ذلك إن استسلمت معلنًا رفع راية الهزيمة.

- كدت أعلنها من كسرةٍ واحدة، لولا أمي رحمة الله عليها، لم يكن لنا في الدنيا (أنا وأختي) سواها بعدما وافت أبي المنية في صغرنا، هي من لم تتركني لليأس أو التراجع ينهش عزيمتي، وأخذت تشد من أزري بفطرتها البسيطة، تارة تحكي لي منامًا رأتني فيه كاتبًا كبيرًا، وتارة أخرى تقص عليّ قصص نهوض بعد انكسار، وأحيانًا تخبرني أنها تجهز لتنفيذ النذر الذي نذرته حين أصبح كاتبًا مشهورًا لأنها على يقينٍ من تحققه.

- نِعم الوالدة أمك، رحمها الله ورحم موتانا أجمعين.

- ظلت على ذلك دون كللٍ أو ملل حتى عدت في السنة التالية بروايتي الثالثة لدى دارٍ جديدة، التي كتبتها بينما يطاردني إحساس الخوف من الإخفاق، لأنه كان سيمثل في تلك الحالة إعلانًا لهزيمتي التامة، في حين يأخذ بيدي تحفيز أمي الذي لم ينقطع حتى نُشِرت، وخلال أشهرٍ معدودة لبثت قابضًا فيها على جمرةٍ من نار الترقب؛ ملأت روايتي الدنيا ضجيجًا، وعاد اسمي سريعًا إلى ساحات الأدب بقدرٍ أعلى وأكبر، لدرجة أن روايتي الثانية طبعتها الدار الأولى من جديد -بينما تعض أصابع الندم على تضييعي- وزادت مبيعاتها على إثر نجاح الثالثة، من ثمّ بدأ انشغالي شيئًا فشيئًا بلقاءاتٍ وحفلات توقيع وما إلى ذلك، حيث لاحت حياة جديدة أحاطتها أضواء ساطعة أخذت في التزايد لتعمي بصيرتي وتأسر أنظاري، حتى نُشرت روايتي اللاحقة بذات القدر من النجاح قبل أن أتعاقد على تحويل الثالثة لعملٍ سينمائي، وعندها بلغت نقطة التحول التي استسلمت معها لتلك الحياة التي استحوذت على وجداني برونقها الزاهي المناقض لحياة القرية البسيطة.

عقدت سيدة الكوخ حاجبيها لتظهر تجاعيد وجهها أكثر وضوحًا على الضوء الأصفر

المتراقص، ثم تساءلت:

«هل هجرت أمك؟!».

تنهدت بزفيرٍ ثقيل مسندًا مؤخرة رأسي إلى جزع النخلة التي يستند إليها ظهري، لأشيح بنظري ناحية سقف الكوخ بينما أتذكر ومضات خاطفة من حياتي السابقة بلا حنين أو اشتياق.

- كانت أختي قد تزوجت، وصرتُ أحضر ما يُدعى جلسات التحضير لذلك العمل الفني مع القائمين عليه من معدين ومخرجين وغيرها، إلى جانب فعاليات روايتي الرابعة، فوق كل ذلك انشغلت بكثيرٍ من اللقاءات والندوات وورش الكتابة، حيث عُقدت معظم تلك الأمور بعيدًا في العاصمة، فبدأت ألح عليها كثيرًا أن ننتقل سويًا للعيش فيها. لم تعارضني أو تقف عائقًا في طريق تطلعي، لكنها رفضت أن ترافقني متمسكةً بالعيش في بيتنا الذي قضت بين جنباته جل عمرها، كذلك لتظل قرب أختي.

- وانتقلت؟

هززت رأسي بمعنى الموافقة.

- استبعدت الفكرة لسنةٍ كاملة، إلا أنني رضخت لجلبة تلك الحياة التي استمالتني بالأخير، منتقلًا في أول سنتي الخامسة بهذا المأرب. في بادئ الأمر واظبت على أن أقضي برفقتها عطلة كل أسبوع، كنا نجتمع لديها أنا وأختي، إلى أن بدأت تلك الزيارات في التباعد، شهر تلو شهر، وعمل تبعه عمل، وسفر بعد سفر نحو خارج البلاد لحضور فعاليات خارجية، لا سيما مع توغلي في كتابة الأعمال الفنية منفردًا أو بالاشتراك فيها. صارت تتباعد العطلات التي أقضيها برفقتها حتى تمر أشهر دون أن أزورها.

maktabbah.blogspot.com

لم أرَ في ذلك جحودًا أو برًا وقتها، بالأحرى لم أكن أرى سوى تلك الأضواء الآخذة في التزايد، أو أن سطوعها لم يُرني سواها، إلى أن أعود إلى أمي في زياراتي المتباعدة لتقابلني بوجهٍ بشوش، ودعوات لا تنقطع، وكل ما يطيب لي من طعامٍ من صنع يديها، ثم تحكي لي حكايات مكررة عن قريتنا التي لم أعد أهتم لشأنها، عن جاراتها اللائي يهونّ عليها الليالي، عن طيب قلب صهرنا الذي يتردد عليها رفقة أختي وابنهما الصغير اللذين سمياه يوسف تيمنًا باسمي، وأن كل ما ترجوه من الله أن ترى حفيدًا مني ويطمئن قلبها على استقرار حالي. لأعدها بذلك، وبوعودٍ أخرى على شاكلة أنني لن أتأخر في زيارتي القادمة، ثم أرحل بعد أن أتشبع بفيضٍ من الحنان يندي روحي المثقلة، وفي كل مرةٍ أوليت ظهري لبابها عائدًا نحو حياتي عنفت نفسي على غيابي، عاقدًا العزم على معاودة زيارتها في كل عطلة، ليصير ذلك

هو الوقت الذي ألامس فيه جحودي، إلا أنها لم تكن سوى لحظات من صحوة الضمير الغائب خلف شغف الحياة، بعدها أنسى ما عزمت حتى الزيارة التالية بعد أشهر.

- الاستسلام للهو الحياة يبذل الطبائع يا ولدي.

أشرت برأسي بمعنى الموافقة، قبل أن أطرق منعقد اللسان على الرغم من إحساسي بأني ألقي حملًا ثقيلًا عن صدري من خلال ذلك الحديث الذي كتمته طويلًا، كأني أشاطر تلك الأم الغريبة همي لتخفف وطأته عن روحي. ولما طال سكوتي ابتسمت لي في حنو وقالت:

«لا تثقل على نفسك يا ولدي، وإن أردت المواصلة فكلي آذان صاغية».

عندها أطلقت زفيرًا متراخيًا واستأنفت:

- إلى أن أصيبت بمرض الزهايمر في أواخر حياتها، ثم أخذ إدراكها في التراجع، حتى أختي في بعض الأحيان لم تعرفها، لدرجة أنني حين ذهبت لأعودها بعد تيقنهم من إصابتها بذلك المرض كنت متوجسًا من تلك الحالة التي حكوا لي عنها، حزينًا خائفًا لا أعرف ماذا سيصدر مني من ردة فعل إن لم تعرفني، لكن ما هالني أنها بمجرد أن رأتني لدى باب المنزل فتحت ذراعيها كعادتها قديمًا حين كنت طفلًا بالابتدائية، فارتميت بحضنها وبكينا، لا أعرف لم بكت، لكني بكيت لأني طالما نظرت إليها كسندي حتى وإن غبت عنها، ولأول مرة أشعر أن ذلك الجبل قد لان وتزعزع.

لم أرحل تلك المرة إلا بعد ليلتين اتفقت فيهما مع مرافقة لرعايتها، وكررت الزيارة بعد أسبوع واحد من رحيلي، قبل أن تعود الزيارات للتباعد مرة أخرى لألاحظ مع كل زيارة أن حالتها آخذة في التراجع شيئًا فشيئًا، سواء جسدها الذي بات يذبل ويلين أو إدراكها الذي أخذ في التآكل حتى فيما يخصني. صارت لا تتذكرني إلا بعد وقتٍ طويل في بعض المرات، ومرات أخرى لا تذكرني حتى أرحل، ولشدة ما آلمني ذلك لكني اتخذت من هذا الأمر مبررًا مزيفًا لنفسي وقتها، وابتعدت في الأخير لفترة طويلة بحجة أنني لا أقوى على رؤيتها في تلك الحالة.

وأثناء تأهبي للسفر نحو حدثٍ أدبي خارج البلاد منذ عامين؛ إذ بهاتفي يرن برقم مرافقة أمي في الليلة التي في صباحها رحيلي، لأسمع صوت أمي واهنًا تخبرني أنها اشتاقت لرؤيتي، وأني غبت هذه المرة أكثر من أي وقتٍ مضى. هالني أنها تذكر مدة غيابي على الرغم من مرضها، وأشعرني ذلك بالنقمة على جحودي، إلا أنني صرت أتساءل: هل هناك من أخبرها، أم تذكرني وتذكر مدة غيابي وحدها؟! وهل هذه أول مرة تدرك انقطاعي، أم أدركت أيضًا فيما سبق؟

لكن لم يكن باستطاعتي زيارتها إلا لو أخلفت سفري، لذا بقيت مترددًا أثناء حديثنا للحظات، أنهيتها بأن قررت إتمام سفري، قاطعًا لها وعدًا بزيارتها بعد رجوعي لأقضي معها عطلة كبيرة، معللًا ضرورة إتمام السفر بالحجج والعلل، فلاحظت انعدام رضاها عن تلك المبررات التي سقتها من خلال إصرارها ومحاولتها مرارًا أن تثنيني لأزورها، ولمّا تشبثت بقراري ظهر جليًا سخطها المكتوم، وأنهت حديثنا دون رضا، لأفهم بعدها أنها تمنت أن تُملّي عينيها من رؤية فلذة كبدها، وتحتضنه قبل فراقها الأبدي الذي لا رجوع فيه، وأن تذكُّرها لغيابي لم يكن سوى صحوة الموت كما يرددون.

ففي اليوم التالي وبينما كنت بسفري اتصلت أختي لتخبرني أن أمنا أغمضت عينيها عن الدنيا ولن تفتحهما من جديد، لترحل دون أن ألبي لها رغبتها برؤيتي، وتفارقني بقلبٍ ساخط عليّ، كأن القدر يعاقبني على تقصيري في حقها في أواخر أعوامها.

عندها وعلى الرغم من التأثر الذي لاح جليًا على وجه سيدة الكوخ، إلا أنها ابتسمت مواسية:

«لا تُحمّل نفسك أكثر مما تنوء به، ولا تُفسر ذلك الأمر على ظاهره، إن لم تكن راضية عنك كل الرضا ما ابتغت رؤيتك قبل رحيلها، وما أحسسته سخطًا منها لم يكن سوى اشتياق، لكن أخبرني ألم تتزوج وتُلبي رغبتها التي تمنتها حال حياتها؟».

هززت رأسي بمعنى النفي، ورددت:

«منذ فقدت أمي توقفت حياتي، لم أكتب سطرًا من بعدها، لم أحضر لقاءً، لم أقبل على عمل أو زواج أو غيره. في أول الأمر ظننت أن ذلك سيدوم لفترة وجيزة، من بعدها أتناسى عائدًا إلى حياتي السالفة كعادتي، لكن ها قد مر ما يقرب من عامين انفض فيهما العالم من حولي ولا زلت على ذات حالي. لا أخفيك أمرًا، فقد حاولت الرجوع إلى الكتابة مرارًا وتكرارًا، إلا أنني صرت كمن فقد قريحته، أو فقد شغفه بتلك الحياة الملهية، بل أحيانًا أظن أن سبب انقطاعي هو نفسي البارة التي تعاقب نفسي الجاحدة، فتحرمها مما تسبب في جحودها، أو أن أمي التي أكرمت في الحياة بفضلها ماتت ساخطة فزال ذلك الكرم من بعدها.

إلى أن خطر في بالي منذ عدة أيام أن آتي إلى ذلك المصيف الذي واظبت على زيارته سنويًا بأيام الجامعة رفقة صديقٍ يقطن قرية تابعة لهذا المركز، حيث أعرف أنه يكون خاويًا على عروشه بفصل الشتاء، لذا أردت أن أجرب الابتعاد فيه عن الدنيا وحدي، أو أن أسترجع أيام الصبا علّني أستطيع أن ألملم نفسي وأتصالح مع ذاتي، وقد أجد حينها

الأفكار تنساب إلى ذهني من جديد.

حتى حينما قررت السكنى فيه اخترت أقدم شواطئه وأكثرها خواءً، شاطئ الفنار المتاخم لتلك الكثبان الرملية، وبينما كنت أسير على شاطئه لمحت كوخك، فجئته بحثًا عمّا قد يحرك ركود أفكاري ويطلق قلمي من جديد، وها أنا الآن بين يديكِ».

ارتسم وجهها بابتسامتها الودودة ما إن انتهيت، وأخذت تتقاذفنا الأحاديث لساعة أو يزيد يحاول كل منا مواساة الآخر في حاله، إلا أنني عندما أحاول وطأ تلك المنطقة التي تخفي فيها سرها أجدها تأخذني بعيدًا عنها، إلى أن اعتلت وجهها طلائع النعاس، ففرشت لي على الأرض جوار فرشتها إحدى جلابيبها، وأعطتني عباءة صوفية ثقيلة لألتحف بها في نومي قبل أن تطفئ نار المصباح لنكتفي بالنور الضئيل المتسرب من نار الموقد.

لم يبدُ استدرار عطف النوم على مقلتيَ بالأمر الهين، خاصةً وقد اتضح من حديثنا أن وعيها وإدراكها بكامل قواهما، وفي ذات الوقت لم أستطع أن أفض غشاء أسرارها الممعنة في طيه. صرت أتقلب لساعة أو يزيد على فراش بالكاد عصمني من الرمال التي تشكلت بشكل جسدي مع طول رقودي، بينما لم يراودني أي إحساس بالندم على مرافقة تلك السيدة أو المبيت معها، بل بالأحرى سعدت بتلك الصحبة، وانتويت ألا أتركها دون أن أجد حلًا لأمرها، كأني أزداد يقينًا بأن برها قد يعوّض شيئًا من ذلك البر الذي قصّرت في حقه، أو كأنني أبحث عن المصالحة مع ذاتي من خلالها.

maktabbah.blogspot.com

لكن لا أدري متى تملك مني النوم لأستيقظ بعدها أثناء الليل ولا أراها إلى جواري، لذا قمت منتفضًا من مكاني، فتحت باب الكوخ، فرأيتها واقفة أمام البحر مولية ظهرها لي بينما يدور شعاع الفنار في الأفق حولنا قاطعًا ذلك السواد المحيط، اقتربت منها ببطءٍ حتى وقفت إلى جوارها، لتعاجلني قبل أن أنبث ببنت شفة ودون أن تشيح بوجهها ناحيتي:

«هل ستصدقني إن حكيت لك ما يجعلني موقنة بأن إسماعيل على قيد الحياة؟».

«بالطبع يا أمي».

نظرت نحوي بعينين لامعتين، ثم قالت:

«أخبرتني إحدى حوريات البحر ذلك، قالت أن ابني في جزيرة طويت عن الأعين بقلب البحر تُدعى جزيرة آربوس».

اعتلت علامات الاندهاش الممزوجة بشيءٍ من نشوة النصر جبهتي، وسألتها:

«متى كان ذلك؟».

عادت بوجهها نحو البحر في حبور:

- بعد عدة ليالٍ من مكوثي وحيدة ثكلى، فقدت الأمل في رجوعه وانتويت أن ألحق به إلى جوف البحر، وذات ليلة قمرها بدر وموجها متراخٍ كنود، نزلت إلى الماء، صرت أخطو فيه حتى بلغ الماء نحري عندما ظهرت تلك الحورية أمامي من تحت الماء، فارعة الطول، ذات شعرٍ مفروق انسدل على ظهرها، بينما استقر بأول مفرقه أعلى غرتها لؤلؤة صغيرة، كادت تضيء من بهائها، فائقة ذلك النور بسائر وجهها، إلا أن كتفيها وأعلى صدرها بدا عليهم آثار ندوبٍ وجروح غائرة.

تملكني الرعب والهلع حتى كاد أن يغشى علي، إلا أنها هدأت من روعي بابتسامةٍ كشعاع الشمس في شروقٍ زاهٍ قبل أن تخبرني أنها تراقبني منذ عدة ليالٍ وتعرف حكايتي، بل وتعرف أن ابني ذهب إلى آربوس.

- ولِمَ لم يرجع؟

- لا يقدرعلى الرجوع، ولا يمكنها الإتيان به، لكن...

- لكن ماذا؟

- يمكنها أن تأخذني إليه بشرطٍ واحد.

- ما هو؟

- ذلك الفنار القديم المجاور للفنار الحالي.

- ماذا به؟

- لا بُدَّ أن يعاود شعاعه الدوران ولو لدقيقة واحدة بالمساء، إن حدث ستأتي لتصطحبني بمجرد أن يدور ضوؤه فوق صفحة البحر.

- هل أخبرتك لم الفنار القديم تحديدًا؟

- لم تخبرني، إلا أنه شرطها الوحيد.

الفنار

أنهينا حديثنا عن تلك الحورية قبل أن نعود نحو الكوخ، متيقنًا من أن هذه المسكينة تعاني من اضطراباتٍ ذهنية -نتجت عن فاجعتها- تجسد لها أوهامًا تراها كأنها والواقع سواء، لذا صرت طوال ليلتي التي لم أذق فيها طعمًا للنوم أفكر فيما يمكنني القيام به لأجلها، لا سيما وقد لمّحت لي أثناء حديثنا أنها ترجو مساعدتي من أجل تشغيل الفنار القديم ولو لدقيقة واحدة، ذاك لأنها حاولت مرارًا وتكرارًا استعطاف حارسي نُزُل الفنارين اللذين يتبادلان الخدمة أسبوعًا بعد أسبوع، إلا أنهما لبثا يرفضان على الدوام، معللين ذلك بأن القديم قد تم تسليم أمره لهيئة الآثار ولم يعد تابعًا لهيئة السلامة البحرية، وأن منارة الجديد صارت هي المنوطة بمهمة الدوران وحدها لأجل إرشاد السفن القريبة.

وعلى الرغم من يقيني أن كل ما حكته ليس سوى محض أوهامٍ وخيالات مرضية، إلا أنني انتويت أن أثبت لها تدريجيًا بلا تعجل أن ما رأته لا يعدو حلمًا اختلط فيه الواقع مع الخيال بذهنها، وفي سبيل ذلك يتوجب أن أبدد هذا الأمل الذي به تتشبث، وهو أن دوران شعاع الفنار القديم سيرسلها إلى تلك الجزيرة الوهمية، مقتنعًا بأنني لن أصل إلى هذا إلا بدورانه، لأقطع الطريق على الأمل الذي راودها؛ علها تعود لرشدها وتعود لحياتها، فلن أخذلها وأتركها لتلك الأوهام تقضي على ما بقي من عمرها، ويكفيها ما قاسته من فقدان ولدها.

maktabbah.blogspot.com

حتى أشرقت الشمس على سجالاتي الفكرية مرسلةً أشعتها الصفراء بين ثنايا الخشب والقماش لتستيقظ تلك المسكينة على صوت فتاةٍ تنادي من خارج الكوخ، استبقت إلى الباب فاتحًا لها، لأدرك أنها أخت الفتاة الأولى من تشابه القسمات. تركت لنا صينية عامرة بأصنافٍ من الأطعمة المعلبة، أحد (جراكن) الكيروسين، كثيرًا من الخبز، وبعض الفاكهة قبل أن تغادرنا مسرعة، حين بدا أن نقودي أحدثت شيئًا من الرواج لديهما.

جلسنا لتناول الفطور، تناولته بشهيةٍ غابت عني منذ أمدٍ بعيد؛ كأن ذلك العزم الذي دب بداخلي أعاد لجسدي نشاطًا وعزيمةً كان قد نسيهما، وما إن أنهينا فطورنا حتى استأذنت منها لأعود نحو سكني بالمصيف، على أن أعاودها بعد أن أستبين أمر الفنار وأبدل ملابسي وأجلب بعض حاجياتي.

من وقتها صرت يومًا بعد يومٍ أتردد على السور المحيط بالفنارين، حيث ربض في منطقةٍ خاوية في آخر المصيف من الناحيةِ الغربية، فليس ثمة شيءٍ بعده سوى تلك الكثبان الرملية الصفراء، ولم يحطه أي بناءٍ إلا نزلًا صيفيًا للشباب من طابقٍ واحد كبير قبع أمامه، في حين مر بينهما طريقًا ممهدًا، حتى بداخل السور لم يستقر هناك سوى مسكنٍ صغير لحارس الفنار

المناوب، توسط مسافةً قدرها ثلاثين مترًا فصلت ما بين الفنارين، بدا قديمهما فنارًا حديديًا أسود ارتكز على ثلاثة قوائم يتوسطها سلم دائري ضيق ينتهي بحجرة المنارة المتسعة قليلًا عن السلم، وتجاوز طوله الستين مترًا موحيًا بالعراقةِ والأصالةِ والتاريخ، أما الآخر فقد بدا بشكل مكعب ذي لون فضي باهت موحيًا بالحداثةِ والتطور، لكنه أقصر من زميله بكثير.

في صبيحة كل يومٍ صرتُ أدق باب السور محاولًا اجتذاب أطراف الحديث مع المناوب من كلا الحارسين اللذين سئما من محاولاتي المتكررة وذرائعي الواهية للحكي معهما بخصوص الفنار، حتى تجاسرت في إحدى المرات، وعرضت على أحدهما مبلغًا من المال مقابل تشغيل المنارة ولو لدقيقةٍ واحدة؛ كاد أن يبلغ عني السلطات وقتها، من بعدها امتنعا عن مجرد مواربة الباب لي، لذا أخذت أقف في أيامي التالية بجوار السور مراقبًا لحين حدوث أي جديد أو محاولًا اجتذاب أطراف الحديث مع أيٍّ من المارة النادر مرورهم أو مع خفراء ذلك النزل الخاوي، في سبيلي لأن أستقي أي معلومات عن منارة الفنار القديم أو عن الحارسين اللذين رفضا الإذعان، لكني ما توصلت إلى أي جديدٍ سوى أن منارة الفنار القديم لا زالت صالحة للعمل، حتى كدت أستسلم لاستحالة ذلك الأمر الذي أنشده. بذات الوقت كلما فاتحت أم إسماعيل بخصوص حديثها مع تلك الحورية محاولًا أن أزعزع يقينها حوله، تخبرني أنني أديت ما علي وزيادة، وتطلب مني أن أعود لحياتي لتنتظر فرجًا يأتيها من الله وتدور المنارة.

إلى أن اقتربت من السور قادمًا من جهة الكوخ في صبيحة يومٍ مشرق على غير عادة أيام الشتاء، وأبصرت من بعيد سيارتين فاخرتين ربضتا على جانب الطريق المعبد الذي يمر من أمامه، فهرعت نحوهما مستفسرًا عن أخبارهما من هنا وهناك، لكني عدت بلا خفين وبلا حنين. لذا استجمعت البقية الباقية من شجاعتي وأخذت أطرق باب السور مرات ومرات حتى فتح لي حارس الفنار الأصلع ذو الشارب الكث الذي وبخني سابقًا حين راودته بالمال، بدا فظًا متجهمًا هذه المرة، إلا أنني لمحت من خلفه عند الفنار القديم فتاة في العقد الثالث من عمرها أحاطها مجموعة من الرجال الذين حملوا آلة تصويرٍ كبيرة، جهاز بث صغير، حاسوب نقال، وبعض المعدات.

سألته عن زائريه، فرد بغلظة:

«ليس من شأنك أن تسأل، وإن كررت قدومك فلن أتورع عن إبلاغ الشرطة هذه المرة».

قال جملته حالما وكزني في صدري كي أتراجع ليغلق الباب، إلا أنني استشطت بنار اليأس

والغضب، وصرت أصيح بينما أعيقه بجسدي عن غلقه:

«ليس من حقك أن توكزني هكذا، أنا لم أرتكب إثمًا كي تضربني، ولسوف أشكوك لقياداتك، بل سأشكوك للشرطة التي تظن أنني سأرتعد خيفةً من ذكرها، لا تظن أنك تتعامل مع شخصٍ جاهل أو لا يدرك حقوقه، ولقد نما لعلمي أنك تُدخل للفنار القديم من تراه على هوا نفسك ليزوره ويلتقط الصور التذكارية إلى جواره».

علا صياحه هو الآخر وبدأ يدفعني بعنفٍ أكبر بينما أقاومه بكل عزمي حين هرع إلينا شخص بدا من سترته الأنيقة أنه أعلى منه مرتبة، ولا يمت للإقامة هنا بصلة، خاطبني مستفسرًا:

«ما شأنك يا هذا؟».

تمالكت نفسي واعتدلت في وقفتي:

«أنا يوسف المهدي، كاتب وروائي مصري، كل مطلبي هو زيارة الفنار القديم لأن قسمًا كبيرًا من روايتي الجديدة يدور في محيطه».

- تشرفنا بك سيدي الكريم، لكن زيارته ممنوعة في الوقت الحالي إلا بتصريحٍ خاص، ذلك إلى أن تقوم الجهة المسؤولة عنه بترميمه، حيث من المؤكد أنك تعلم أن عمره تجاوز المئة وخمسين عامًا، وصعوده فيه خطر جلي، من بعدها سيتم عزله بسورٍ منفصل عن الفنار الحالي، وسيتم فتح باب زيارته للجمهور.

- وكم سيستغرق هذا الأمر؟

- الله وحده أعلم، لقد تم تسليمه إلى هيئة الآثار منذ سنواتٍ خلت، ولم يتم البدء في ذلك بعد.

- هل يمكنني مجرد الدخول ومشاهدته عن كثب؟

- بالطبع هذا أيضًا لا يجوز إلا بتصريحٍ من الهيئتين. قالها وهو يبتسم متأففًا.

- إذًا من هؤلاء؟

- لقد أجبت عن تساؤلاتك فيما يخص الفنار، أما ما دون ذلك أظن أنه ليس من شأنك.

هنا نفذت ذرائعي، ابتسمت شاكرًا، وتراجعت قليلًا، ليصفع الشارب الكث الباب بوجهي، لكني لم أرحل وبقيت واقفًا جوار السيارتين منتظرًا. لا أعلم فيم أنتظر أو ماذا أتأمل، لتمر دقائق ويفاجئني فتح الباب من جديد، حين ظهرت الفتاة مهرولة نحوي:

«أديبنا يوسف المهدي؟».

تلعثمت وارتبكت وظهرت حبات العرق على جبهتي كزغب ذقن صبي في أول شبابه، لم أدر هل من تلك المفاجأة التي أعادت لي أملي في سبر أغوار هذا المكان، أم من إطلالتها التي خفق لها قلبي إلى الحد الذي اختطف أنفاسي؟ ليس لجمال قسماتها الذي فاق كل بطلات رواياتي السابقات وحسب، بل لابتسامةٍ على الفطرة، وبريق عينين يأسر، وألفة تطاير حولها شذى الود.

أزغت بنظري قليلًا عنها إلى الأرض كي أتمالك حالي، ورددتُ مبتسمًا:

«هل تعرفينه؟».

- ومن لا يعرفه؟!

- كثر لا يعرفونه، أهمهم في الوقت الحالي حارسي ذلك الفنار ورئيسهما.

افترَّ ثغرها عن ضحكةٍ خفيفة ضاقت لها عينا الريم الواسعتين، وانزوى وجهها لتبزغ تلك الشامة فوق خدها الأيمن كحجر كهرمانٍ أسود، فأطلقت العنان إلى قلبي يتأملها للحظاتٍ قبل أن أمسك لجامه من جديد سائلًا:

«أرى في الداخل بعض المعدات، هل تتبعون وزارة الآثار أم هيئة الملاحة البحرية؟».

أومأت نافية:

«أنا إسراء، وأعمل معدة ومخرجة في إحدى أكبر القنوات الوثائقية في الوطن العربي، وأرأس ذلك الفريق الذي جئت بصحبته لإعداد فيلمٍ وثائقيٍّ عن فنار البرلس القديم».

أشارت نحوه حين قطبت حاجبي.

- هل يملك هذا القدر من الأهمية؟

- لا يغرنك الإهمال الذي صار عليه، فهو يعد واحدًا من أقدم فنارات مصر المطلة على البحر المتوسط، ثاني أطول برجٍ حديديٍّ قديم بعد برج إيفل، ومسجل في هيئة المعارف البريطانية في أربع صفحاتٍ كاملة، لكن بعيدًا عن الفنار إن سمحت لي، فيمَ اختفاؤك في السنتين الماضيتين. اشتقنا لكتاباتك، هل من عودةٍ قريبة؟

- هل ستقومين بعمل فيلمٍ وثائقيٍّ عني أنا أيضًا؟

جاملت دعابتي السخيفة بضحكةٍ قصيرة ثم ردت:

«أنا كنت متابعة شغوفة لكل كتاباتك سواء القصيرة منها التي تنشر في صفحاتك على مواقع التواصل أو في الصحف، كذلك مطبوعاتك من الروايات، شأني في ذلك شأن الآلاف من المهتمين بالأدب في الوطن العربي كله، حتى هالني غيابك، وإنه بالطبع لشرف لي أن أنشر عنك ولو تسجيلًا قصيرًا».

«لا يستحق الأمر كل هذه الضجة، هي ظروف شخصية معقدة ولت ولله الحمد، والآن جئت إلى هنا لأبدأ في روايتي الجديدة التي تتعلق بعض أحداثها بذلك الفنار، باعتباره قديمًا ومهجورًا».

كسا وجهها التحفز، وسألت:

«إذن ستكون إحدى روايات الرعب التي تجف لها الحلوق وترتجف من إثرها الأوصال؟».

ابتسمتُ موافقًا فأضافت:

- «أتعشم ألا تتلقفها شركات الأعمال السينمائية قبل أن تصدر مطبوعة، لأني أعشق قراءة كتاباتك أكثر من مجرد مشاهدتها في عملٍ مصور تُستأصل فيه روح الرواية».

maktabbah.blogspot.com

- بالطبع ستكون عودة لروايات الرعب من جديد، ويقينًا سأنشرها ورقيًا لأني اشتقت أيضًا لرائحة الورق ولشغف قرائه.

- اعذرني إن جئت متعجلة لألحق بك، لكني أريد أن أستهلك لدقيقةٍ واحدة أحضر فيها رواية (ولكن غرباء) فهي بين حاجياتي بتلك السيارة، وأريد أن أستأثر بتوقيعٍ مميز عليها.

- فيم العجلة؟ إلى متى ستدوم إقامتكم هنا؟

- حسب ما سيقتضيه العمل، لكن لن تقل عن سبعة أيام.

- إذًا من الضروري أن نلتقي مجددًا لنتحدث بشأن الفنار باستفاضة، حيث من المؤكد أن في حوزتك ما لا أحوزه من أخبارٍ بشأنه.

تهللت أساريرها لأدرك أنني أصبحت في أول طريقي لبلوغ المنارة، وفي ذات الوقت خالج قلبي نسيم بارد لأني سأعاود رؤيتها. اتفقنا على أن نلتقي قبل الغروب، ومن المفارقات أنها وذلك الفريق أقاموا في نزلٍ قريب من مسكني هنا في شاطئ الفنار. لذا ودّعتها على موعدٍ باللقاء بعد أن تبادلنا أرقام هواتفنا، قبل أن أتجه مباشرةً نحو الكوخ لأخبر أم إسماعيل أن هناك أملًا قد انبثق من بين جنبات اليأس، وأنني اقتربت من تشغيل المنارة مع بعض التلميح

والتمهيد لها بأنه إن لم تتحقق أمانيها في الليلة التي يدور فيها الفنار، سنتيقن أن الحوار الذي دار بينها وبين الحورية كان مجرد حلم استيقظت بعده في النهار وهي لا تدرك هل حلمًا كان أم حقيقة.

انبسطت سرائرها أكثر من أي وقتٍ مضى، ولمع في عينيها التحفز والحبور، ثم أجابت على تلميحاتي أن تلك الليلة ستكون أسعد لياليها دون أن تشير إلى موافقة أو رفض لحديثي، لذا غادرتها حائرًا من أمر يقينها الآخذ في الازدياد يومًا بعد يوم، عائدًا نحو مسكني الذي اعتدت زيارته لدقائق معدودة طوال الأيام السابقات، وذلك لأُهيأ نفسي للقاء إسراء.

طوال أمد الانتظار صرت أحاول ترتيب أفكاري لأقنعها بتشغيل منارة الفنار القديم، حتى هدتني نفسي لمحاولة الإيعاز لها بأن تشغيل المنارة في المساء مع تصوير شعاعها الدوّار من زوايا متعددة من لدى الشاطئ مثلًا، من فوق الكثبان الرملية، ومن غرفة المنارة ذاتها وغيرها من الأماكن؛ سيبدو حدثًا مميزًا في فيلمها الوثائقي، ويمنحه رونقًا مختلفًا عن مجرد تصوير الفنار وهو هامد، وبعد أن اهتديت إلى تلك الوسيلة وشابني إحساس عال بقابلية تنفيذها؛ أخذتني أفكاري إلى تلك اللحظة التي ستصطدم فيها أم إسماعيل بالحقيقة، وماذا عليّ أن أفعل حينها وماذا بوسعي أن أقول.

لكنني لم أكن ألبث دقائق في ترتيب تصوراتي هنا وهناك إلا وأجد أفكاري تتسرب إلى مراجعة تفاصيل لقائي الأول بإسراء مرات ومرات بلا فتورٍ ولا ملل.

maktabbah.blogspot.com

تلك القسمات التي بدت كمنحوتة إغريقية لأفروديت، دب بها رمق الحياة بروحٍ كاد أن يتطاير من بين ثناياها الود والألفة. فهل تتآلف الأرواح كما يقولون، أم أن روحي كانت ظمأى لمثل تلك الألفة؟ ظمأ نبات تيبست أوراقه وجفت غصونه وانزوى على نفسه. ما بثّ على يقين منه أن روحي لاقت من الألفةِ ما جعلها تعاود الميل للحياة -التي تمثلت في قسماتها- من جديد بعد طول هجرٍ ونكران؛ ما جعلها تستسلم لشرود أفكاري التي تحوم حول تفاصيلها الآسرة، وتصورات لقائنا القادم.

أسرح فيها طويلًا مبتسمًا، لتنبثق في داخلي مشاعر مغايرة تزاحم تلك التي عايشتها لسنين طوال، بل وتزحزحها. إلى أن لاقيتها أمام باب النزل الذي قطنوه في موعدنا، وقد ارتدت ثوبًا رياضيًا أبيض رسم قوامًا متناسقًا، بينما انعقد شعرها الأسود كذيل مهرة عربية أصيلة، فاسترسل على ظهرها في حزمةٍ متناسقة، وغطت عينيها البنيتين بعويناتٍ سوداء. أكثر حيوية وبشاشة عن الصباح بدت، في حين بقيت على ذات هيئتي البسيطة، أغطي أوصالي بسروالٍ وقميص متواضعين، لا أملك مزايا سوى قسماتٍ حادة قالوا أن لها هيبة لكنها لا تفتقر إلى الوسامة. بادلتني التحية بابتسامةٍ أعذب من تلك التي ارتسمت على وجهها

في الصباح، بعدما ظننت أن الأولى هي أعذب ما رأيت، لأدرك أن أبهى ابتسامتين رأيتهما يملكهما وجه واحد.

مشينا في اتجاه الشاطئ أحاكيها عن إقامتها، وهل ينقصها ما أستطيع تدبيره بحكم خبرتي في هذا المكان لمدةٍ طويلة، لكنها بدت قوية خشنة فيما يتعلق بتفاصيل المعيشة من مأكل وملبس وإقامة بحكم طول باعها في السفر والتنقل، على الرغم من مظهرها الذي يوحي باللين والرقة، إلى أن بلغنا ساحل البحر الذي مشينا في حزاه، بينما تداعبنا نسماته الهادئة وسط معزوفات أمواجه الوئيدة لأبادرها بعد حينٍ من الإطراق في الحديث عن الفنار، أخذت تحكي تفاصيلًا كثيرة عن تاريخه بأسلوبٍ أكاديميٍ سلس، منها أنه الفنار الوحيد المتبقي من مجموعة فنارات بناها الخديوي عباس حلمي الثاني في ستينيات القرن قبل الماضي، بواسطة مهندسين فرنسيين وإنجليز، وأن طوله ستين مترًا، واستمر في العمل لأكثر من مئة وعشرين عامًا.

وأثناء استرسالها في الحديث عنه بلباقةٍ ودراية زادتني تقديرًا لها، خطر لي أن أحكي لها عن فكرة آربوس، تلك الجزيرة المطوية عن الأعين بجوف البحر، وعن الفنار الذي يفتح إحدى بواباتها على أنها إحدى الخرافات التي من الممكن أن تتحدث عنها في فيلمها دون أن أتوغل في الحديث عن سيدة الكوخ، لذا عاجلتها بالحديث:

maktabbah.blogspot.com

«هل تعرفين أن هناك إحدى الخرافات تحكي عن وجود جزيرة في عرض هذا البحر مطوية عن الأعين تُدعى جزيرة آربوس، وأن هذا الفنار كان يفتح بوابةً لها في أيام دورانه؟».

ابتسمت بما يوحي التفهم.

- هناك العديد من الأفلام الوثائقية أو المقالات التي تناولت بعض الأساطير المتعلقة بهذا البحر، التي منها ما لبث حيًا يتناوله سكان القرى الواقعة على البحر بامتداده مثل الجزيرة المطوية على اختلاف مسمياتها، وهذه تحديدًا لها جذور تاريخيه متعلقة بـ (بوسيدون).

- هل تقصدين إله البحرعند الإغريق؟

أومأت برأسها بمعنى الموافقة، ثم تابعت:

«انبثقت تلك الأسطورة على الأرجح بعد موقعة سالاميس البحرية عام أربعمائة وثمانين قبل الميلاد ما بين الإغريق والفرس، التي انتصر فيها الإغريق على أعدائهم نصرًا مؤزرًا، فتحكي عن بوسيدون أنه لعن جثث وأرواح غرقى الفرس، ونفاها إلى جزيرةٍ مطوية عن الأعين في عرض البحر بعد أن فقأ أعينهم، وقطّع أوصالهم، ثم تشعبت

الأسطورة للعديد من الأساطير حول فكرة الجزيرة المطوية ذاتها، منها ما تحكي عن جمالها أو عن الكنوز التي تحويها، وأكثرها رواجًا ما تذكر أن الغرقى الذين لا تظهر جثثهم يؤخذون إليها قبل أن تفارقهم الحياة في جوف البحر».

- ولم الأكثر رواجًا من بينهم هي تلك الأسطورة المتعلقة بالغرقى؟

- إذا ما وضعنا في الاعتبار أن هذا البحر يُعد أكثر البحار التي استخدمها الإنسان على مر العصور في الحروب أو الهجرة أو التجارة وغيرها، فقد كان ولا زال يتوسط العالم قديمًا وحديثًا، يطل عليه عشرات الدول ومئات المدن، ويتوسطه ما يقارب المئة وخمسين جزيرة. بالتالي كان من أكثرهم في أعداد الغرقى داخل حشاه، ومعنى وجود غريق أن هناك من يثكله، خاصة إن لم تعاود جثته الظهور. لك أن تعلم أن التقارير الرسمية بشأن غرقى الهجرة الغير شرعية وحدهم في السنوات الأخيرة تفيد أن أعدادهم تتجاوز الألفين غريقًا في السنةِ الواحدة، وبالطبع الكثير من جثثهم يُفقد في البحر، ما بالك بالأرقام الحقيقية، التي على الأرجح تزيد عن تلك التقديرات الرسمية بأعدادٍ كبيرة، لا سيما مع صغر تلك المراكب المستخدمة في الهجرة، وخلوها من أي أجهزة بث أو ملاحة، أضف إلى ذلك غرقى السفن الأخرى بكافة أشكالها، غرقى المصطافين، والغرقى في شتى الظروف الأخرى. آلاف الغرقى في كل عامٍ منذ مئات السنين لمئات الأسباب، منهم أعداد كبيرة تعلق جثثهم في البحر، حتى أسماه البعض مقبرة البحر المتوسط.

كذلك فإن من دعائم فكرة الجزيرة المطوية عن الأعين في بلادنا هي الجذور الدينية لها، فقد تعلم أن هناك بعض الآراء القوية تذهب إلى أن المسيح الدجال محبوس في كهفٍ في قلب جزيرة مطوية عن الأعين في هذا البحر، ويقال أن يأجوج ومأجوج أيضًا في بقعةٍ مطوية على اليابسة.

- وهل لهذه الفكرة أي رجاحة واقعية؟

- فكرة أن هناك أماكن على الأرض أو في باطنها مخفية عن أعين البشر تناولها العديد من المفكرين أو حتى العلماء، فيزيائيًا أمر تلك البقعة المخفية سواء جزيرة أو غيرها وارد نظريًا، فإن كانت الثقوب السوداء تبتلع أي شعاعٍ ضوئيٍ يقترب منها فلا تُرى، فإن تلك الجزيرة أو البقعة قد تحاط بغلافٍ جويٍ مثلًا يغطيها برًا وبحرًا وسماءً، لكنه على سبيل المثال يتمتع بخصائص فيزيائية مختلفة عن الغلاف الجوي للأرض من ناحية التكوين والمزايا، بحيث يشتت الموجات الضوئية أو الصوتية التي تقع عليه أو تنعكس من داخله أو تمر من خلاله بزوايا انحرافٍ معينة، فلا تُرى البقعة التي يحيطها بداخله رؤيا العين أو بالرادارات أو حتى بالأقمار الصناعية، فترسم الخرائط الإلكترونية أو الورقية وخطوط الطول

ودوائر العرض دون رؤية تلك البقعة، ودون وضعها في الاعتبار، فهي ليس لها وجود مادي مُدرك يمكن الوصول إليه.

أضف إلى ذلك أن يتمتع ذلك الغلاف بقوى تنافر أو طرد للأجسام التي تقترب منه بآليةٍ ما، كقوى التنافر في المغناطيس، ليحيد الجسم المقترب الذي لا يرى ذلك الغلاف بصورةٍ غير إدراكية لليمين أو اليسار أو بأي اتجاهٍ دون أن يُدرك تغير اتجاهه، متبعًا خط سيره الذي رُسم في الأصل دون اعتبارٍ لتلك البقعة، فالخط المستقيم الذي تسير فيه قد يكون مستقيمًا بالنسبة لك لأنك تراه مستقيمًا وفقًا للثوابت المحيطة التي تدركها، ووفقًا لمسارات الضوء الطبيعية، ليس لأنه بالفعل مستقيم، هو أمر معقد يتعلق بالنسبية، لكنه وارد نظريًا، أما واقعيًا فأنا أعتبر أن كل ذلك من قبيل الخرافات ليس إلا، فيما عدا ما يتعلق بالأمور الدينية إن صح ذكرها.

- إذًا وما قصة الفنار وأنه يفتح البوابات وغيرها؟

- أساطير الفنارات القديمة وثيقة الصلة بأساطير البحار، هي خدام روح البحر في بعضها، وأصحاب كراماتٍ فيما يخصه بأخرى وهكذا.

حينها أومأت برأسي بمعنى التفهم، حالما أخذت أحاول التمهيد لفكرتي عن تشغيل منارة الفنار القديم، لكن تلاعبت بي الحيرة ما بين أن أخبرها بكل الحقيقة، وبين إقناعها بأن ذلك سيبدو أمرًا مميزًا في تسجيلها وحسب، إلى أن آثرت التريث للقاءٍ آخر.

maktabbah.blogspot.com

أخذنا الحديث بعد ذلك لتحكي لي عن عملها في تلك الأفلام الوثائقية، البلاد التي زارتها، والمواقف التي تعرضت لها، بينما يتزايد خفقان قلبي كلما ازددتُ إعجابًا بطريقة حديثها، خفة ظلها، تجاربها الاستثنائية، وحياتها العامرة، حتى حولنا دفة الحديث إلى كتاباتي وحياتي والذي تحاشيت فيه الكلام عن سنواتي الأخيرة. إلى أن أوشكت الشمس على المغيب في سماءٍ صافية، ووقفنا لبرهةٍ أمام البحر صامتين. حينها خلَعت عويناتها فاسترقت النظر إلى عينيها، لأجد مسامعي قد توقفت عن التقاط صوت البحر، وتوقف إحساسي بتلك النسمات، وأدركت أن عناق السماء للبحر عند مغرب الشمس وسط إكليلٍ من الخيوط الذهبية لا يفوق تلك العينين روعةً. لكني تحاشيت التمادي في النظر نحوهما كيلا ينفلت لساني ويخبرها أنها أجمل ما رأيت، وأشحت نظري نحو البحر، بينما ألتقط شهيقًا طويلًا أواري به اضطراب خواطري.

مر الوقت سريعًا قبل أن نتخذ طريقَ عودتنا، لأخبرها خلاله أنني أرجو معاودة لقائها، لا سيما أن المصيف خاوٍ في تلك الفترة من السنة، وما من سبيلٍ لأيةِ تسلية سوى المسير لدى

الشاطئ، بينما عانيت من طول وحدةٍ كادت أن تفتك بذهني. ابتسمت في وجلٍ وأخبرتني أن يومَ قدومهم يكون راحةً بسبب السفر، خاليًا من العمل، لهذا استطاعت أن تلاقيني باكرًا، لكن في الأيام القادمة هناك الكثير من المواظبة عليه، وما أن تفرغ من ذلك ستلاقيني.

أخذنا نتلاقى يومًا بعد يوم في أوقاتٍ وأماكن مختلفة. في إحدى المرات جلسنا عند سور الفنار، وفي أخرى صعدنا الكثبان المقابلة له، والبقية قضيناها لدى الشاطئ، ليدرك كلينا خلال تلك الفترة الوجيزة أن الشغف بيننا صار متبادلًا، يطفو فوق مهد علاقتنا جليًا في لغة الأعين، وبهجة اللقاء، وبين ثنايا الكلمات والنظرات دون تصريح، إلا أنه لم يدم شغفًا وحسب من ناحيتي، حيث لم أعد أتخيل أن تأتي ساعة للرحيل تنهي تلك السعادة التي أعيشها بقربها وأعود إلى تلك الحالة التي لبثت عليها من قبل منزويًا عن الدنيا، لا سيما وقد تيقنت أنها ألقت بذرة عشقٍ في قلبي في أول لقاء، ثم صارت تسقيها يومًا بعد يوم، حتى ترعرعت بين أضلعي مزيحة ما سواها من مشاعر قاتمة.

لهذا، بعد أن أقنعتها خلال لقاءاتنا بفكرة دوران منارة الفنار القديم في المساء وتصويرها، وبعد أن تحصلت على الموافقات اللازمة لذلك، وأثناء لقائنا في الليلةِ السابقة على هذا الحدث لدى الشاطئ، أخبرتها بالحقيقة كاملة، مستعدًا لتحمل عواقب مواراتي عنها، مفضلًا ذلك عن التمادي فيما ارتأيته -ولو بعد حين- تضليلًا لها.

اضطربت قليلًا، لكنها ما لبثت أن تفهمت الأمر دون ضيق، وأخبرتني أنه بغض النظر عن دوافعي تبقى فكرة مميزة لعملها، بل زادت على ذلك أثناء عودتنا بأن طلبت مرافقتي إلى أم إسماعيل في تلك الساعة التي ستدور فيها المنارة بعد أن تطمئن على مواقع التصوير، مبررة ذلك بأنها أشفقت على حالها، وتعاطفت مع حكايتها، وتبتغي أن تكون إلى جواري لمحاولة مواساتها في تلك الساعة التي ستصطدم فيها بالحقيقة.

في صباح يوم الدوران، أخبرت أم إسماعيل أن إسراء سترافقني في المساء حين تدور المنارة؛ لم تبتئس، بل طغى الاستبشار على حالها كعادتها كلما أخبرتها عن اقتراب الموعد، لكني بقيت معها شطرًا من النهار محاولًا تليين عقلها بخصوص ذلك الحلم، إلا أن كلامي بدا دون طائل، غبار تذروه الرياح فوق قناعاتها. لذا عدت نحو مسكني كي أعد حالي لهذه الليلة على أن أصطحب إسراء برفقتي في المساء حين رجوعي، بينما بقيت حائرًا في أمر هذا اليقين المتلألئ في نظرات أم إسماعيل، الذي من المؤكد سيزيد صعوبةً تلك الساعة التي ستنطفئ فيها جذوة آمالها، لكنني كنت سعيدًا برفقة إسراء، حيث ستهوّن علي أمر هذا الحدث، منتويًا أن أصطحب أم إسماعيل خلال أيامٍ معدودات نحو قريتها بعد أن أنهي ذلك الأمر.

لا أدري لم ازددتُ اضطرابًا كلما مرت الساعات واقترب الموعد، كأن يقينها أخذ يدغدغ ثوابتي من جديد، صرت في بعض الأحيان أشعر أنني ذاهب لتوديعها، وفي أحيانٍ أخرى أتمنى لو أستطيع أن أخبر إسراء بحقيقة ما يعتمل بقلبي تجاهها قبل تلك الساعة، كأن هناك حدثًا سيغير مصائرنا، إلى أن حل الموعد الذي لاقيتها فيه عند الفنار، قبل أن نمشي نحو الكوخ بينما أحاور نفسي ألف مرة بأن أخبرها:

«لقد أحببتك رغمًا عني..

لقد سكن هواك نبضات قلبي وأنفاسي المضطربة بين أضلعي..

لقد عدت إلى الحياة بلقائك، فلا دنيا سواكِ ودونك لا دنيا».

لكني لم أنطق، كأن لساني يتصلب حين يحاول قلبي تحريكه بتلك الكلمات، حتى استسلمت متوقفًا عن المحاولة إلى أن بلغنا الكوخ سريعًا، وكم تمنيت أن يطول المسير في تلك الليلة علني أحرك ذلك اللسان الآبق خجلًا.

قابلتنا أم إسماعيل وقد ارتدت ثوبًا زاهيًا كأنها تترقب الذهاب إلى مناسبةٍ مبهجة. سلمنا عليها وصارت إسراء تبادلها الحديث حتى دقت الساعة التاسعة ودار الفنار، دار لمدةٍ جاوزت الخمس دقائق، حالما تابعت إسراء أفراد فريقها عبر هاتفها إلى أن اطمأنت أن المهمة قد أنجزت، في حين وقفت أم إسماعيل على حافة الشاطئ في ترقبٍ قبل أن تبادرني إسراء وعلى وجهها علامات الأسف:

«علي الآن إخبار حارس الفنار بإيقاف المنارة».

سمعتها أم إسماعيل التي فاجأتنا بأن أخذت تهرول في اتجاه البحر؛ انطلقتُ في إثرها وتبعتني إسراء حتى بلغناها وقد غطى الماء خصورنا، بينما تضربنا موجات صغيرة متلاحقة. ابتدرنا اجتذابها نحو الخارج وهي تصرخ:

«اتركوني، دعوني أذهب إليها، لقد وعدتني بأن تأخذني إلى إسماعيل».

صرت أحاول تهدئة روعها بينما أحتضنها بذراعي آخذًا في جذبها رويدًا رويدًا إلى أن باغتتنا موجة عالية اصطدمت بظهورنا، وقعنا على إثرها بالماء، وبمجرد أن اعتدلت في مكاني مواجهًا للبحر، في حين أحاول مساعدتهما على الوقوف؛ هالني ما رأيت، فقد وقفت قبالتي إحدى حوريات البحر كما وصفت أم إسماعيل من قبل، ما لبثت لحظات حتى نزلت تحت الماء مجتذبة قدمي أم إسماعيل إلى الداخل بعدما قالت:

«أحضرن كل من شهد».

لتظهر من تحت الماء حوريتان أخريتان، فحاولنا أنا وإسراء الركض مذعورين نحو الشاطئ، إلا أننا قبل أن نخطو عدة خطواتٍ أحسسنا بأياديهن تمسك بأرجلنا، لذا قبضت على يد إسراء التي أخذت ترتجف من شدة الهلع، قبل أن ننكفئ في الماء مرة أخرى، ومن ثمّ سحبتنا تلك الأيادي إلى داخل البحر.

مرت لحظات عايشتها كأني في تلك المنطقة التي تقع ما بين الإدراك وانعدامه. هالات سود تغشاني وما تلبث أن تنقشع، إلا أنني لم أفلت يد إسراء التي فقدت وعيها، بينما أخذنا ننتقل عبر البحر نغطس لبرهة ونطفو أخرى، وقد استقرت أجسادنا على ظهورهن بوضعٍ عكسي، حيث أقدامنا الممسوكة قرب رؤوسهن، ورؤوسنا عند منتصف ذيولهن العريضة التي تضرب الماء بخفةٍ فتسير بسرعةٍ خاطفة. استمعت لأشلاء حديثٍ بينهما لا أدري هل كان حلمًا أم واقعًا، لكن ما أدركه جيدًا أنني فسرت خلاله جملتين:

«لن نحصل على لآلئ الميلاد مقابل هؤلاء، هم ليسوا غرقى، ففيم عناؤنا؟».

«لقد أوفت بنذرها مع أميرتنا، وأدارت الفنار الذي سيطرد العوالق عند البوابة القديمة، أما هذان قد شهدا، ووجب ألا ينقلا».

حتى بلغنا نقطة بعيدة في قلب البحر كدوامةٍ تدور في سطحه، غابت عندها أضواء الساحل بينما بقيت أنوار الفنار القديم الذي لم تُبلّغ إسراء بإيقافه. غطسوا بنا عبرها حتى بلغنا دوامة أشد في باطنه.. هنا عم السواد وفقدت وعيي.

وافدين بلا هوية

أفقت على أصوات رجالٍ يتصايحون، إلا أن جفنيّ لبثا ثقيلين وكأن فوقهما قطعتين من الصخر، بينما تمدد جسدي على شاطئٍ رمليّ، والتصقت به مادة رخوة، في حين يضربه الموج مرة بعد مرة.

- عندي جارية وعبد، وعجوز تصلح كقربان.

- وهنا ثلاثة عبيد.

- كم سيبتهج قائد الحرس بتلك العجوز، فأعداد العجائز في هذا العام شحيحة، ويوم التضحية اقترب.

- سنقتسم المكافأة إن كافأنا.

- هلموا إليّ أولًا لنبدأ بمن عندي، من بعدها سننظر في أمر المكافأة.

لم أشعر بأوصالي ولم أستطع تحريكها حين حاولت، لكني بالكاد فتحت عينيّ مقاومًا دوارًا عنيفًا يكتنفهما، لأدرك في ومضات رؤية كمن في حلمٍ تتقطع مشاهده أن خيوط الشروق الأولى قد بزغت، فأملت رأسي متحاملًا إلى يميني لأجد إسراء ممدة جواري وقد غطت جسدها شرائط متراكمة من طحالب بحرية خضراء حلت محل ملابسها، من ثم أدرت رأسي عن يساري حيث وجدت أم إسماعيل بذات الهيئة، لأدرك بنصف وعيٍ أن المادة الرخوة التي تغطي جسدي ما هي إلا تلك الطحالب الخضراء، قبل أن يأتي من حملوا ثلاثتنا وألقونا على عربة خشبية مسطحة لها أجناب بمقدار ذراع أو يزيد، في حين جرها فرسان سود، وما هي إلا لحظات وألقوا إلى جوارنا ثلاثة رجال آخرين فاقدي الوعي غطتهم الطحالب كما غطت أجسادنا.

ساروا بنا لدقائق معدودات مبتعدين عن الشاطئ الذي خفت هديره شيئًا فشيئًا إلى أن غاب، واستعدت قدرًا يسيرًا من تركيزي. اعتدلت في مكاني بينما يعتصر رأسي ألمٌ خانق لأرى بعينين اتسعتا ذهولًا شبح سورٍ ضخم لاح في الأفق، وسائقا العربة يلبسان ما بدا أنه زي جنود في القرون السحيقة، متدليًا من خصر كل منهما غمد سيفه، في حين تبعنا فارسان من خلفنا مرتدين ذات الزي، وحمل كل منهما على أحد كتفيه قوسًا، وعلق في الآخر جعبة سهام.

هتفت مخاطبًا سائقي العربة:

«أين نحن؟ وإلى أين تأخذوننا؟».

التفتا ناحيتي وقد اعتلى الاندهاش محياهما، قبل أن ينظر أحدهما إلى الآخر مستفسرًا:

«هل سبق لك أن سمعت وافدًا يسأل؟».

«لا أظن، كل من أحضرتهم كانوا مشدوهين لا يسألون».

عاجلتهما مرة أخرى:

«هل هذه الجزيرة تدعى جزيرة آربوس؟».

«ما معنى جزيرة يا هذا؟ إن هذه أرض آربوس، ومملكتنا مملكة آربوس الشمالية، إياك أن تكون عبدًا جاسوسا من وافدي آربوس الجنوبية جئتنا في صورة وافدٍ من البحر».

توقفت عن الحديث بينما تملكني ذعر لم يضاهيه أي خوفٍ سبق. صرت أرتجف وتصطك أسناني، لكن أشد خوفي انطلى على تلكما الممدتين إلى جواري: إسراء التي ما أذنبت لتقع فريسة هذا الشتات الذي أسلمتها إليه، وأم إسماعيل التي بدا أنها ستواجه مصيرًا أظلم مما اعتقدت.

بدأت تراودني حالة إنكارٍ لما أرى، أو بالأحرى لدغات أملٍ في أن أكون في قلب حلمٍ أستيقظ منه ولو بعد حين. صرت أغمض عينيّ وأسد أذنيّ محاولًا تجاهل تهادي العربة على طريقها، ثم أنتظر قليلًا قبل أن أفتحهما متمنيًا أن يتغير المشهد، لكني أكتشف في كل مرةٍ أني أفتحهما على الخذلان. حتى أفاق أحد هؤلاء الذين استقرت أجسادهم إلى جوارنا، سألته متلهفًا عن اسمه وبلده، لكنه بدا كمن فقد ذاكرة الهوية، لا يعرف اسمه، ولا يذكر شيئًا عن تاريخه أو من أين أتى، بالأحرى لا يتذكر شيئًا عن حياته، ورقة بيضاء دون سطورٍ لم يهتك بكارتها سن قلمٍ قط، إلا أنه ظل محتفظًا بثوابت الحياة ومهاراته الدارجة، فيتحدث بلغته، ويتفاعل كبني البشر، ويعرف السماء والبحر والأرض، من ثمّ أفاق الآخران كسابقهما ليعلو ثلاثتهم الوجل والحيرة، وأتيقن من فقدانهم جميعًا للذاكرة.

دار في ذهني سريعًا ذلك الحديث الذي جرى ما بين الحوريتين، ودهشة الجنديين من حديثي معهما، ثم وجل أولئك الماثلين إلى جواري، لأدرك أننا مختلفون عن سائر الفرقى الذين يأتون إلى تلك الجزيرة، حيث احتفظنا بوعينا حالما بدا أن البقية يأتون كمن مُحيت ذاكرتهم، مثلما كان قدومنا لا يمنح تلك الحوريات ما أطلقوا عليه لآلئ الميلاد، في حين يمنحهم اجتذاب الفرقى.

صرت مشتتًا مضطربًا لا أفهم ماذا يدور من حولي، بينما أخذت تتقاذفني تكهنات قاتمة بشأن ما هو قادم مع تلك المعطيات الجديدة، خاصة وقد اتضح أن أهل هذه الجزيرة لا

يعلمون شيئًا عن الحياة خارجها، ولا يرد من يخبرهم عنها، فالماء يحيط جزيرتهم من كل اتجاهٍ داخل ذلك الغلاف الذي لا يتجاوزونه، من ثم يعتقدون أن البحر مجرد دائرةٍ حول أرضهم التي تمثل الدنيا في أعينهم، لذا من المستحيل إقناعهم بخلاف ذلك، بل من الممكن أن تصير المحاولة وبالًا علينا، فها قد ظنوني جاسوسًا لمجرد أن أخبرتهم باسم الجزيرة، ومن الجائز أن ينعتوني بالجنون إن أخبرتهم أن هناك حياة بخلاف حياتهم، لا سيما -وهو الأمر الأكثر بؤسًا- أنهم يعتبروننا مجرد عبيد يلقيهم البحر كما سمعتهم.

أخذت تتخبطني تلك الأفكار حتى كدنا نبلغ السور، حينها واريت إسراء جفنيها، بينما ظلت ممددة على ظهرها، قبضت على يدها فأشاحت ببؤبؤ عينها التي لم تز سوى السماء تجاه وجهي وابتسمت، لأتيقن أنها لم تستجمع شتات وعيها، آمنة مطمئنة لوجودي الذي ستدرك حالما تفيق أنه صار وبالًا عليها. مرت دقائق قبل أن تعتدل في جلستها وترى السور والعربة والجنود، التفتت ناحيتي بعينين تحملان كل آيات الذهول والإنكار.

«لا تخبرني أن ذلك الحلم صار حقيقةً!».

شددت قبضة يدي على يدها الضئيلة بعزمٍ كسا قسماتي، وقلت مطمئنًا:

«أقسم لكِ أننا سنعود بلادنا، وستعود حياتنا التي لن أفارقكِ فيها لآخر رمقٍ في عمري، لكن عديني أن تتحملي، فيبدو أننا مقبلين على ما هو أكبر من أسطورة الجزيرة المطوية».

لبثت شاردة للحظات، ثم تقلص وجهها مفلتًا دمعتين تسللا إلى وجنتيها المخضبتين، حين قالت بصوتٍ متهدج:

«إلى أين يأخذوننا؟».

«إلى مملكةٍ تُدعى آربوس الشمالية».

صمتت زائغة البصر من هول الصدمة، بينما توالت دفعات من دمعاتها. دفنت رأسها في صدري لأشعر بانتفاضات جسدها المرتعد، لذا أخذت أربت على كتفها، وأخبرها بما عرفت، وأن علينا أن نصبر حتى نرى من أمر تلك الجزيرة قبل أن نفرغ ما في جعبتنا، إلى أن ولجنا من بوابةٍ شاهقة تخللت السور الذي علاه عدة أبراج، بعد أن حيوا أولئك الجنود زملائهم، وأخبروهم أنهم وجدونا عند البقعة التي توقف البحر عن قذف وافديه فيها منذ سنين خلت.

عبرنا طريقًا صخريًا قبع إلى حذاء السور من الداخل، أطل عليه في مقابل السور صفٌ من البيوت الحجرية ذات الطابق الواحد أو الطابقين تراصت عن يمين البوابة ويسارها، بينما

شق هذا الصف من البيوت طريق في مواجهة البوابة متجهًا نحو قلب هذه المدينة. أكملنا دربنا من خلاله، ليلوح بعض الحوانيت على جانبيه أسفل البيوت المطلة عليه، حدادين وبائعي حبوب أو ملابس وغيرها، في حين لهى بعض الأطفال، وسار المارة من نساءٍ ورجال مرتدين سراويل وقمصان من الكتان، تبعهم من بدوا عبيدًا يرتدون ملابسًا رثة حيكت من جلود الحيوانات بصنعةٍ متواضعة، غطت خصورهم إلى الركبتين من أسفل وكأنها نصف سروال، وصدورهم إلى منتصف البطن من أعلى، حالما حملوا أغراضًا أو أطفالًا أو خلاه.

لم يأبه أصحاب الملابس الكتانية لمسيرنا وكأن هذا الأمر معتاد لهم، أما مرتدو الجلود فبادلونا نظرات إشفاقٍ متوارية من عيونٍ منكسرة، في حين بادلناهم نظراتنا التي حملت كل معاني التيه والعجز والخوف.

تهادت بنا العربة في طريقٍ لا ندرك ماذا يُخفي في آخره، حين أفاقت أم إسماعيل يرتسم على وجهها أمارات الاستبشار حتى هالها وجودي أنا وإسراء إلى جوارها، ابتأست لحالنا حين أطلعتها على ما جرى في ليلتنا التي دارت فيها المنارة، أو بالأحرى تخبطت قسماتها ما بين الشعورين، لذا أحجمت عن إخبارها بما سمعت بشأن التضحية، مكتفيًا بشرح ما نحن فيه من أمر تلك الجزيرة قبل أن أسألها:

«هل أخبرتك الحورية عن طريقةٍ للعودة إلى بلادنا؟».

هزت رأسها بأسفٍ عن يمينٍ ويسارٍ قبل أن ترد:

«لم آبه لعودةٍ فما سألت».

ساد الصمت بيننا من جديد، لتعاود الرهبة والترقب نهش عقلي كوجبةٍ ساخنة حتى بلغنا - بعد مسير طويل- سورًا دائريًا كبيرًا في قلب المدينة، أطلت بوابته على ميدانٍ مزدحم تفرع منه ثلاثة طرق، أحدهم عن يمين البوابة، والآخر عن يسارها، وثالثهما طريقنا المقابل لها، في حين قبعت في قلب الميدان منصة حجرية نُقش عليها بخطٍ كبير (ساحة الملك زهير)، اعتلاها تمثالٌ ضخم لقائدٍ ارتدى زي الجنود، وزين رأسه تاج كبير، وبيده سيف يسلطه على رقبة تمثالٍ آخر ركع عند قدميه مرتديًا تلك الملابس الجلدية.

مررنا عبر بوابة السور الدائري الذي تشكل في هيئة مدرجاتٍ من الداخل على امتداد دورانه مخلفًا لساحة دائرية كبيرة في قلبه ليبدو مثل باحات الألعاب عند الرومان. اجتزنا تلك الساحة إلى الجانب الآخر منها، حيث ربضت ثكنات من ثلاثة طوابق أمام الناحية الأخرى من السور، علاها ثلاثة مدرجات من مقاعد وثيرة بدت أعلى من سائر المدرجات الأخرى، في حين توسطها مقعدان عظيمان، وظللت تلك البقعة مظلة بيضاء كبيرة.

على أرض الساحة أمام الثكنات جلس عشرات الرجال في صفوف، حفاة يرتدون ذات الملابس الجلدية، بينما يلقي أحد الجنود فيهم كلمة قابضًا بيده على سوطٍ طويل تدلى إلى الأرض، ويجاوره من ارتدى زيًا جلديًا مثلهم، إلا أنه غطى كامل جسده، وعن جانبيهما وقف بعض الجنود.

حيا آسرينا ذلك المحاضر حين أوقفا العربة بقربه، ليأتي بعض الجنود ويقتادوننا إلى تلك الثكنات عبر ردهةٍ طويلة تتخلل طابقها السفلي، بينما أقبض على يد إسراء وأم إسماعيل. قابلنا فيها العديد من مرتدي الملابس الجلدية الكاملة، إلى أن انتهت الردهة بممرين عن يمينٍ ويسار.

حاولوا اقتياد إسراء وأم إسماعيل إلى الممر الأيمن، وتوجيهي رفقة الرجال نحو الأيسر، لكني دفعت الجنود، وأمسكت بكلتيهما وواريتهما خلف ظهري، وصرت أصرخ فيهم:

«إنهما أمي وزوجتي ولن نفترق».

تكالب فوقي الجنود ضربًا، بينما أقاوم أعزلًا مستميتًا إلى أن ضربني أحدهم بمقبض سيفه في رأسي لأسقط مغشيًا علي، بعدما تراءت لي صورة إسراء وأم إسماعيل يصرخان محاولين دفع الجنود عني، فكانتا آخر ما رأيت.

لأفيق بعد مدةٍ لا أدرك قدرها، وأجد جسدي ممددًا على الأرض في غرفةٍ ضخمة مستطيلة الأبعاد، أحاطها الجُدر من ثلاث جهات، والرابعة -إحدى جهتي المستطيل الطويلتين- كانت قضبان حديدية مطلة على تلك الساحة من أعلى، كأننا في الطابق الثاني من الثكنات، ومن حولي عشرات الرجال والصبية والشيوخ ما بين جلوسٍ أو رقودٍ فوق خرقٍ بالية افترشت الأرض، مرتدين ذات الملابس الجلدية التي أدركت أنهم ألبسوني مثلها حين اعتدلت مسندًا ظهري إلى الجدار المائل خلفي، في حين أحسست بعجز جسمٍ فوق صدري، وشل أطرافي وأحال الحياة من حولي إلى سوادٍ مطبق.

بقيت هامدًا لساعةٍ أو يزيد أجيل نظري فيمن حولي لأرى أن قليلًا منهم قد تجمعوا في جماعاتٍ صغيرة يتحاكون، أما البقية جلسوا فرادى على نفس حالي من الشرود والتيه، إلى أن دخل علينا ثلاثة جنود يحمل أحدهم صندوقًا خشبيًا بين يديه. أخذوا يوزعون الطعام على من بالغرفة، حيث أعطوا كل واحدٍ منهم رغيفًا دائريًا يميل لونه إلى السواد، بداخله قطعة من الجبن الأصفر حتى بلغوني، فنظر أحدهم نحو مرافقيه قائلًا:

«هذا معاقب لا تعطوه».

وعلى الرغم من تقلص أمعائي جوعًا إلا أنني لم آبه لما فعلوا، ولم أبادر لأي قولٍ أو فعل

حتى غادرونا، قبل أن يأتيني شاب بدا في مثل عمري، لكن مفتول العضلات، قوي البنية، عاقدًا شعره المسترسل على ظهره في حزمةٍ بدت كشماريخ النخل. جلس إلى جواري وناولني لقيمات من الخبز كأنه اقتطع كل لقمة من رغيف أحدهم، ثم خاطبني:

«لا تبتئس، إنا كافلوك».

تناولت منه اللقيمات دون أن آكل منها، مستفهمًا:

«أين نحن ولم يحبسوننا؟».

رمقني بنظرة ريبة كمن هاله أن أسأل في أول أيام وصولي، إلا أنه أشاح بصره شاردًا وقال بوجهٍ جامدِ الملامح:

«إننا جميعًا نُعد مملوكين، وهبنا البحر لتلك المملكة. يقولون أننا من صُنعه مثل من يطلقون عليهن الحوريات، لكن وُلدنا دون ذيول تمكننا من البقاء فيه مثلهن، لذا يلفظنا هنا ليطلقوا علينا اسم الوافدين، في حين يدعون أهل آربوس بالمعمرين».

«ومن أخبركم بهذا؟».

زاد ارتيابه مني، إلا أنه واصل:

«هذا ما يمليه علينا قائد الجند في كل صباحٍ حين يسوقونا نحو الفناء الخلفي، أو يطلعنا عليه بعض القدامى من الوافدين الذين يخدمون في الساحة، أو نتناقله فيما بيننا قدامى ومستجدين بعد أن نفيق من ذلك الانزواء الذي يعترينا عند قدومنا، مثل هؤلاء الذين لم يمر على قدومهم سوى يومين وثلاثة».

أشار حينها برأسه نحو بعض الجلوس المنزوين، لأسأله من جديدٍ بعدما اتضح لين قلبه وعدم ممانعته الاسترسال في الحديث:

- كم مر على قدومك؟

- لقد جئت في اليوم التالي ليوم آربوس الذي يُعقد شهريًا عند اكتمال القمر، وقد لاح بالأمس الهلال الجديد، ولن تطول إقامتنا هنا، سيوزعوننا قبل يوم آربوس القادم.

- يوزعوننا؟!

أومأ برأسه بمعنى الموافقة.

- بعض الذكور والإناث يؤخذون للخدمة في حقول المملكة، والبعض الآخر من الذكور يخدم في تقطيع الصخور والبناء والحدادة أو في سائر شؤونها الجافة، والباقي من

الصنفين يباع في أسواق آربوس لأجل العمل لدى الملاك أو لأجل الخدمة المنزلية، أما الأوفر حظًا من النساء هن الجميلات ممن قدمن عذارى، أولئك يؤخذن كحظياتٍ للملك أو جوارٍ في قصره أو في قصور كبار رجال المملكة، حيث يعشن في رغدٍ من العيش هناك، لكنها إن حملت في بطنها فإنهم يجهضونها عنوة، وإن فاضت لأجل ذلك روحها، لأنه لا يُسمح لنساء الوافدين بالإنجاب أبدًا سواء في ذلك صار حملها من المعمرين أو من الوافدين.

- وهل ينتقون من الرجال لتلك القصور؟

التفت ناحيتي وقد اعتلاه الجزع.

«إنهم الأكثر بؤسًا منهم، فالذين يدخلون تلك البيوت من الرجال...».

نظر عندها ما بين قدميه ثم استأنف:

«يُخصون قبل أن يطؤها، يقولون أنهم يقطعون خـ...».

قاطعته مشمئزًا:

«أعرف معنى الإخصاء فلا تشرح ما لقنوه».

رمقني بنظرة ريبة أخرى قبل أن يواصل حديثه:

«يقطعونها حتى لا يشتهون نساء القصور التي سيخدمون فيها كما نشتهيهم، أما الأوفر حظًا من الرجالهم هم من يستبقونهم في هذه الساحة في الطابق الأرضي منها، ليلتحقوا بالمنازلات في ذلك اليوم الشهري، إلى جانب من ينضم إليهم تطوعًا من قدامى الوافدين بآربوس، حيث يلقون معاملة تفوق سائر الوافدين، ومن يُقتل منهم ينتهي عناؤه، أما من يَقتل فيمتد عمره فوق السنوات السبع».

حينها عقدت ما بين حاجبي مستفهمًا، ليجيب وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة تنم عن الأسف:

- كلنا نستغرب الأمر حين نعرف أن أجلنا ينتهي في هذه الأرض بعد سبعة أعوامٍ فقط - ذلك إن لم ينتهِ أجلك قبل هذه المدة لأي سبب- ثم تنقطع أنفاسنا.

- هم من أخبروكم بذلك أيضًا؟

- بل رأيناه بأعيننا، حدث مرتين منذ قدومي، حيث انقطعت أنفاس اثنين من الوافدين العاملين بالساحة في يومين مختلفين بعدما أتما سبعهما. يشهق الوافد عند موته كمن لا يلتقط الهواء في محيطه، بينما يحاول أن يعبّه ولا يقدر حتى تشخص عيناه، يهمد جسده،

ويزرق لون جلده، تلك هي طريقة وفاة الوافدين المكررة كلما آن أجل السنة السابعة كما رأينا، ثم يوارى جسده بمدافنهم.

ازداد انعقاد حاجبي.

- إذًا ما هو الامتداد الذي ذكرته؟

- السبيل الوحيد لإطالة السنوات السبع، هو أن تقتل من هو أصغر منك سنًا في هذه الأرض، فإن بلغ عمرك هنا ستة أعوام مثلًا وقتلت من بلغ عمره سنة واحدة تأخذ عمره، أي يمتد عمرك لستة أعوام إضافية، وليس سنة واحدة كحالك قبل القتل، وما من سبيلٍ لذلك القتل إلا هنا في المنازلات التي تُجرى في يوم آربوس، أو عندما تقوم الحرب بين المملكتين التي لا تفتأ تهمد نارها إلا وتشب من جديد، وكلتاهما تستعينان بنا كمقاتلين في الصفوف الأمامية قبل جنودهما الأساسيين. أما إن قتلت وافدًا في غير تلك الحالتين؛ تُقتل شر قتلة، فقوانين المملكة صارمة فيما يخص ذلك.

حينها خالجتني الحيرة بشأن تلك القاعدة، وهل تنطبق على ثلاثتنا أم سنظل على اختلافنا عن الآخرين فيما يخصها، لكن تبادر إلى ذهني يوم التضحية الذي سمعت الجنود يتحدثون في شأنه، لذا عاجلته:

- وما هو يوم التضحية؟

- إنه يوافق يوم آربوس للشهر الأخير من كل عام، فيه يتم التضحية بعشرة من الوافدين العجائز الذين وفدوا في الأشهر الأخيرة، لتمتد أعمار عشرة من الوافدين القدامى الذين أوشكوا على السنة السابعة تنتقيهم المملكة لتدوم حياتهم بها. يكون في الأغلب حكيمًا أو مقاتلًا بارزًا أو فاتنة أراد أن يستبقيها أحد كبار رجال المملكة إلى أن تشيخ وتضيع فتنتها.

- وفي أي شهرٍ نكون؟

- إن يوم آربوس للشهر قبل الأخير عند اكتمال القمر الحالي.

عندها رمت سؤاله عن طريقة لمغادرة تلك الأرض والعودة لعالمنا، لكني ارتأيت أن ذلك سيكون ضربًا من الجنون، لذا سألت:

«ألا يوجد من يقاوم من أجل حياةٍ كريمة؟».

تلفت عن جانبيه في رهبة، قبل أن يجيب:

«إياك أن تتحدث عن عصيان قواعد المملكة، هنا العقاب الوحيد للوافد العاصي هو

القتل بأنياب الضواري».

ثم شب واقفًا مستأذنًا في المضي حين بدا أنه خشيَ من مجرد الحديث عن المقاومة أو الحرية، ليتركني شاردًا بائسًا أحاول التفكير في تلك العقبات التي صارت تتراكم فوق بعضها بلا نهاية وكأنها بلغت عنان السماء، وتلك الأحاجي الآخذة في التكاثر برأسي حول هذه الأرض الغامضة التي أطبقت الخناق على رقابنا.

لم يمض إلا ساعة أو ما دونها واقتادنا الجنود نحو فناءٍ وراء ثكناتنا، التي يلتف سور الساحة الدائري من خلفها مخلفًا ذلك الفناء دون مدرجات بتلك المنطقة الصغيرة من السور، بينما تخلله باب متوسط الحجم وقف قبالته ثلاثة جنود.

بدا الفناء مقسومًا إلى شطرين خاويين سوى من التراب وقطع الصخور الصغيرة، بينهما ممر خالٍ تم تحديده بشباكٍ من حبالٍ ثبتت بأوتادٍ خشبية تحد كل شطر، ليفصل الرجال عن النساء، حيث بدأ ذلك الممر من عند مدخل الثكنات الخلفي، وانتهى بالباب الذي يتخلل سور الساحة المقابل له.

ما إن تجمعنا في الفناء نساءً ورجالًا في كل شطر حتى جاءنا عند الرجال ذلك الجندي صاحب السوط يحيطه زمرة من الجنود، عرّف نفسه بأنه قائد حرس الساحة، قبل أن يبتدرنا بحديثٍ مطول عمّا نحن عليه وما علينا أن نفعل كمن يلقن أطفالًا صغار، لكن بأطنانٍ من التهديد، وجبال من الوعيد. لم يذكر ما يزيد عمّا سمعت من ذلك الوافد، سوى التحذير من الاقتراب من الشباك أو السور أو محاولة الفرار، لذا انشغلت عنه بمراقبة إسراء وأم إسماعيل من مكاني، بينما تلقي إليهن سيدة ترتدي ذات ملابس الجنود كلمة من المؤكد أنها لن تختلف عما نسمع، في حين تبادلني إسراء نظرات خاطفة من وجهٍ ذبل بعد نضرة، وعين لا تكاد تفارقها الدموع.

أدركت بينما أسترق النظر نحوها أن ما يدور برأسها هو ذاته ما يدور برأسي، تتمنى أن يكون ما نحن فيه مجرد حلمٍ نستيقظ منه ولو بعد حين، وإن أفاقت من ذلك الهاجس متيقنة أننا في عين الواقع تتساءل: «**يا ترى أي مصير سيتخيرنا؟ هل من عودة؟ وماذا سنفقد قبل أن نعود إن عدنا؟**».. ثم يعتريها التحسر على ما فات، تقول يا ليتها ما قابلتني ولا وافقتني ولا صاحبتني! فأنا أقول ليتني جئت هنا دونها! ليتني ما صاحبتها في تلك الليلة!

حتى انتهى يومنا بالفناء قبيل الغروب، وعدت نحو غرفتي على نفس حالتي من العجز والجزع، إلا أنني في تلك الليلة، وبينما شردت بنظري خلال تلك القضبان الحديدية نحو ضوء المصابيح الزيتية المعلقة في أركان الساحة الماثلة أمامي، التي تقطع الظلام الدامس من

حولنا، بدأت أنفض عن ذهني رويدًا رويدًا ذلك التيه الذي يعتريني، وأخذ يراودني التفكير في الفرار من هذا السجن بعدما اتضح أنه أكثر سوادًا من أظلم تكهناتي حتى وإن لم أدرك وجهةً لنا، ممنيًا نفسي بأننا إن استطعنا للفرار سبيلًا من الجائز أن نجد طريقًا للعودة نحو ديارنا، وإن عجزنا عن ذلك نعيش أحرارًا في الأحراش بعيدًا عن هذه البلد الظالمة.

صرت أتحرق انتظارًا للساعة التي سنعاود فيها النزول للفناء في اليوم التالي حتى أتحسس أمر السور علّني أجد فيه ثغرة يمكننا العبور من خلالها، أو أجد المفر في أي ركن من أركان الثكنات، لأكتشف في الصباح التالي بينما نجلس بالفناء، أن اختراق السور يعد ضربًا من الخيال، لكنني لم أفقد تلابيب الأمل، وأخذت أراجع خط سيرنا من الغرفة إلى الفناء والعكس، مفتشًا عن موضع يمكن التسلل عنده، مبتعدين عن القطيع، وإلى أين من الممكن أن تأخذنا الممرات، وهل من الوارد أن نعبر البوابات إن استطعنا أن نستلب من أزياء الحرس.

بقيت شاردًا أنظر نحو إسراء وأجيل الأمر في ذهني مرارًا وتكرارًا، إلا أنني بين حينٍ وآخر أجد عقلي تشتت عن التفكير حزنًا على الحالة التي أضحت عليها من خفق قلبي لمرآها بلقائنا الأول. من أعادتني إلى الحياة فاستلبت حياتها.

maktabbah.blogspot.com

لذا، قبل أن يحين موعد العودة إلى الغرف، وعلى حين غفلةٍ من الحرس حاولت الاقتراب من تلك الشباك، مشيرًا لإسراء بأن تقترب هي الأخرى، منتويًا أن أحيي داخلها شيئًا من الأمل بالقول ولو كذبًا أن لدي خطة، لكني ما إن اقتربت من الشباك ظنًا مني أنه ليس هناك من يراقبني حتى أحسست بلهيب السوط يجلد ظهري. انكببت في حينها على وجهي يكويني سعير الجلدة، ولم يتوقف الأمر عند ذلك، بل جاءني جنديان أوقفاني قبل أن يسحباني سحبًا نحو جدار الثكنات، حيث أمسك كل واحدٍ منهما بذراع، بعدما خلعا عني ذلك الثوب الفوقي، لتتوالى عشر جلدات كنارٍ محرقة فوق ظهري، ثم جاء من حملني إلى الغرفة، حيث ألقوني على وجهي بينما يأكل لهيب الجلد من ظهري، منكسرًا روحًا وجسدًا، عاجزًا بائسًا يأكلني جلد الذات فوق جلد الظهر.

لِم لم أتبع حدثي حين أحسست في يوم المنارة أن هناك حدثًا استثنائيًا يحين؟

لم اصطحبت إسراء؟

هل من الوارد أنني وافقت على صحبتها لتشاركني مصيري؟!

فقد ظننت ولو بقدرٍ ضئيل أن هناك ما سيغير حياتي في تلك الليلة، أم أنني أبالغ بجلد ذاتي؟

هل انكسرت اليوم بما يكفي ليدفعني نحو الاستسلام لذا أتحسر على ما مضى وأجلد

ذاتي، أم أنني أستحق ما يفوق ذلك؟

إلى أن غفيت بروحٍ تمنيت ألا ترتد إليّ عند الصباح، لكنها عاودتني حين فتحت عينيّ على نور الشمس الذي تسلل من بين القضبان، لأكتشف سريعًا أنني مُنعت من الوجبات ليومين متتاليين، مع التشديد على سائر الوافدين بألا يعطوني من وجباتهم، كذلك منعت من نزول الفناء حتى يوم التوزيع، وفوق كل هذا ابتدرتني بالصباح حمى صرت أرتجف من شدتها، بينما أشعر بجسدي يغلي كمن يرقد فوق نارٍ حامية، ملق على وجهي كخرقةٍ هامدة لا تنطق، ولا يتفقدها سوى ذلك الوافد الذي لا يدرك اسمه، صار يجتزئ شيئًا من طعامه دون أن يجمع من باقي الوافدين حتى لا يفتضح أمره، ثم يأتيني في الليل ليطعمني، وطوال النهار يتردد عليّ بين الفينة والأخرى ليسقيني، ويلطف حرارة جسدي بقليلٍ من الماء يبلل به عدة خرقٍ بالية، ثم يوزعها على ظهري المستعر وبعض جسدي كما أوعزت إليه في أول مرضي عبر كلماتٍ واهنة تسللت من حلقي الجاف، وكأنني أنازع الموت على جسدي.

ظلت أنفاسي تشق طريقها ما بين الموت والحياة لثلاث ليالٍ في حين أهذي باسم إسراء التي أرى ابتسامتها تضيء الأفق عند شاطئ الفنار ما بين خيالات هذياني. أبتسم ثم أمد يدي لأتحسس وجنتها المخضبة، يختفي أثرها على حين غرةٍ لأراها بين أحضان ملكٍ كهلٍ يلعقها، أصرخ ويعجز جسدي عن الحركة قبل أن أفتح عيني لأهرب من ذلك الكابوس إلى ظلام غرفة العبيد، هو أهون وطأة على نفسي. يعاودني الهذيان وأراني طفلًا صغيرًا يلهو أمام باب داره، ثم شابًا يافعًا يتطلع إلى الحياة. أرى أمي، أناديها ولا تجيب، فتظهر إسراء من جديد، لكني أحاول أن أهرب من التمادي في التفكير فيها حتى لا أدرك العجوز. تظهر الحوريات، أم إسماعيل، مراسم تتويجي ببعض الجوائز، يوم تلقيت خبر وفاة أمي وجزيرة آربوس، بينما تتلاحق أنفاسي وتضطرب روحي وتتسل دمعاتي حتى أغفو ولا أرى إلا السواد.

إلى أن بدأت أستعيد شيئًا من عافيتي بعد مرور تلك الليالي الثلاث، وأخذ ذلك الوافد في تطييب خاطري، والترويح عني بأن التوزيع سيكون خلال خمسة أيام، ومن الجائز أن أذهب إلى إحدى جنائن الفاكهة أو إلى إحدى حقول المزروعات فأعيش بها حياة طيبة. لم يدرك أنه بذلك يزيد كمدي وهمي حين أتخيل فراقها.

لم أخبره في حديثنا أننا جئنا من عالمٍ غريب عشنا فيه أحرارًا لما سألني عن ذلك الكلام الذي حكيته في هذياني، لأنني ارتأيت ذلك مدعاة للقهر أكثر من كونه مدعاة للفخر طالما ليس هناك من أمل في عودة، لكني أسميته فارس، حيث بدا مثل الفرسان، وفوق ذلك ارتأيت أخلاقه تفوقهم، وكم سعد وقتها باسمه الجديد.

مرت الخمسة أيام بثقل جبالٍ راسيات، بينما تغلي قدور يأس حالنا والافتقاد إلى إسراء

بين ضلوعي الهشة حتى صباح يوم التوزيع. اقتادنا الجنود إلى الفناء جميعًا لنرى وجوهًا جديدة، بسطوا لهم أرائك في مقدمته في كل شطر، وأعدادًا إضافية من الجنود تقف من خلفهم، أما جنود الساحة رفقة عمّالها الوافدين ومتدربيها فأحاطوا الشطرين، قبل أن ينضم إلينا من الباب الخلفي للسور عدد ممن بدا أنهم وافدين أمثالنا، إلا أنني لم أرهم من قبل في غرفتنا أو في سائر الساحة، ولم يظهر على وجوههم التيه مثل الوافدين الجدد أمثالنا، بدا أنهم مدركين لقواعد آربوس جيدًا.

انشغلت عن كل هذا بالتفتيش عنها بين الوجوه حتى رأيتها، منزوية كوافدةٍ في أول أيامها، هائمة النظرات، منعقدة اللسان، باهتة الملامح، حتى تلاقت أعيننا. لم تحمل نظراتها اللوم ولا الاستغاثة، بل الإشفاق، تشفق عليّ وعلى حالها، وكأن هذا ما بقي من خضم المشاعر الإنسانية اللامتناهية داخل صدرها.

بقينا لحظات لا نحرك نواظرنا حيدًا عن وجوهنا، إلى أن عم الهرج من جديد حين ابتدروا توزيعنا في صفوف، لأعرف من سؤالي عمن اختار إسراء وعن الرفقة القليلة التي وقفت في صفهن أنها ذاهبة نحو قصر الملك، ويا لها من ساعة حين شرعن في السير نحو الباب الخلفي للساحة! بكت حد النحيب الذي أسمع كل من بالفناء، ولم يستهجن أحد من الحاضرين سلوكها، فالأخريات على الرغم من كونهن لا يعلمن شيئًا عن الدنيا عدا تلك الجزيرة الكبيرة، إلا أنهن انتحبن بين الفينة والأخرى، وفي ساعة التوزيع اشتد نحيبهن، حتى الرجال من بينهم من بكى وأكثرهم لبث شاردًا يعلوه الأسى، كأن الحرية فطرة طبعت على روح الإنسان لا تفارقها وإن ذهب عقله.

لكنْ مشهد إسراء ظل مختلفًا، فهي التي جابت دنيا تعرفها في أمان وحب؛ صارت جارية في بلادٍ غريبة دون بصيص أملٍ في رجوع، أما أم إسماعيل اختيرت ضمن صف القرابين، لتبقى على نفس حالتها من التخبط بين المشاعر المتناقضة. تيقنت أن ابنها لا زال حيًا -وإن لم تره بعد- لكنها حياة مؤقتة، تعرف أن عداد عمرها آخذًا في التناقص، إلا أنها تتمنى رؤيته قبل أوان أجلها.

في الأخير اختاروني لأبقى في الساحة رفقة المصارعين، حيث أقعدونا في صفين حوى كل منهما بضعة عشر وافدًا، أحدهما انتظم فيه أولئك الذين بدا عليهم الشدة والبأس من بينهم فارس، والآخر انتظمتُ فيه رفقة من هم على شاكلتي من نحولٍ قبل أن يقسّموا أولئك الوافدين الذين جاؤوا من الباب الخلفي ما بين الصفين على حسب هيئة كل منهم، ومن ثمّ انصرفت باقي الصفوف إلى مصائرها، ليبقى صفّي المصارعين. حينها أعطوا كل واحدٍ من صفي رقمًا نقشوه على ظهر ردائه بدءًا من الرقم مائة وتسعة وأربعين حتى الرقم مائة

وخمسة وستين، وإلى جوار كل رقم رسموا علامة خضراء، فحزت على الرقم مائة وواحد وخمسين، أما الصف الآخر أخذوا أرقامًا مقاربة لأرقامنا، حيث بدأ تسلسلهم من الرقم مائة وخمسة وأربعين حتى الرقم مائة وتسعة وخمسين، لكنهم وسموهم بعلامةٍ حمراء إلى جوار أرقامهم.

اقتادونا ليستقر بصفي الحال في الطابق السفلي حيث غرفة مثلت نصف الغرفة التي بالأعلى وحدها عن الساحة نفس القضبان، في حين تراصت إلى الجدار المقابل للقضبان العديد من المضاجع، بدا عليها أنها خشيت بالقش، ورقد فوق بعضها ما جاوز الثلاثين مصارعًا ممن هم على شاكلتنا، لأدرك بعد ساعاتٍ من الشرود عبر اجتذابي الحديث مع من بدا عليه القدم بالساحة، حيث نقش على ظهر ردائه الرقم مائة وثمانية عشر، أن تلك الأرقام تمثل تسلسل أرقام الوافدين الذين تم اختيارهم لمنازلات الساحة منذ بداية العام، وأنهما تسلسلان، أحدهما للأشداء، والآخر لمن هم على شاكلتنا، فهم لا يختارون الأشداء وحسب للنزال حتى لا يستنزفوا أمثالهم في المنازلات التمهيدية في يوم آربوس، حيث تعقد في ذلك اليوم الشهري عشر منازلات حتى الموت، أحد طرفيها من الأشداء، والطرف الآخر من بيننا، وفي العادة ينتصر الأشداء قبل أن يتبارى الفائزون العشرة، إلى أن يخرج أحدهم حيًا منتصرًا في النهاية، ليلتحق بالعمل في الساحة بالتدريب أو في إعداد الطعام أو في خلاف ذلك، حتى تنتهي سنواته السبع.

ويترحل الباقون بعد العشرة من بين فرقتنا وفرقتهم إلى الأشهر التالية، لأن الاشتراك في النزال يسير وفق ترتيب الأرقام، وهم يختارون للبقاء في الساحة في كل شهرٍ ما يزيد عن العشرة لكل فرقةٍ من بين من يلقيهم البحر، إلى جانب ورود القليل من الوافدين القدامى الذين قضوا سنوات في آربوس في أي مجالٍ من مجالاتها في يوم التوزيع الشهري، لأجل التطوع في المنازلات حتى تمتد أعمارهم فوق السنوات السبع إن فازوا، وذلك في غير أوقات الحروب. هؤلاء هم الذين رأيتهم يلتحقون بنا من الباب الخلفي، لذا تترحل الأعداد شهرًا بعد شهر، وتتكاثر إلى أن يحل يوم آربوس السنوي، حين تزيد أعداد المتطوعين من الوافدين القدامى، ويُسمح لنسائهم بالاشتراك أيضًا، فتصير احتفالية كبيرة تتنوع فيها المنازلات ما بين الفردية والجماعية، ليفوز في الأخير عشرة من بين كل المتنافسين يلتحقون بعدها بالعمل في الساحة، إلى جانب مراسم التضحية في ذلك اليوم، ومراسم الابتهاج الأخرى.

أدركت بالأخير أن فارس قد استقر به الحال مع المهيئين لقتلنا، من تجمعوا في الغرفة التي تقبع تحت النصف الآخر من غرفة الاستقبال في الأعلى، لأفقد بذلك إسراء وأم

إسماعيل وفارس، محاطًا بالكثير من العجز الممزوج بآلاف من علامات الاستفهام عن مصائرنا التي باتت متغايرة.

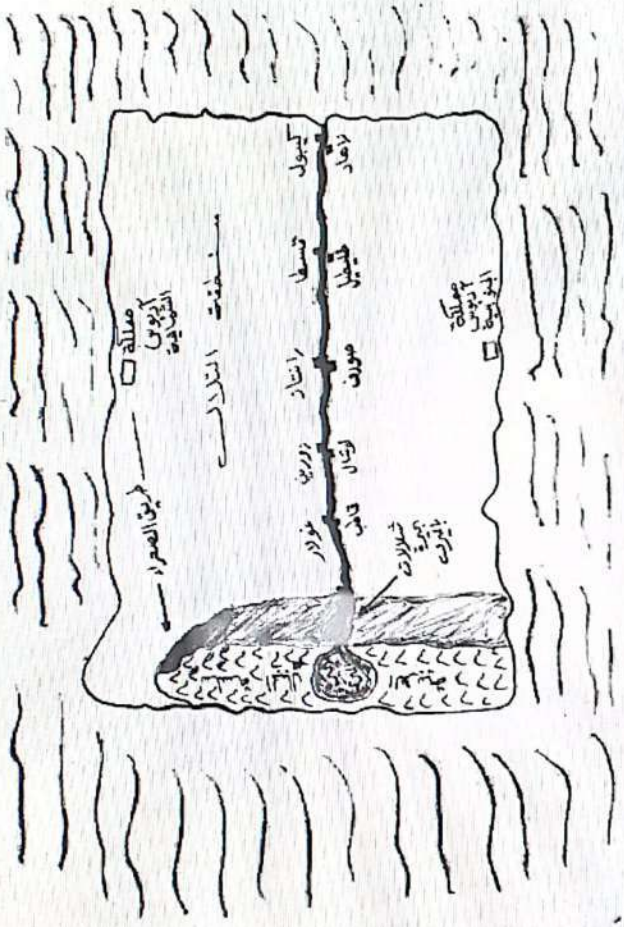

يوم آربوس

مرت الأيام في الساحة ثقيلات أثناء انتظارنا يوم آربوس الوشيك، بينما احترقتُ تلهفًا في كل ساعة لسماع أي نبأ بخصوص قصر الملك ومن فيه دون جدوى، أما إقامتنا خلالها تيسرت بقدرٍ ضئيل، حيث مضاجع محشوة بالقش، وطعام نتناوله لدى صالة ذات مناضد متراصة في صفوف تستند إليها مقاعد خشبية بالطابق الأول من الثكنات، في حين أن الطعام ذاته أصبح بالكاد يسد الرمق بعد أن كان فتات طعام، بينما نتدرب كل صباحٍ لعدة ساعاتٍ متواصلات في الساحة الدائرية على المبارزة بالسيوف أو البلطات أو الفؤوس المدببة، مقسمين إلى فريقين منفصلين: فريق القتلى وفريق القاتلين.

صرت ألتقي بفارس لدى الوجبات في كل يومٍ في صالة الطعام حالما بقيت على ذات حالي من البؤس المتواصل، ليحكي لي حكايات لم تتغير منذ اليوم الأول للتوزيع، تارة يحكي عن ذلك الوافد القديم ممن جاؤوا في ذاك اليوم وصار صديقه ويخبره عن الحياة في آربوس خارج الساحة، وتارة أخرى يمزح مقلدًا القلائل ممن لا يتحدثون بلغتنا، حيث مُنعوا من التحدث بأيةِ لغةٍ سواها حتى بينهم وبين أنفسهم، لذا باتوا يتلعثمون ببعض الكلمات التي ينطقونها بصعوبة أو يستخدمون في الغالب لغة الإشارة، قبل أن ينتقل في الأخير إلى الحديث الطويل عن تطلعاته لنجاتنا في يوم آربوس السنوي، لا سيّما وأننا لن نشارك في اليوم الشهري القادم، بينما أساله على الدوام عن أمرٍ واحد:

«هل من أخبارٍ عن قصر الملك ومن فيه؟».

ليجيب بالنفي كعادته قبل أن يعاود أحاديثه ومزاحه، إلى أن حل اليوم الرابع من إقامتنا الجديدة، الذي يحل بعده يوم آربوس، حيث جلس جواري وقت الغداء متبدلَ القسمات؛ بدا مضطربًا متوجسًا دائم التلفت عن جانبيه كهرٍ سارق أحاط غنيمته، وكلما سألته عن ذلك تهرّب من الإجابة، حتى حل موعد الانصراف إلى مضاجعنا وعم الضجيج والحركة، وما إن هممت بالقيام حتى أمسك بيدي كي أعاود الجلوس، ثم همس في أذني:

«هناك نبوءة تنتشر بين الوافدين القدامى يتناقلون ذكرها في الخفاء، بأنه سيأتي في أحد الأيام وافد يحكي أنه من أرضٍ غريبة لا يعرفها أهل آربوس، فيتجمع حوله الوافدون ويحررهم بعد أن يقلب موازين هذه الأرض ويوحد مملكتيها، وأنا أظنك هذا الوافد، لكنني لم أصرح لأحدٍ بذلك، ولا تحاول ترديد ذكر النبوءة أو تتفوه بما هذيت به في مرضك، لأن من يتحدث عنها وتصل أخباره يقتله جند آربوس، فما بالك بمن سيظنون أنه صاحبها؟!».

أنهى حديثه قبل أن ينصرف مسرعًا وجلًا، بينما بقيت ساكنًا لثوانٍ معدودات، إلى أن دفعني أحد العاملين بالساحة من الوافدين، وأمرني بالانصراف أنا ومن بقيَ منا. بقيت ليلتها متخبطًا أثناء رقودي، ما بين أملٍ يعتريني بأن يصدق أمر هذه النبوءة وأصبح صاحبها الذي يقطع رقبة هذا الظلم، وبين تكذيبٍ لتلك الأساطير التي يلجأ لها المستضعفون كنوعٍ من بث الأمل وتهوين شقاء العيش.

ما تيقنت منه هو سلامة قراري بشأن عدم الإفصاح عن هوياتنا عندما جئنا هذه الأرض أول مرة، مقرونًا ذلك اليقين بخشية أن يفلت لسان إسراء أو أم إسماعيل وتخبرا عن أمرنا، ليس خشيةً على نفسي، بل عليهما إن ألبسوهما أمر النبوءة. قبل أن أستبعد ذلك الهاجس إثر تحذيري السابق لهما، إلا أنني بدأت شيئًا فشيئًا أغلب تصديق أمر النبوءة على نفيها، دون قرائن أو أدلة أو براهين، لأجل التشبث بالأمل وحده، من أجل إسراء، من أجل أم إسماعيل، من أجل فارس، بل ومن أجل سائر المغلوبين على أمرهم، وعضدت ذلك في الأخير بسؤالٍ صرت أسأله إلى حالي:

«**نبوءة أحد شطريها تحقق، لم لا يكتمل الآخر؟**».

حتى غفيت قرير العين لأول مرةٍ بتلك الأرض لأستيقظ حين بدأ توافد سكان المدينة لمدرجات ساحة الملك زهير أمامنا إلى أن اكتظت بالآلاف، وكأن المدينة بالخارج صارت خاوية على عروشها. بدا أغلبهم من سكان المدينة الأصليين، إضافة إلى قليل من الوافدين الذين جلسوا في انزواءٍ كأنهم أجبروا على المجيء ليخبروا بقية جنسهم بما جرى، ومن ثمَّ سمعنا صياح الحضور وهتافهم تحيةً للملك حين وصوله ليستقر رفقة حاشيته بالمدرجات التي علت ثكناتنا، من بعدها بدأت فعاليات ذلك اليوم بصوتٍ جهور بدا أن صاحبه استقر في ذات المدرجات، حيّا الملك وحاشيته وسط هدير الجمهور قبل أن يصيح بصوتٍ تردد بين جنبات الساحة:

«**لتتيقنوا يا أهل آربوس أن النصر قادم لا محالة، وإن كان ذلك المتغطرس الذي يحكم أرض آربوس الجنوبية يحاول بين الفينة والأخرى التحرش بالقرى الواقعة على حدود مملكتنا في الجنوب، ويحيك المؤامرات لنا ليلًا ونهارًا، فإنه بذلك يعجل بنهايته، فمولانا الملك ومَن تحت يده الملكية من جنودنا البواسل متيقظون لألاعيبه الصبيانية، ويقطعون يد كل من تسول له نفسه التعدي على أرض المملكة، بينما يعدّون العدة بصبرٍ وحكمة في تشوقٍ لتلك الساعة التي سيقضون فيها على غطرسته، ومن ثم يوحدوا أرض آربوس من جديد، ليحل عليها السلام والنعم تحت حكم ملكها الأوحد، ملككم وملكي وملك كل أرض آربوس، الملك زايد من نسل الملك زهير الأول**».

علا ضجيج الحضور بالهتاف للملك لاعنين ملك آربوس الجنوبية، وما إن خفت صخبهم أضاف:

«ومن بشارات ذلك النصر أنه بفضل تيقظ جنود مولانا الملك تم الكشف عن وجود عددٍ من الخائنين المتآمرين مع العدو، الذين حاولوا الهرب حين حوصروا بأحراش إحدى قرانا الواقعة على الحدود الجنوبية، لكن هيهات لهم أن يهربوا، فقد قنصتهم سهامنا لترديهم جميعًا إلى نحورهم غير مأسوف عليهم، ولم يقتصر الأمر على ذلك، ففي إحدى الحملات التي باركها مولانا الملك على سلسلة الجبال الغربية المحاذية للشاطئ، التي يتوارى فيها جماعات متناثرة من الوافدين الهمج بقلب الكهوف الغارقة بالظلام، والذين لا يتوقفون عن اجتذاب الوافدين الجدد وضمهم إليهم قبل أن تصلهم أيدينا؛ استطاع جنود الملك البواسل أسر أعدادٍ كبيرة منهم، وجاؤوا بهم مكبلين ليخضعوا لقواعد المملكة صاغرين، وليعلموا أن تلك الأرض لها ملك واحد».

توقف عندها ليعلو الصياح من جديد ابتهاجًا بذلك النصر، قبل أن يبدأ في الإعلان عن تنفيذ حكم الإعدام في عددٍ من الوافدين والوافدات على إثر جرائم مختلفة قسمها إلى فئاتٍ ثلاث، معقبًا ذكر كل جريمةٍ بعدد مرتكبيها، حيث بدأ بالفئة الأولى وهم من سرقوا من محصول الفاكهة التي يعملون بجنيها في الحقول الواقعة على ضفاف الترع المتفرعة من نهر جودي، ملحقًا بهم من تطاولوا على مالكيهم حد الأبق، ثم أعقب ذلك بالفئة الثانية وهم من حاولوا الهروب من المملكة والالتحاق بقاطني الجبال، ومعهم من خالفوا شروط المضاجعة ما بين الوافدين والوافدات، وآخر فئات المعاقبين تضمنت من خالفوا قاعدة السنوات السبع.

maktabbah.blogspot.com

همست إلى من استقر إلى جواري مستفهمًا عن تلك المخالفة الأخيرة ليخبرني أن أي وافدٍ يتجاوز عمره السبع سنوات دون أن تفارقه الروح أو يأخذ صك الامتداد بالقتل في الحرب أو الساحة؛ يعد مخالفًا لتلك القاعدة، حتى وإن لم تثبت عليه جريمة قتل وافدٍ آخر، من ثم يتم قتله في الساحة.

أتوا بمذنبي الفئة الأولى تباعًا، وقد غطت أعينهم عصابة سوداء، وبعد أن يجهر ذلك الصوت بجريمة الجاني وبطريقة تنفيذ العقوبة يجثي الجنود المذنب على ركبتيه في قلب الساحة مكبلًا، بينما يقف قاطع الرقاب الملثم من خلفه رافعًا سيفه ناظرًا نحو الملك، لينتظر إشارته قبل أن يهوي قاطعًا رقبته، فيفصلها عن جسده حين يعلو الصياح والهتاف.

أدرت وجهي حانقًا في تلك اللحظات التي هوى فيها السيف، مستنكرًا تصايحهم على قطع رقبة بائس لأجل سرقة ثمرة فاكهة أو لتطاول على فرد منهم، حين اتضح أنه مجتمع مشحون بالكراهية والاستخفاف تجاه أولئك البائسين المستضعفين.

ما إن انتهوا من الفئة الأولى حتى جاء دور مذنبي الثانية، خمسة رجال وامرأتان ساقوهم نحو منتصف الساحة قبل أن يطلقوا في إثرهم تسعة ذئابٍ ضخمة، حيث أرخوا لهم حبالًا شدت من أطواق برقابهم عبر قضبانٍ حديدية تحد مربضهم عن ممرٍ داخل التكنات، بعدما فتحوا أبواب تلك المرابض المطلة على الساحة. بدا جليًا أنها تتضور جوعًا عبر ذلك الشرر الذي أطل من أعينهم، والوحشية التي طاردوا بها فرائسهم، إلى أن انقضوا ناهشين لحمهم حتى العظام، بينما استعر الحشد بالضجيج والتهليل، وارتعدت فرائسي أنا ومن حولي في غرفتنا.

من بعدها شد الجنود تلك الحبال عبر القضبان حتى أغلقوا على تلك الذئاب في مرابضها ليحل الدور على الفئة الأخيرة مخالفي قاعدة السنوات السبع، اتضح أنهم الأكثر بؤسًا، حيث جاؤوا بهم جميعًا رجالًا ونساءً، ثم ربطوا أجسادهم إلى قوائم ثبتت في الأرض على مقربة من المدرجات في عدة مواضع من الساحة، وحين أطلق الملك إشارته صار الكثير من الحشد المتراصين بالمدرجات يقذفونهم بالحجارة، بينما تتعالى صيحاتهم المسعورة. نزفت الدماء من وجوههم وأجسادهم إلى أن تدلت رؤوسهم على صدورهم جثثًا هامدة، وبقيت أجسادهم معلقة في قوائمها، قبل أن يأتي من حمل أشلائهم في سكون، وما إن انتهوا حتى علا الصوت من جديد خاطبًا:

«منذ مئات السنين عاش أسلافنا المعمرين في طمأنينة وسلام في جماعاتٍ صغيرة منفصلة عن بعضها، إلى أن شرع البحر في إلقاء وافديه الذين استقبلهم أهل آربوس بسكينةٍ وحفاوة، بل وسمحوا لهم بالانصهار في جماعاتنا ليعيشوا بينها، حتى أدركوا مع مرور السنين أنهم لا يعيشون حياة طبيعية مثلنا، وأن حياتهم مؤقتة بسبع سنواتٍ فقط هم ونسلهم إن تناسلوا.

لم يمثل ذلك الأمر ضيرًا لنا ولهم في البداية، إلى أن أدركوا قاعدة الاستيلاء على أعمار بعضهم البعض، فأخذوا يتقاتلون فيما بينهم على الحياة داخل كل جماعةٍ وفي فرقٍ منهم بين الجماعات وبعضها، قبل أن توعز لهم أنفسهم بأنهم إن قتلوا منا نحن المعمَّرين سيستولون على أعمارنا الطبيعية مثلما يستولون على أعمار بعضهم، وبعدما كانوا يتقاتلون فيما بينهم وحسب، ابتدروا قتالنا وخرجوا عن نهج جماعاتنا، ثم صاروا يتجمعون وحدهم في جماعاتٍ ليقاتلونا نحن جماعات المعمَّرين الذين آويناهم، بالإضافة إلى قتالهم لبعضهم البعض، حتى بعدما تيقنوا من أن تلك القاعدة لا تنطبق علينا، وأنهم إن قتلوا منا فإن أعمارهم لا تتأثر بذلك القتل؛ لم يردعهم ذلك عن قتالنا حسدًا من عند أنفسهم المريضة، ولأننا عارضنا سفك الدماء التي كانوا يسفكونها فوق أرض آربوس، لذا

صارت الحرب سجالًا بين جماعاتنا وجماعاتهم التي لم تتوقف عن الاقتتال فيما بينها، إلى أن جاء الملك زهير موحدًا جماعاتنا، محاربًا أولئك المسوخ الذين تجمعوا ضده، فانتصر عليهم وكسر شوكتهم، وأخذهم عبيدًا كما ترون، وحتى لا ننسى أو تأخذنا بهم شفقة فها هم في يوم آربوس الشهري يقبلون على الاقتتال من أجل حيواتهم، ولتعلموا أنكم المعمرون قد وهبتكم روح آربوس هذه الحياة الطبيعية التي تتفضلون بها عمن سواكم لتشكروا روحها، ولتنعموا بحيواتكم، وتهتفوا باسم مولانا الملك الذي يصون تلك الحيوات».

هنا علا الصياح أكثر من أي مرةٍ سابقة، قبل أن تبدأ المنازلات الفردية واحدة تلو الأخرى حتى انتهت في الأخير بمنتصرٍ واحد. لم أشعر في عينيه بأي لذة للنصر على الرغم من وقوفه منتصبًا يحيي ذلك الجمهور الهادر.

في ليلتها بتُّ مندهشًا مشمئزًا من هذه الحياة ذات النهج الوحشي الذي ينتهجه أهل هذه المملكة وحاكميهم تجاه الوافدين، وإن ظهر لي وقت الرجم أن هناك الكثير من أهل آربوس امتنعوا عن إلقاء الحجارة، لكن بقي من يكفي للقتل من الملقين، وعلى الرغم مما حكاه ذلك المقدم عن تاريخ الوافدين الدموي، إلا أنني شعرت بشيءٍ من الاستغراب ناحية التفاصيل التي حكاها، موقنًا أن في الأمر شيئًا من الغموض واللبس والتوجيه العام من قِبل حكام المملكة وزبانيتهم، فالتاريخ دومًا يكتبه المنتصر وفقًا لمراميه.

جال في ذهني ذلك الحديث الذي جرى بيني وبين فارس في أول أيامي هنا عن كبار رجال المملكة والأثرياء الذين يعيش الوافدون حياةً أفضل إلى جوارهم، وعن الحروب التي لا تنقطع، بينما أخذت أتذكر هيئة من رأيتهم في طريقي إلى الساحة من سكان المملكة الذين لم يبد رغد العيش لا عليهم ولا على أطفالهم، محاولًا أن أجمع قطع الأحجية لأفهم مبررًا لذلك السلوك الشاذ، لا سيّما وقد استرعى انتباهي التصدير المتعمد للإحساس بالأفضلية إلى سكان المملكة من قبل حاكميهم، وهو ما اعتقدت أنه الغرض الأساسي لتلك المشاهد المروعة، متيقنًا أن هذا التصدير المتعمد دائمًا ما يواري خلفه الكثير من القهر والفقر فوق عاتق الشعوب التي يتم تخديرها بمثل تلك الأمور، فالشعوب التي تعيش متمتعة بالكفاية والرفاهية لا يتطلب حكمهم أو السيطرة عليهم مثل هذا الإحساس بأفضلية مزيفة لأنهم يكونون في غنى عنه برغد العيش، لكن حكام هذه الأرض يمعنون في تصدير ذلك الإحساس لشعبهم، مستخدمين في هذا قهر أولئك الوافدين، ليمنّوا على شعبهم بأنهم يعيشون حياةً طبيعية من حيث العمر والتزاوج، بينما غيرهم لا يعيش مثلها، لذلك يجب عليهم شكر الملك الذي ينعم هو وحاشيته بخير هذه الأرض، في حين يرزح البقية تحت وطأة الحروب التي

تأتي على الأخضر واليابس في كل زمانٍ ومكان.

يضاف إلى تلك الأفضلية المزيفة بقية الوصفة الكاملة التي تغيب على إثرها الشعوب المغلوبة على أمرها، حيث هناك الكثير من الإلهاء والاستعراض المتمثل في ذلك اليوم عمومًا، وتحديدًا في طريقة قتل المذنبين في الحالتين الأخيرتين، وفي تلك المنازلات الحامية التي يزعمون أن الوافدين يتهافتون عليها من أجل إطالة حياتهم، في حين أن الوافدين الجدد هم من يشتركون فيها مجبرين، ولا ينضم إليهم سوى عددٍ محدود للغاية من الوافدين القدامى، من ثمّ يأتي تصدير حالة التوجس من المؤامرات الداخلية والخارجية والعقاب الصارم لمرتكبيها، وبالأخير تسريب الأمل بانتهاء الحروب وعموم السلام والنعم يومًا ما.

هنا تتكامل أركان الحكم المستبد الذي يقف عائقًا على الدوام أمام رفاهية الشعوب، لأن الرفاهية يستتبعها التطلع، ولا يدوم حكم مستبدٍ أمام تطلع محكومين، بالتالي يترتب عليه العنصرية والاستعباد والطبقية وطحن المستضعفين، لذا بدأ يتنامى بداخلي الإحساس بالمسؤولية على مدار الأيام اللاحقات، ولم يعد مقتصرًا على إسراء وأم إسماعيل وأولئك الوافدين المستضعفين وحسب، بل زاد ليشمل أولئك الناقمين من أهل آربوس أيضًا على تلك الحياة الظالمة ممن لاحظت وجودهم بالساحة غير مهللين لما جرى فيها من بطشٍ ولا راجمين لأولئك الوافدين، لا سيما وقد أخذت النبوءة في دغدغة خواطري، وصرت أزداد يقينًا بها، داعمًا أركانها ببعض البراهين مثل كوني على وجه اليقين قد أوتيت من العلم ما لم يؤتوا، لذا فأنا قادر على قلب الموازين إن تمتعت بشيءٍ من الحرية وبقليلٍ من المساعدة، مضافًا إلى ذلك سعيرًا اشتعل بصدري لفراق إسراء جعلني مقبلًا بلا تردد على الجحيم ذاته إن كان من شأنه أن أجتمع بها من جديد.

إلا أن عداد الوقت أخذ في التسارع، ومرت الأيام تترًا بلا جديد، بلا طرف خيط، بلا خطة أو نهج يمكن السير عليه، ليأخذ توجسي في إحكام السيطرة على أفكاري كلما اقترب ذلك اليوم السنوي دون بزوغ سبيل للانتفاض والتغيير، حيث لم أجد من حولي سوى طرقٍ مغلقة بسياط جلاديها، وعبيد مقهورين بلا حيلة، وأسوار عالية يقبع خلفها خلق يحملون جبال الضغينة لنا محل قلوبهم، ليأخذ ذلك الأمل في الخفوت شيئًا فشيئًا، تسرب إلى الأرض، وردمه التراب الذي تحمله أحذية الجنود، لكن ما لم أحسب له حسابًا أن يأتي من ينفخ في جذوة النار ليشعلها من تحت الرماد بروحي وتستعر محرقة من جديد، فبعد مرور ما يقرب الأسبوعين على يوم آربوس، وبينما كان يدفعني أحد الوافدين العاملين بالساحة خلال أحد الممرات، أسقط شيئًا بجيبي حين همس إلى أذني:

«إياك أن تخبر مخلوقًا بأني أعطيتك شيئًا، ولا تتطلع على ما في جيبك إلا وحدك».

كدتُ أحترق شوقًا لتلك اللحظة التي سأخلو فيها بنفسي كي أرى ما أسقط، إلى أن أخرجت ما في جيبي بعد أن غط جميع من حولي في نومهم، لأجد على بصيص نور المصابيح الزيتية لفافة من أوراقٍ بنية، فضتها بحذرٍ لأجدها مكتوبة بحبرٍ أحمر:

«كيف حالك يا يوسف؟ كم أشتاق لك، فأنت كل ما بقي من عالمي، حتى لو كنا بعالمنا، فتيقن أنك الوحيد الذي سأشتاقه منذ وقعت عيناي عليك بل من قبلها. لن أطيل عليك المقدمات، أنا إلى الآن في حالةٍ جيدة، حين بلغنا قصر الملك اقتادونا مباشرةً إلى ما يشبه معسكرًا للإعداد بإحدى المباني الملحقة بالقصر الضخم، ليعلّمونا فيه الاعتناء بأنفسنا، وآداب التعامل مع الملك والرقص والغناء وكل ما فيه ترفيه لذلك الكهل. لا أعلم إلى متى سيدوم بقاؤنا هنا، لكن الأهم من ذلك أنه قام على إعدادنا مجموعة من فتيات آربوس، إلى جانب القليل من الوافدات، واللائي لاحظت إحداهن أنني أختلف عن كل من سبقنني. أخذت تتودد إليّ وتتجاذب معي أطراف الحديث، إلى أن تيقنت من حدثها بشأني، قبل أن تسرّ إليّ بأن هناك نبوءة تحكي عن وافدٍ سيأتي في أحد الأيام يتجمع حوله الوافدون، ومن ثمّ يقلب موازين المملكتين ويوحدهما محررًا لهم، ليس هذا وحسب، بل هناك ما يشبه تنظيمًا متواريًا من الوافدين الذين ظننتهم قلة في هذه الجزيرة، إلا أنه اتضح لي أن عددهم يمثل قدرًا يسيرًا من سكانها، حيث يحوي كل بيت أو نشاط من الوافدين الكثير.

maktabbah.blogspot.com

ذلك التنظيم يتضمن أكثر من وافدٍ من أولئك الذين يُمد في أعمارهم كلما بلغوا السبع سنوات، وهم من أصحاب المكانة هنا، إلى جانب الكثير من سائر الوافدين، من بينهم من كانوا جنودًا في الحرب الأخيرة منذ عامين قبل أن يعودوا لشؤون الحياة الأخرى بعدها، بل هناك من المعمرين أيضًا ممن تعتريهم النقمة تجاه الحروب التي لا تنتهي، وتجاه سياسة المملكتين في معاملة الوافدين. يخططون منذ أمدٍ ليس فقط لانتظار النبوءة، بل وأيضًا من أجل الانتشار والترقي في حاشية الملك علهم يغيرون مستقبل هذه الأرض يومًا ما، من بينهم تلك الفتاة التي عرفتني وكاد قلبها يقفز فرحًا عندما تيقّنت أنني كما توقعت. أخبرتها عن ثلاثتنا، وصرت أحكي لها ما يثبت يقينها بشأننا، فأوعزت إليّ بعد ذلك أن أكتب إليك هذا الخطاب لتحاول الهرب في يوم التوزيع الذي يسبق يوم آربوس السنوي. في ذلك اليوم سينضم إليكم الكثير من الوافدين والوافدات التابعين للتنظيم كأنهم راغبون في المنازلات، إلى جانب من معنا ممن يعملون في الساحة، كذلك من تستطيع أن تستميلهم ممن حولك، لكن احرص أشد الحرص في هذا، لأن أعينهم متربصة في كل مكان. عندها ستكون أعدادكم كبيرة بقلب فناء التوزيع، تفوق أعداد الجنود بكثير، فإذا ما صارت لكم الغلبة واستطعتم النفاذ من السور ستجدون العربات والخيل بالخارج التي تُستخدم في ترحيل صفوف الوافدين نحو مستقراتهم، تستلبونها وتتجهون مباشرةً نحو الباب الجنوبي للمدينة، ومنه

ستحاولون الهروب نحو سلسلة الجبال الغربية المحاذية للبحر بامتداد غرب الجزيرة كلها، والتي سألاقيك عندها خلال يومين إن نجح فراركم.

تلك الجبال تقطنها جماعات من الوافدين المنعزلين عن الحياة في جماعاتٍ بدائية بقلب الكهوف، تعيش على صيد البر والبحر، ودائمي التنقل، لكنهم لا يؤذون من يجدونه من الوافدين، ويحاولون دومًا الهرب من هجمات جنود المملكتين. هناك سيصير تحررنا الذي من بعده سنحاول إيجاد منفذٍ لرجوعنا نحو بلادنا، خاصة وقد علمت أن مقابل الجبال بقعة تسمى بقعة الحوريات، يقولون أنهن لا يظهرن لأحد، وإن بلغهم بالغ من ساكني آربوس يقتلنه لأن أحد ملوك هذه الأرض قبل انقسامها غدر بهن في يومٍ ما وقتل منهن الكثيرات.

بالأخير أتمنى لك السلامة وأن تنجو في هذا اليوم لأراك من جديد حتى وإن لم نعلم المصير الذي يترقبنا».

ظل قلبي يخفق طارقًا أضلعي بينما أقرأ كلماتها، بل كاد يهشم تلك الضلوع محطمًا لها من شدة الفرح بأنها سالمة آمنة مطمئنة، وزادتني غبطة تلك الأخبار التي جاءت لتعيد أملي في لقائها، وتنظم أفكاري، وتعينني على أمري.

صرت أقرأ رسالتها مرة بعد مرة إلى أن غفيت بينما أحتضنها تحت حِزامي، وفي اليوم التالي شرعت دون تأخيرٍفي تنفيذ ما أملته عليّ بعد أن حفظت تلك الوريقات فوق صدري.

حالما قابلت فارس في صالة الطعام انتحيت به في ركنٍ هادئ، أخبرته بحقيقتنا كاملة كوافدين وأننا غرقى العالم الحقيقي وأنني كما تفرس قد أصبح صاحب تلك النبوءة. صرت أحكي له عن الدنيا خارج آربوس، بينما لا يذكر شيئًا مما أحكي، لكنه أخذ يبتسم فاغرًا فاه، لكني عندما بلغت أمر التنظيم وحركة التمرد التي ننتوي إتيانها في يوم التوزيع حتى بدأت علامات التوجس والخشية تغزو محياه، لذا عاجلته محفزًا:

«إننا في يوم آربوس السنوي ستجاوز أعدادنا المائة متسابق، ذلك غير المتسابقات، ما حظوظك في البقاء؟! وإن بقيت، فما هي إلا سنواتك السبع التي ستعيشها من سجنٍ إلى سجنٍ ومن ذلٍ إلى ذلٍ. أترضيك تلك الحياة؟! أيرضيك ما رأيت من قهرٍ لأقرانك في يوم آربوس الشهري؟! ألا تعتقد بأنك في يومٍ ما قد تكون أحد المرجومين أو المطاردين من السباع. إن هي إلا ميتة واحدة، لم لا نموتها بشرف؟».

ظهرت على وجههِ علامات التردد كأنه بدأ يجيل الأمر في ذهنه عندما انتهت فترة الغداء، لذا عاجلته وعلامات الحزم تكسو قسماتي بينما نهم بالانصراف:

«ما أنا على يقين منه أن الإنسان لو فقد عقله وليس ذاكرته وحسب؛ ستظل الكرامة

والحرية متعلقتين بأنفاسه ووجدانه ورمق الحياة الذي يسري في عروقه، وتوسمي فيك أنك لن تخيب ظني، وسأنتظر منك أن تعينني وتشد من أزري».

ثم انصرفنا لأبيت مترقبًا رد فارس، حيث لم أنتوِ المحاولة مع غيره قبل أن أنتهي من أمره، حتى حل اليوم التالي الذي أخبرني فيه أنه ازداد يقينًا بالنبوءة ذاتها لأنه صار متيقنًا من كوني صاحبها، وأنه وإن ارتأى أمر هروبنا مستحيلًا إلا أنه سيلازمني أيًا كان مصيرنا، لذا اتفقنا على أن يتولى كل منا أمر فريقه لنستميل من نراه ساخطًا متأففًا من تلك الحياة، نحكي له عن النبوءة، فإن وجدنا فيه حماسة نحوها ونحو تحرر الوافدين نخبره أن ذلك الوافد قد ظهر بيننا دون أن نعزفه، وأنه ينتوي التحرك دون تحديد موعد تلك الحركة، وكل ما عليه هو مساعدته في ذلك الوقت.

صرنا على ذلك نوعز للوافدين الذين نستميلهم أن يوم التحرر قد اقترب، إلى أن حل صباح يوم التوزيع. ساقونا نحو الفناء لألاحظ أن العشرات من الوافدين القدامى أخذوا يتوافدون من الباب الخلفي، لدرجة أن الجنود اندهشوا من هذا العدد الذي فاق كل الأعوام الماضية، في ذات الوقت اغتبطوا لذلك لأن تلك الأعداد الكبيرة ستزيد يوم آربوس السنوي جلالًا وقوةً، دون أن يجول في خاطرهم خطورة هذا التجمع، حيث اعتادوا على اعتبارهم كالأنعام بل أضل سبيلًا، أما أنا بدأت أستبشر بغلبتنا، لا سيما وقد لاحظت في أعين الكثير منهم الحزم والعزم، وما إن بدأ التوزيع حتى صرخ أحدهم:

«انصروا الوافد المنتظر».

دون تردد هجم الوافدون على الجنود من كل اتجاهٍ بعد أن استلوا مدى صغيرة وخناجر أخفوها بين طيات ملابسهم، منهم من هجم على حرّاس البوابة، وآخرون هجموا على جنود الساحة الذين أحاطونا، والبقية تعاملوا مع الجنود الذين اصطحبوا الموزعين، في حين لحق بهجومهم أولئك الذين استعملناهم أنا وفارس عندما وجدونا نؤازرهم.

عم الهرج في حين بقي عدد من الوافدين الذين كانوا معنا في الساحة ولم يبلغهم أمرنا، أو من أولئك القدامى الذين جاؤوا دون علمٍ بمخططاتنا متسمرين في ذهول. صرخت فيهم بينما ينتفض صدري وترتجف أطرافي من نشوة الإقدام:

«انصروا إخوانكم لتفوزوا بحيواتكم، اليوم يوم حريتكم».

لتتحرك أعداد منهم ملتحقين بنا، ويبقى عدد محدود في مكانهم مستسلمين مثلهم في ذلك مثل النساء؛ منهن من هجمن على أولئك الجنديات، ومنهن من ظللن واقفات.

خلال دقائق فتحت البوابة، ومعظم الجنود صاروا ما بين قتيل وجريح، فصرخت:

«اهربوا إلى البوابة».

ركضتُ نحو أم إسماعيل، حملتها قبل أن أواصل الركض بها نحو البوابة، أقعدتها في إحدى تلك العربات التي استقرت في الخارج رفقة بعض الوافدات، بينما امتطيت فرسًا بعد أن حللت وثاقه من الحلقات المهيأة لرباط الخيل بجانب السور حالما حذا حذوي فارس وبقية الوافدين، وما بين فرسان، ركبان، وعادين؛ اخترقنا الضاحية الجنوبية للمدينة وسط ذهول المارة، الذين أخذوا يتدافعون على جانبي الطريق حتى بلغنا بوابتها. وجدنا لديها بعض الوافدين الذين فتحوها بعدما تعاملوا مع حرّاسها فاجتزناها منطلقين في إثر ثلاثة فرسان من الوافدين عبر سهلٍ رملي بعد أن امتطى الراكضون تلك الخيول التي اغتنمناها عند البوابة، والتحق بقيتهم بالعربات.

لم يتبع أثرنا أحد، فبدا جليًا أن تحرّكنا لم يحسب له من أحدٍ حساب، ولم يتداركوه خاصةً مع الجرحى والقتلى الذين خلفناهم بالساحة أو عند البوابة الجنوبية للمملكة. أخذت أركض بينما تسكرني نشوة الانتصار السريع، ممنيًا نفسي بلقاء إسراء واكتمال شملنا قريبًا، وعن يميني صديقي فارس متقدمين عن سائر الركب متبعين أولئك الفرسان الثلاثة الذين بدا من ركوبهم أنهم كانوا جنودًا، وما هي إلا دقائق وإذ بأحدهم يتقهقر قليلًا حتى صار بمحاذاتي عن يساري، قبل أن يصيح حتى يعلو صوته فوق طرقات حوافر الخيل:

«أريد إخبارك ببعض التفاصيل يا سيدي يوسف؟».

صحت أنا الآخر:

«أسمعك».

أخذ يخبرني في صياحٍ ألتقط بعضه ويتوه البعض بمعلوماتٍ عن طريقنا، حيث اتضح أننا نتجه جنوبًا نحو قرى المملكة الشمالية الخمس، التي تتراص في خطٍ عرضيٍ على الحدود الجنوبية للمملكة لدى ضفة نهر جودي، الذي يفصلها عن قرى مملكة آربوس الجنوبية، وهو ينبع من سلسلة الجبال الغربية، ليصب في البحر عند شرق آربوس، ليقسم الجزيرة إلى نصفين راسمًا الحدود بين الجارتين، وهذه القرى ليست صغيرة، بل لكلٍ منها أسوارها وحاميتها وجنودها، بينما يحيط بكل واحدةٍ منها حقولها خارج الأسوار، حتى تتقاطع مع حقول جارتها، أكبرهن التي نتجه نحوها: القرية الوسطى «رانتاز»، ولا بُدَّ لنا أن نمر عبر الحقول الواقعة خارج أسوارها لكي نبلغ نهر جودي قبل أن نتبع ضفته غربًا لمدة ثلاثة أيام، نتجاوز خلالهن قرية زورين، وبعدها قرية غولار، آخر القرى ناحية الغرب، ثم نسير ليومٍ آخر حتى نبلغ الجبال، معقبًا بأن المخاطرة تكمن في الاقتراب من رانتاز، إلى جانب أن نهر

جودي لا يخلو من دوريات الجند من المملكتين عند سائر القرى.

ما إن فرغ من صياحه عن تلك الخريطة التي أسهب في وصفها حتى هالني مدى المخاطر التي تكتنف طريقنا، لذا عاجلته:

- ألا يوجد طريقٌ آمن غير هذا الطريق؟

- هناك طريق يعبر الصحراء من موقعنا نحو شمال تلك الجبال، يستغرق ثلاثة أيام فقط، لكن لا يعرفه سوى الجنود، بل ويحتفظون وحدهم بمعرفة مواقع الآبار التي تتخلله.

عقدت حاجبي مستغربًا:

- ألم تحسبوا حسابًا لمثل تلك الأمور؟

- أخذنا أمرًا بأن نتبع تعليماتك ما إن نغادر الأسوار بعد أن نحيطك علمًا بالوضع كاملًا.

أجفلت لثوانٍ بينما أرتب أفكاري، حيث اتضح أن هؤلاء القوم ظنوا في نبوة وإعجازية وليس مجرد نبوءة بقدوم وافدٍ يحمل معه ذاكرته ويقول أنه جاء من أرضٍ غريبة، لكن على الرغم من عدم توقعي إلقاء تلك الأحمال فوق عاتقي بمجرد مغادرة الأسوار، إلا أنني بدأت أجيل ما أخبرني به برأسي، ثم عدت إليه سائلًا:

- هل تقع تلك القرى وحقولها على ضفاف النهر مباشرةً؟

- بل هناك غابة صغيرة على ضفتي النهر بامتداده حتى الجبال، ومن بعد الغابة تقع القرى وحقولها في الجانبين.

- إذن ستكون المغامرة في عبورنا الحقول حتى نصل الغابة قبل أن نتوارى بين أشجارها متحركين حثيثًا نحو الغرب.

- لكن تلك الغابة تعج بالذئاب!

- وضفة النهر تعج بالجنود.

أومأ برأسه بمعنى الموافقة حين عاجلته:

- هل نستطيع بلوغ حقول رانتاز عند المساء؟

- إن أسرعنا المسير قد نصل عند منتصف الليل.

- هذا سيكون دربنا، سنفترق في جماعاتٍ صغيرة بلا خيول أو عربات ما إن نقترب من تلك الحقول، قبل أن نعبرها عبر عدة مواضع مختلفة بالمساء، إلى أن نبلغ الغابة، وهناك

سنعيد تجمعنا، ومن ثمّ نتحرك نحو الغرب.

أومأ برأسه بمعنى الموافقة، ولبث يعدو عن يساري بينما يعدو فارس مستبشرًا عن يميني وأمامنا الفارسان، إلا أنني أخذت بين الفينة والأخرى أسترق النظر نحو سور المملكة الذي صرنا نبتعد عنه أكثر وأكثر منتظرًا أن يحاول أحد منهم اللحاق بنا، لكني كنت أرتد خائبًا.

سألت ذلك الوافد:

«ألا يوجد جنود بأسوار المملكة ليلحقوا بنا؟».

- إن معظم جنود المملكة يخدمون في حاميات القرى، ذلك لأنها على خط المواجهة الأمامي مع آربوس الجنوبية، أما المملكة الأم ذاتها فجنودها قلائل، هم حرس الملك وحرس الساحة، بالإضافة إلى حامية كبيرة تقع بالشمال في مواجهة البحر، وحامية أصغر عند البوابة الجنوبية، وثالثتهم حامية نظامية تابعة لدار السلاح متخصصة في إنفاذ عدالة الملك بين المعمرين.

- كل ذلك وتقول قلائل؟

ابتسم معقبًا:

«ستصير حالة من الفوضى والتخبط في قلب المملكة بعدما ضربنا حامية الساحة والحامية الجنوبية، ولن تترك الحامية الشمالية مواقعها خشيةَ هجومٍ بحريّ من المملكة الجنوبية، في حين سيأخذ حرس الملك أوضاع الاستعداد لحماية قصره خشيةَ مخططٍ لقتله، ويبقى حامية إنفاذ عدالة الملك، إلى أن تبلغهم أخبارنا وأعدادنا، ثم يتفقدون حجم الكارثة التي سببناها، وقبل أن يصدر لهم الأمر بملاحقتنا، سنكون قد توارينا بين شعاب وممرات هذه التلال».

أشار بيده أمامنا لأدقق النظر فأرى السراب آخذًا في الانقشاع على سفوح تلالٍ صخرية، ظهر امتدادها يسد الأفق أمامي، وارتفاعها يتراوح ما بين الخمسين مترًا في بعض المواضع، والمائة مترًا في مواضع أخرى، بدت كلما اقتربنا منها كهضابٍ صغيرة تخللها ممرات وشعاب ازدادت وضوحًا باقترابنا حتى بلغناها. لم نلج عبر الممر الأكبر الذي تخللها، حيث أبلغوني أنه الطريق الأساسي الذي يصل المملكة الأم بقراها عبر رانتاز، لذا حدنا عنه حتى بلغنا ممرًا آخر ضيقًا متعرجًا غير ممهدٍ قبعت في أرضيته قطع الحصى والصخور.

دار في ذهني أمر واحد بينما نسير بسرعةٍ أقل عبر شعاب الممر الذي عاق ركض العربات، وهو أنه من المؤكد أن المملكة لن تدع فعلتنا تمر مرور الكرام، وإن عبرنا أسوارها وأفلتنا من

بين برائن جنودها على حين غفلةٍ بفضل ذلك التنظيم، فعلى وجه اليقين سيحاولون استدراك أمرنا. صرت على ذلك تتلاعب بي الأفكار مقبضة صدري إلى أن رأيت سربًا من الحمامات طار فوق رؤوسنا متجهًا نحو الجنوب، وقبل أن أهتف فيمن حولي لمحاولة اقتناصهن كن قد تجاوزننا، عندها خاطبت ذلك الوافد:

«**هل تستعمل المملكة الحمامات في إيصال الرسائل بينها وبين قراها؟**».

- بالطبع يستعملونهن، وعلى كل حال إن لم توصل الحمامات الرسائل، هناك طريق الساحل، ما إن يخرج أحد فرسان المملكة من عند البوابة الشرقية الصغيرة راكضًا عبر الساحل إلا وسيسبقنا في الوصول نحو القرية التي تقع على مصب نهر جودي بأقصى الشرق، وستبلغ هذه القرية جارتها وجارتها ستخبر التي تليها حتى يعم الخبر كافة القرى.

- إذًا من الخطر أن نقترب من تلك القرى، فجل اعتمادي بنيته على عنصر المفاجأة.

- وما الذي تراه بديلًا لذلك؟

ناظرت السماء بينما أشعر بحنقٍ متصاعد غزا صدري من العشوائية التي انتهجوها، واعتمادهم التام على غريبٍ ظنوه منقذًا أسطوريًا، بينما صرت متيقنًا بأن جنود القرى سيتربصون بنا ما أن نعبر تلك التلال، لذا سألته:

«**هل تقبع الحقول عند نهاية التلال مباشرةً أم هناك سهل خاوٍ يفصلهما كما المملكة؟**».

- في بعض المواضع تمتد الحقول حتى سفوح التلال، وفي مواضع أخرى تفصلهم سهول رملية كالتي عبرناها.

- وما أنواع المزروعات بها؟ سمعت في يوم آربوس الفائت أن هناك حقولًا من أشجار الفاكهة.

- لديهم العديد من المزروعات، منها الشعير، الكتان، القمح، وهناك الجنائن أيضًا، لكني لا أعلم على وجه التحديد أيهما أقرب لسفوح التلال.

جال في خاطري حل أخير، وهو التفرق عبر تلك الشعاب والممرات المتقاطعة، ليس إلى جماعاتٍ صغيرة وحسب، بل فرادى وثنائيات، حتى إذا ما انتهينا من تلك التلال عند المساء مواجهين الحقول نصير مشتتين في مساحةٍ كبيرة تمتد لكيلومترين أو أكثر، ثم نعبر متسللين دون جيادٍ أو عرباتٍ من خلالها، بينما يغلفنا الظلام، حيث تجمُّعنا سيعيق الحركة، وسيؤدي إلى قنصنا بكل سهولة. على الأقل قد يفلت البعض ويقع البعض الآخر، قبل أن نتجمع في جماعات صغيرة حينما نصل الغابة، ومن ثمَّ أمليت على الجميع قراري الذي

انصاعوا له.

صرنا من بعدها نتفرق عبر تلك الممرات حتى انتهى بنا الحال لأن بقيت رفقة فارس وأم إسماعيل عند غروب الشمس. شاركتني صهوة فرسي ممسكة بخصري من خلفي، بلا أي حديث بيننا منذ أن استقر بنا الحال على ذلك، إلى أن استحكم الظلام وصرنا نخطو على ضوء القمر، فأردفت:

«التمس لي العذر يا ولدي، لم يدر بخلدي يومًا أنني قد أسوقك إلى ما صرت فيه».

كست قسماتي ابتسامة باهتة لم تزها، فقد بتُّ أشعر أنني بدأت أتعايش مع هذه الجزيرة كأنها هي الحقيقة الوحيدة، وأن ما سبقها من حياتي هو الحلم، وكأن الآية انقلبت.

- ألم تقولي من قبل أن للقدر شؤون تتجاوز في حكمتها تقدير البشر؟

- بالطبع قلتها.

- ها قد لاحت تلك الحكمة في نصرة أولئك المستضعفين، ومن يدري؟ قد تُخبئ الأيام ما هو أكبر، أوليس من الممكن أن أعود أيضًا بعدما أتم ما قُدّر لي أن أتمه هنا؟

- ستعود يا ولدي، ستعود.

من بعدها ران علينا الصمت لبرهةٍ، قطعتها أم إسماعيل بأن قالت وفي صوتها الكثير من الأسف:

- لتعذرني مجددًا، أنا لا أريد الهرب نحو تلك الجبال، وأشعر أنني فارقت إسماعيل خلف ظهري بين أسوار المملكة.

عقدت ما بين حاجبي.

- وما يدريكِ إن كان في آربوس الشمالية أو الجنوبية أو حتى بين وافدي الجبال؟

- قلبي يا بُني هو من يخبرني.

- لكنك ستقتلين في ذلك اليوم السنوي!

- لقد بلغت من العمر أرذله، وما ضرني القتل بحد السيف أو الموت بما دونه، وكل ما أتمناه أن أتيقن من حياته قبل تلك الساعة.

- وكيف لك العودة الآن؟

- لا أعرف، لكن ما إن نبلغ نهاية التلال قد آخذ هذا الفرس، ومن ثم أعود من حيث أتينا.

- ماؤنا أوشك على النفاد، ولن تستطيعي العودة وحدك.

- لا تُحمّل نفسك همي، يكفيك ما حملته من قبل.

- لتعذريني أنتِ في هذه المرة، لن أتركك تعودين وحدك، فلنا عودة إلى المملكة ولو بعد حين، وما هروبنا إلا من أجل تلك العودة.

ران الصمت علينا من جديد بينما تأكدت أن كل ما يعنيها من الدنيا هو رؤية ابنها سالمًا، إلا أنني لم أجاريها في رغبتها هذه المرة حتى أوشكنا على بلوغ نهاية الممر الذي سلكناه. أوقفنا الخيل حين طرأ في ذهني أن نحاول صعود قمة التل من لدى جانب ممرنا كي نتحسس أمر الجنود أنا وفارس حالما تنتظرنا أم إسماعيل جوار فرسينا، لكن ما إن تجاوزنا منتصف التل بين تضاريسه المتعرجة حتى ظهرت أضواء مشاعل عند آخر ذلك الممر تُلقي ظلالًا كبيرة لدورية من أربعةِ جنودٍ ساروا في الممر لعدة خطواتٍ يتفقدونه، حين هتف أحدهم:

«هناك امرأة وفرسان».

الملك زهير

توقفت في موضعي للحظاتٍ بين تضاريس التل الصخري التي وارتنا عن أعين الجند، بينما اتسعت حدقتا عينيَ وجلًا، لكن فارس اجتذبني هامسًا:

«لم يعد لها أمل في هروب، لنكمل دربنا قبل أن يفطنوا إلينا».

بقيت مترددًا حين جذبني مرةً أخرى.

- كما سمعتك تحكي من قبل، لنا عودة من أجل كل الوافدين.

أكملت تسلقي على مضضٍ بينما بادرت أم إسماعيل بشد لجام الفرسين والسير نحو أولئك الجنود. فطنتُ إلى أنها تريد الابتعاد بهم عن موضع تسلقنا، بالإضافة إلى كونها قد وجدت في ذلك طريقًا نحو العودة من جديد لأسوار آربوس الشمالية، فما إن بلغوها حتى سمعت صراخ أحدهم:

«من معك من المارقين يا امرأة؟».

لم يصل إلى أذني ردها، بل توقعته عندما صرخ ذلك الصوت مرة أخرى:

«ولم بحوزتك فرسين إن كنتِ وحدك؟».

بدا أنها تحاول إطالة الحديث لتعيننا على الهرب، حيث تأخر صراخ الجندي في المرة الثالثة، والذي أمر جنوده بتفقد الممر حين بلغنا قمة التل، قبل أن نبدأ التسلل زحفًا حتى بلغنا مقدمته لنرى مشاعل تتحرك على امتداد سفوح التلال كدورياتٍ تتفقد منافذ الممرات. تيقنت أن فراستي كانت في محلها، وأنهم من المؤكد قد أمسكوا الكثيرين منا، لكن عزمي لم ينكسر، وانتويت المواصلة وإن بلغت تلك الجبال زحفًا وحدي، لأنتظر قدوم إسراء ومن معها.

لاحظت على أضواء تلك المشاعل أن تلنا يطل على سهلٍ رمليٍ منبسط يبعد عن الحقول بمقدار مائتي مترًا أو يزيد، لذا قبعنا في مكاننا بينما نترقب خروج تلك الدورية التي قبضت على أم إسماعيل وتتهيأ الظروف لفرارنا نحو الحقول، وما هي إلا دقائق وخرجت مصطحبةً لها، حين بدا أن أحدهم اصطحبها رفقة مشعل نحو تجمعٍ للمشاعل أضاء إلى الجنوب الشرقي من موضعنا، ارتأيت أنه مكان لتجميع الوافدين الذين أمسكوا بهم في الوقت الذي تواصل فيه الدوريات حركتها جيئة وذهابًا.

بقينا على حالنا ما يربو على ساعة إلى أن تقابلت دوريتان عند سفح تلنا، ثم افترقا مبتعدين عنه حين بدت بقية الدوريات قصية عن موضعنا. وخزت فارس أن علينا الانطلاق

نحو سفح التل تحت جنح الظلام، فهبطنا مسرعين لكون انحدار التل حادًا في تلك المنطقة، قبل أن نأخذ في الركض نحو الحقول مثنين لأجسادنا كأننا راكعين إلى أن بلغنا حقلًا للشعير أو القمح، صرنا نعدو بين سيقانه حتى انتهينا إلى حقلٍ آخر حوى أشجار فاكهة، توقفنا فيه لدقائق معدوداتٍ نلتقط أنفاسنا ونقطف من ثماره ما يسد رمقنا، لنفاجأ بظهور وافدٍ على حين غرة، بينما نأكل ما التقطنا بين جذوع الأشجار.

وقف على بُعد عدة خطواتٍ هاتفًا:

«من أنتما؟».

عاجلته:

«نحن وافدان هربنا من مملكة آربوس الشمالية، أتنضم إلينا؟».

على عكس ما أملت، أخذ ذلك الوافد في الصريخ مناديًا على الجنود، فأطلقنا سيقاننا للريح مرة أخرى، لتتعالى صرخاته التي أدركت من خلالها آسفًا أن هناك من ارتضت نفسه الدنية، وليس كما ظننت بأن أي وافدٍ سيتمنى لحظة تحرره.

بعد أمدٍ لاح لنا سور رانتاز بعيدًا عن يسارنا، بينما نعدو خلال حقول الفاكهة لنكمل دربنا وقد تصاعد في داخلنا دبيب الأمل في بلوغ الغابة بعد أن فارقنا ذلك الوافد الذي كاد أن يوقع بنواصينا، إلى أن بلغناها وارتمينا على الأرض بين أشجارها المتشابكة تتلاحق أصوات أنفاسنا، وتعلو وتهبط صدورنا إثر الركض المتواصل لما يقرب من ساعة أو يزيد.

لم نعرف هل من ناجين سوانا أم إن البقية قد تعثر حظهم على أسوار رانتاز؟ حالما تبادر لمسامعنا عشرات الذئاب بعيدًا تعوي في جماعاتٍ من حولنا كأن ذلك الضجيج استدعى استنفارهم دفاعًا عن أراضيهم، لم أدرِ هل أخشى على رفقتي من ذئاب بني البشر الذين يتربصون بهم أم من ذئاب الغابة التي تنتظرنا وتنتظرهم؟ لكن ما وقر في قناعتي عندها أن تلك الذئاب العاوية إذا ما صادفتنا أو صادفتهم لتكونن أهون حالًا من ذئاب البشر في هذه الأرض التي يبدو أنها ترضع أهلها من خلال أثداء حكامها ظلمًا وقهرًا وضغينةً.

ما إن التقطنا أنفاسنا عاودنا الركض في اتجاه الغرب، ممنيًا نفسي أن نقابل من أفلت من قبضة الدوريات، موقنًا بأن تلك الدوريات كانت العقبة الأولى والأصعب في طريقنا، في حين أتوقع مقابلة العقبة الثانية على مقربةٍ من أسوار القرية اللاحقة **«زورين»**، التي لن نراها من خلال الغابة المتشابكة، ذلك إن لم يهاجمنا قطيع من الذئاب، فالجنود قد اقتنصوا الكثير، ومن الوارد أن يظنوا بأنه ليس هناك من أفلت، بينما لم يؤرقني بشأنهم سوى الوافد الذي صرخ فينا، فإن أبلغ سيصيرون على يقينٍ من تسلل البعض نحو الغابة أو النهر.

مع أول خيوط الشمس التي ما تأخرت كثيرًا صرت أتحسس أثناء سيري جذوع الأشجار وسيقانها مفتشًا عن اللائي يحملن صمغًا، إلى أن عثرت على إحداها، فغطينا جسدينا بقطعٍ من صمغها اللزج، وصرنا نلصق فوقه من أوراق الشجر، ثم كحتنا زبدًا من الأرض دهنًا به وجهينا وما بقيَ من جسدينا قبل أن أطلب من فارس أن يستلقي وسط الأوراق والأغصان التي تفترش الأرض. ارتمى منبسط السرائر كأننا بذلك تغلبنا على جل أزماتنا، لأدرك دون أن أبادله البشاشة أن تمويهنا حاز أثرًا فعالًا. من ثمَّ أكملنا مسيرنا ببطءٍ نتحسس طريقنا كالثعالب، وكلما شعرنا بصوت حركة نرقد إلى الأرض بديلًا عن التوقف حتى المساء، لا سيّما وقد اتضح أن تشابك أشجار الغابة يقلل من توغل ضوء الشمس فيها كأننا في غرفةٍ مغلقة يتسرب الضوء من خلال ثقوبٍ ضئيلة تتخلل جدرانها، إلى جانب انقطاع عواء الذئاب نهارًا.

لم يمر علينا بعد الشروق إلا ساعة وظهرت دوريات من جنديين أخذت تعبر بين الفينة والأخرى عند ضفة النهر الذي اتخذنا طريقنا على مقربةٍ منه، منهم من حاولوا التوغل في الغابة قليلًا للتفتيش فيها كل بضعة أمتار ثم عادوا للضفة من جديد، ومنهم من ساروا إلى حذاء النهر دون توغلٍ في الغابة، بينما بقينا على حالنا ما إن نشعر بقدوم قادم نتوارى بين الأوراق المتراكمة، إلا أننا أخذنا نحيد مبتعدين قليلًا عن النهر حتى كاد يختفي أثره عن أنظارنا.

مع انتصاف النهار صارت الدوريات تزيد وتتكاثف واردة من ناحية «**رانتاز**» **ومن ناحية «زورين»** قاطعين الغابة بخيولهم ذهابًا وجيئة، على عكس حذاء النهر، حيث بقيت دورياته خفيفة على حالها، لأستنتج أنهم لا يبتغون إثارة القلاقل لدى ضفة النهر، لكني تيقنت أنهم تثبتوا من وجود فارين لم يتم الإمساك بهم، لدرجة أنني قررت التوقف عن المسير بعد أن اخترت بقعة غطتها كومة كبيرة من الأوراق، وتشابكت فيها الأغصان والسيقان، تواارينا تحتها لنأخذ قسطًا من النوم متبادلين لكي يبقى أحدنا متيقظًا حتى يغشانا الليل، ومن بعدها نعاود الحركة.

بقيت في فترة تيقظي تحت الأوراق مراقبًا حتى اقتربت دورية سائرة من جنديين ببطء، يتقدمهما هرم بدا أنه مقتف للأثر، حيث أخذ يتحسس الأغصان المتكسرة إثر سيرنا، ويتأمل محل خطواتنا سالكًا نفس الطريق الذي سلكناه. كدت أظن أنهم سيسمعون نبضات قلبي من شدة وقعها أو أنفاس فارس الذي وضعت يدي على أنفه لأشعر باستيقاظه من خلال تباطؤ أنفاسه كأنه يحاول كتمها إثر توقعه اقتراب متعقبين، حتى بلغوا البقعة التي حدنا فيها عن طريقنا لنرتمي بعد خطواتٍ منها إلى اليسار أسفل تلك الكومة.

أغمضت عيني اليمنى التي لا يظهر من تحت الأوراق سواها منتظرًا أن أسمع أصوات

خطواتهم من جديد، مبتعدين أو مقتربين، لكني سمعت صوت الكهل يقول:

«تلك الدوريات ما تركت موطأ قدمٍ دون أن تطأه عرضًا وطولًا، لذا من العسير أن نقتفي أثرهم إلا إن توقفتم عن ملاحقتهم في منطقةٍ جديدة، مثل المنطقة التالية لقرية زورين، فكلما اقتفيت طريقًا أجده ينقطع وسط آلاف الآثار، وإن عدته مرة أخرى ينقطع بعدها من جديد».

ذلك قبل أن ألتقط أصوات خطواتهم المبتعدة، فتحت عيني اليمنى متلصصًا، ثم أفلت لجام صدري ليلتقط الصعداء حين تابعني فارس بشهيقٍ طويل إثر كتمه لأنفاسه طوال ذلك الأمد قبل أن يعود لثباته دون حديثٍ بيننا.

عند بلوغنا الليل ظهر وهج مشاعل بكثافة، بدا أنهم عازمون على ألا يفلت ولو وافد واحد، لذلك توقعت أن تعج الغابة بالجند في النهار القادم فوق ما مضى، فأخذنا نتحرك حثيثًا بينما يغلفنا الظلام، في حين لاحت عدة مزايا لتلك المشاعل، أولاهم أننا شعرنا بشيءٍ من الأمان في حضرتها لإبعادها أصوات الذئاب، ثانيهما، تركزها بعيدًا عن النهر لتحرزهم أن تبلغ أنوارها دوريات آربوس الجنوبية، لذا حدنا من جديد في سيرنا خلال الغابة مقتربين من النهر ومبتعدين عن المشاعل، أما ميزتها الأخيرة هي أننا صرنا أكثر قدرة على التقاط أثرها من مسافةٍ بعيدة لنرقد إذا ما اقتربت، حتى حل الصباح التالي الذي لم يخالف ظنوني؛ صارت الأعداد كبيرة إلى حدٍ دفعنا لأن نمكث متوارين أغلب أوقات النهار، قبل أن يقفز إلى ذهني خاطرٌ أثناء توارينا، تمثل في كون عبورنا للنهر نحو آربوس الجنوبية قد يجنبنا كل هذه الجلبة، لأن مطاردينا لن يبلغوهم بوجود فارين لديهم، ويقينًا ستكون الدوريات في الجهة الأخرى من الغابة أخف وطأة إن لم تبقَ لدى النهر وحسب.

أخذت أتحين الفرص للحركة متجهين بسيرنا نحو النهر حتى لاحت لنا عند الغروب منطقة يضيق عندها مجراه، ترقبنا الدوريات إلى أن كسا الليل محيطنا، وبدا الأمر مهيئًا، فتحركنا نحو ضفته التي قبل أن ندركها بخطواتٍ ظهر على ضوء القمر المتسلل في تلك البقعة ذئبًا شابًا أمهق بدا أنه شرد عن قطيعه. توقفت متسمرًا وهمست إلى فارس أن يتوقف موليًا وجهه مثلي نحو الذئب دون أن ينظر إلى عينيه اللامعتين لكيلا يستثيره، والذي وقف بدوره أمامنا مزمجرًا دون حركةٍ للحظاتٍ قبل أن يبادر بخطوةٍ بطيئة نحونا ليختبر مدى جزعنا. أوعزت لفارس بأن يرفع يديه للأعلى، في حين حذوت حذوه، لكن الذئب لم يتراجع، بل أخذ خطوة بطيئة أخرى.

هنا بدأت أصفق بيدي المرتفعتين كما تعلمت في كتب السفاري مصدرًا صوت عويلٍ عالٍ من حلقي، وحذا حذوي فارس دون إيعازٍ مني، ليتوقف الذئب عن الحركةِ مكشرًا عن أنيابه

قبل أن يأخذ في التراجع، بعدما أدرك أن تلك الوجبة غير آمنة، لكن تراجعه لم يمثل الأزمة عندها؛ حيث بدا أن أصواتنا المرتفعة اجتذبت دورية من الجنود كانت تمر في قلب الغابة دون مشاعل. سمعنا ركضهم وتصايحهم من بعيدٍ فهرعنا إلى النهر وقفزنا فيه، وصرنا نسبح حتى بلغنا ضفته الأخرى، وقبل أن أجيل بذهني أن فارس استطاع السباحة لأنها إحدى المهارات التي لا تتعلق بالذاكرة، قبل أن أجري في الغابة المقابلة حالما بدا حدثي بشأنها سليمًا.

وبينما صرت قاب قوسين أو أدنى من هروبٍ آمن؛ سمعت من صرخ من الجنود على الجانب المقابل من النهر:

«ستعدم زوجتك وأمك بالساحة إن لم تعد.. انكشف أمر التنظيم وألقي القبض على كافة الهاربين سواك أنت وصديقك».

وقفتُ مستسلمًا جاحظ العينين حين صرخ فارس بكلماتٍ لم أسمعها، ولما حاول اجتذابي تثبت كتلك الجذوع حولي، بل بدا جسدي أشد صلابة، بينما دارت الأغصان والأفرع في دوائرٍ أمام نواظري كأنها تلك الدوامات التي فقدت عندها وعيي بقلب البحر قبل أن أرفع يديّ ملتفًا ناحية الجنود هامسًا لفارس:

«أكمل هروبك».

لينطلق فارس مترددًا في غابة آربوس الجنوبية حين قفزت إلى النهر عائدًا نحو الجنود مخافة أن تصل إحدى دوريات عدوهم، وما إن انتشلوني من المياه حتى كبلوني بالحبال، واضعين عصابة فوق عيني، ثم أركبوني أحد خيولهم حتى بلغنا ما اعتبرتها رانتاز من إرهافي السمع لما يدور حولي، ومن هناك أقلتني عربة عائدًا نحو المملكة الشمالية، بينما يجول في ذهني ذلك الأمل الذي أخذت أصعد درجاته متحفزًا حتى سقطت من على أرض الواقع الصلبة، فحطمت عزمي إلى فتاتٍ تذروه رياح الخذلان، معزيًا نفسي بأني لو بلغت تلك الجبال دون لقاء إسراء ودون أملٍ في تغييرٍ لبقيّ الرجوع أفضل.

فتحت عينيّ لأول مرةٍ على غرفةٍ منفردة بالطابق الأرضي للثكنات، لها قضبان أطلت على الساحة في الليلة الرابعة بعد ليلة هروبنا، مدركًا أن في صباحها يوم آربوس السنوي، لتتسارع الساعات ويمر الليل متلهفًا إلى أن افتتح ذلك اليوم بخبر الخيانة الكبيرة، قبل أن يعلنوا إلغاء منازلات اليوم السنوي على إثر اعتبار كافة المتنازلين من الخونة الذين يستوجب عقابهم بأقصى وسائل العقاب، ومن ثمّ بدأوا بالعقوبات التقليدية: قطع الرؤوس، إطلاق الذئاب، الرجم، بينما أدخلوا من ضمن المعاقبين في الفئتين الأخيرتين معظم من فروا

بصحبتي من الساحة، حالما انتظرث مستسلقا مرتعدًا قبل كل فئةٍ اقتيادي أنا وإسراء وأم إسماعيل اللتان لم أعرف أين حبسوهما، في حين أعض أنامل الندم قهرًا على المصير الذي اقتدت إليه أولئك الوافدين.

ما إن فرغوا من هؤلاء حتى أدخلوا للساحة مقاصل وخوازيق ومناضد علتها أدوات للسلخ، تبعها بعض الجنود الذين اتشحوا بالسواد قبل أن يقتاد غيرهم ممن ارتأوهم رؤوس الخيانة على دفعاتٍ من خمسة أفرادٍ رجالًا ونساءً في كل مرة، لأتيقن شاخص العينين أننا سنكون بالجولة الأخيرة من أولئك البؤساء.

ذلك قبل أن يبتدروا صنوفًا من العذاب لم يطق مشاهدتها بعض من جلسوا بالمدرجات من أهل آربوس، حيث قسموا الخمسة الأوائل من الوافدين على زبانيتهم الذين وقفوا لدى خمس مناضد متراصات بعرض الساحة.

أولهم أرقدوه مكبلًا على المنضدةِ الأولى، قبل أن يبتدروا سلخ شعر رأسه حيًا بتلذذٍ تؤججه صرخات المسكين التي انقطعت بفقدانه لوعيه أثناء السلخ، ليتبعوا ذلك بقطع أوصاله الأربعة بحد السيف، وفي الأخير ثبتوا رأسه تحت المقصلة لتهوي ساحقةً عنقه، ومن يدري إن بقي حيًا من وقت فقدانه وعيه أم فاضت روحه هربًا من العذاب.

الذي تلاه وضعوه على المنضدة الثانية فوق خازوقٍ حديديٍ ليدخل من مؤخرتهِ ببطءٍ بينما تعالت صرخاته المتقطعة حتى خرج من مفرق كتفه ورقبته عند منطقة الترقوة، قُبيل سقوط رأسه على جسده.

تلتهم من ثبتوها على بطنها فوق المنضدة التالية، التي برز من منتصفها منشارٌ مشذبٌ توسط قدمي الوافدة، ثم ربطوا كل قدمٍ في فرسٍ امتطاه أحد الجنود، وما إن انطلقا مسرعين حتى شُق الجسد إلى نصفين حتى الرقبة.

الرابعة من المذنبين قيدوها إلى قائمة خشبية علت منضدة قصيرة، رابطين يديها وقدميها بأربعة خيل أشداء لدى كل جانب من جانبيها. أخذت تحفر الأرض بحوافرها صاهلة، بينما تجلدها سياط الجنود حتى تقطعت أوصالها، ثم جاء من ضربها بحربةٍ في صدرها ليتيقن من موتها الذي ارتأيته حتميًا من قبل تلك الحربة.

أما الأخير أرقدوه على بطنه فوق المنضدة الأخيرة حيث برز منها مسامير غليظة حادة، قبل أن يأخذوا في وضع صخورٍ ضخمة فوق ظهره إلى أن اخترقت المسامير جسده، وبلغت أسنتها الصخور، ثم عرضوه على الحضور تتخلل جسده الثقوب.

أخذت تتوالى الدفعات على العذاب واحدة تلو أخرى بينما أكاد أفقد وعيي من بؤس

وهول ما أرى، من مجرد تخيلي أن يأتي دورنا، من كوني سببًا في ذلك، حتى انتهوا من ست دفعاتٍ دون أن يأخذونا، ليجول في ذهني أنهم يدبرون لنا ما هو أكبر لبرهةٍ قصيرة، قطعها الصوت الجهور بإعلانه انتهاء العقوبات وحلول ساعة التضحية.

تهالكت إلى الأرض منتفضًا مذعوزًا شاخص العينين تتخبطني ألف صاعقةٍ من الحسرات، فاضت دموع لم أغالب نفسي كي أحبسها إلى أن جاء الجنود مقتادين صفًا من العجائز، الأخيرة بينهن أم إسماعيل. وقفتُ مكفكفًا دموعي قابضًا على القضبان بقبضتي يديّ حين أوقفوهن أمام قوائم خشبية بقلب الساحة قبل أن يربطوا ظهورهن إلى تلك القوائم، مكبلين أيديهن وأرجلهن عن جوانبهم.

وقفت سيدة الكوخ شاردة تقلب وجهها بين الحضور علها ترى فقيدها حتى توقفت بعد دورتين من التلفت عند نقطةٍ بالمدرجات، ثبتت ناصيتها عليها، ثم اتسعت عيناها وفغر فوها للحظاتٍ قبل أن تبتسم وتترقرق مقلتيها بالدموع، بينما ينتفض جسدها المكبل.

لولا تلك القيود التي كبلتها لأشارت إليه وإن لم يذكرها، حين جال بذهني أن من الجائز كون ما ترى محض خيالاتٍ تسبق لحظة فراقها للدنيا، أن عقلها يقاتل كي يهيئ لعينيها ما يريح قلبها الذي جاهد طويلًا دون أي انتصارٍ ولو ضئيل، وسواء صح هذا أو ذاك، شاهدته أو تخيلت وجوده؛ أدمى مشهدها قلبي، فأطلق العنان لعيني يذرفان دموع العجز والحزن على مصيرها، لكن عزائي الوحيد أن ميتتها لم تكن بقسوة من سبقوها، فما هي إلا دقائق ولاح بالساحة صف ممن لم تبد عليهم هيئة الوافدين المستضعفين، لم ألحظ فيهم سوى واحدٍ ارتدى زيًا جلديًا كاملًا، وآخرين ارتديا زي الجنود، وخمسة نساء منعمات وكهلين، وقفوا خلف ظهور العشرة المكبلين ثم أسلم الجنود كل واحدٍ منهم خنجرًا ليقفوا منتظرين إشارة الملك، وعندها سحبوا النصال فوق رقاب المكبلين من خلفهم في آنٍ واحد.

شهقت أم إسماعيل لكن ابتسامتها لم تفارق شفتيها حتى هوت رأسها على صدرها، حين علت تشنجاتي، وانهمرت دموعي أغزر من أي وقتٍ مضى، ثم تكومت جوار القضبان.

العجز وفقدان الأمل ينهشان من قلبي سلخًا..

يعتصران صدري قبضًا..

يكتمان أنفاسي..

يشعلان الجمر في حلقي..

ينتزعان الروح من أنسجتي وشراييني على مهل..

متلذذان بعذابي..

رابضان فوق جثة ميتٍ لا زال حيًا..

يلهوان..

يتغامزان..

يرقصان على ضعفي وقلة حيلتي.

على حالي بقيت إلى أن انفضت الساحة وولى الجمع الدبر، حين أتاني ثلاثة جنود، كبلوا يديّ بالحبال، واقتادوني معصوب العينين، اجتازوا بي الفناء الخلفي قبل أن يركبوني عربة أخذت تتهادى بين طرقات المملكة طويلًا، إلى أن رفعوا العصابة لأفتح عينيّ أمام درجات قصر أبيض ضخم أحاطه سور أصغر من سور الساحة، بينما ازدانت حديقته الأمامية المربعة إلى جانب الورود والأشجار والعشب الأخضر بأربعة مجالس أبنوسية معروشات بكل ربعٍ واحدة اختلفت في تصميمها عن الأخريات، إضافة إلى بعض الأقفاص التي حوت عدة حيواناتٍ أو طيور على جانبي الطريق الصخري الذي قطع الحديقة من باب سور القصر حتى سلمه.

ما إن ولجنا من باب القصر حتى وجدت ردهة متسعة علا سقفها رؤوسنا بعدة أمتار، لكن ما هالني أني رأيت عن يميني ويساري حوضين زجاجيين كبيرين استقرت في كل واحدٍ منهما حوريتان من حواري البحر اللائي شاهدت أخواتهن من قبل. بدا عليهن العجز والبؤس حين نظرن نحوي، لأدرك أنهن عجائز ولسن شابات مثل اللائي قابلتهن. أمهلت خطواتي وأخذت أدقق النظر فيهن ليدفعني أحد الجنود إلى الأمام حتى بلغنا بهو القصر الضخم الذي ازدان بنقوشٍ زاهية لدى سقفه وجدرانه، وتوسطه مقابلنا سلم رخامي يرتقي للطابق الأعلى. ساقوني يسارًا حيث لاحت ردهة ضيقة في آخر البهو، وقف أمامها جنديان آخران، استلماني لتتجاوزها إلى بابٍ طرقاه وفتحاه قبل أن نلج غرفة كبيرة. جلس الملك الكهل فوق عرشه على مسطبةٍ في آخرها، يزين رأسه تاج في منتصفه لؤلؤة من لآلئ مفرق رأس الحوريات، وتراص أمامه صفان من المقاعد الكبيرة عن يمينٍ ويسار، اعتلى خمسة منهم أربعة كهول، وخامسهم من بدا أنه قائد جيوش المملكة.

كبلني الجنود لدى المقعد الأول من الصف الأيمن، ثم فُتح الباب لتتقاذفني عشرات الخواطر والأحاسيس والذكريات حين رأيت إسراء يدفعها جنديان إلى أن كبلوها في المقعد المقابل لمقعدي، ليسقي مرآها بذور الأمل التي جفت بجدباء روحي، فلا زال هنا من أقاتل لأجلها.

تبادلنا أحاديث كثيرة لم تجرِ على ألسنتنا عبر نظرات الأعين الشاخصة قبل أن أردف:

«سنعود، أقسم أننا سنعود لنجتمع آمنين ونشيخ سويًا ونزور شاطئ الفنار كهلين يتأبط أحدهما ذراع الآخر بينما تضربنا نسماته الباردة، متذكرين تلك الرحلة البعيدة».

ابتسمت شفتاها وسط دمعتين انزلقتا من طرفي عينيها:

«طالما ينبض قلبي سأنتظر أن تفي بوعدك».

صرف قائد الجند أولئك الجنود الذين اصطحبونا حين اقترب أحد الكهول نحونا، بدا بلحيةٍ بيضاء كثة، وجفون منتفخة، ووجه تجعد حتى صار كخطوط أرضٍ حُرثت. جلس مقابلي على المقعد المجاور لإسراء متفرسًا ملامحي قبل أن يسأل:

«من أي أرضٍ جئتم؟».

عاجلته: **«وكيف تيقنتم أننا جئنا من أرضٍ غير أرضكم؟».**

زوا شفتيه مبتسمًا لتبرز تجاعيد وجهه أكثر وضوحًا وكراهةً، ولأدرك عبر قسماته أنه تيقن من خلال جوابي أنني لست بالخصم الهين الذي جاء مستسلمًا بالكلية، بل شخصًا ما زال يدبدب بداخله الأمل باحثًا عن تفسيرٍ وأجوبة، شخصًا يريد النجاة لنفسه ولحبيبته، لذا أجاب راسمًا وداعة الثعالب على وجهه:

«سأجيبك على أن تعدني بأن تخبر بما لديك، وعندها لن يصيبكما أذى فأنتما منا».

لم أبتهج لما قال، بل شعرت أن عينيه تقطران دهاءً وخديعةً، لكني أجبت:

«أعدك بذلك».

لاحت على وجهه ابتسامة أكثر كراهةً من الأولى قبل أن يقول:

«تيقنا لأن هذا المجلس وحده يعرف أن الملك زهير كان مثلكما، وافدًا لا تسري عليه أحكام الوافدين، من سلالة المعمرين النقية التي تعيش في أرضٍ غير أرضنا. أول من وحدنا تحت رايةٍ واحدة، وأسرّ لمقربيه قديمًا منذ مئات السنين بهذه الحقيقة».

عقدت ما بين حاجبي بينما تواثبت في رأسي الحيرة بشأن ما قال، لكني على الرغم من تصديقي لحديثه الذي أثار علامات الاستفهام برأسي، إلا أنني شعرت أن هذا الكهل يتلاعب بي، يلقي إجابة صادقة مبديًا حسن النوايا، منتظرًا أن أبادله بنفس الأمر، وفي ذات الوقت يترقب ارتسام ردود أفعالي وانعكاسات وجهي، محاولًا أن يقرأ ما بين السطور ليس ما فوقها، حتى إذا ما بلغ السؤال عمّا يريد مني أدرك مدى صدق ردودي من كذبها. بدا أن قراءة

لغة الجسد قديمة قدم الإنسانية نفسها، إلا أنني حاولت أن أقلب الطاولة سائلًا:

«إذًا لم أنحاز إليكم؟».

ارتسم الغضب على وجههِ وبدا أنه ضاق زرعًا على نحوٍ أسرع مما تأملت:

«لا تكثر الأسئلة بما ليس من شأنك وأخبرني عن أرضكم».

أطرقت لثوانٍ قبل أن أسأل بصوتٍ مستسلم:

«لم قتلتم ثالثتنا؟!».

مسح علامات الغضب عن محياه مجيبًا بوجهٍ جامد حمل شيئًا من التهديد:

«لم أجد لديها ما ننتفع منه».

- لكن قاتلها لن يستفيد بعمرٍ جديد!
- لا تلق لذلك بالًا، واهتم بشأنك وحدك.

تنهدت بزفيرٍ حارق لاستحضار مشهدها الأخير مدركًا في ذات الوقت انتهاء أمد المراوغة، لذا أخذت أحكي بملامح باردة عن تلك البقعة المعزولة عن العالم التي يعيشون فيها، وموقعها من سائر الأرض خارجها، حكيت له عن الماكينات والآلات والمصانع، السيارات والقطارات والطائرات وغزو الفضاء، المضادات الحيوية والعمليات الجراحية، التكنولوجيا والتطور، الفنون والآداب والأديان، وأنهم متأخرون عنّا بما لا يقل عن الألف عامٍ بسبب عزلتهم، لكنه بادرني باستفسارٍ واحد بعد أن أسهبت في وصف الحياة خارج الجزيرة:

«ماذا عن أسلحة الحرب؟».

حكيت عنها من أول البنادق حتى القنابل النووية، حين بدا ذلك أول اهتمامهم من خلال تنبههم جميعًا لجوابي عن هذا السؤال، والذي ما إن انتهيت منه حتى سألني مبتسمًا بدهاءٍ:

«وهل تعرف صنع أيٍّ من ذلك؟!».

بدا سؤالًا عامًا عن كافة الأدوات التي حكيت عنها أسلحة وغيرها، فأجبت:

«كنت أعمل كاتبًا أو قد تقولون عني قاضٍ وليس لي علم بأيٍّ من تلك الحرف».

جعل سؤاله أكثر تحديدًا رفقة نفس الابتسامة:

«ماذا بشأن الأسلحة؟ هل تستطيع أن تفيدنا ولو بالقدر الضئيل عنها؟».

هنا أدركت لم ابتدر بحسن النوايا، ولمَ يحاول قراءة انعكاسات وجهي منذ بداية حديثنا، لذا أجبته بملامح كستها علامات الأسف:

«إن كنت لا أعرف صناعة الأدوات فهل أعرف صنع الأسلحة؟!».

ذلك على الرغم من معرفتي لإحدى الطرق البدائية لصناعة البارود، حيث بحثت عنها ذات مرة بشأن إحدى رواياتي، وأعرف أنه من السهل تصنيعه ما إن وجد زهر الكبريت الذي غلب على ظني وجوده في تلك الجزيرة، كما يوجد في الكثير من جزر البحر المتوسط، لكني لم أرد منح أولئك السفاحين ذلك السلاح كي لا يزهقوا أرواح الآلاف من بعدي، إلى جانب يقيني بأنهم سيأخذون مآلهم منا ثم ينفذون بشأننا ما يبتغونه.

maktabbah.blogspot.com

قطب ذلك الكهل حاجبيه للحظاتٍ مدققًا النظر نحوي بعد إجابتي الأخيرة، ثم التفت نحو إسراء التي أردفت بكلماتٍ واهنة متقطعة: **«يمكننا رسم خريطة للعالم الخارجي، يمكننا أن نعلم أبناءكم القراءة والكتابة والرسم ومهارات حياتية عديدة، أما تصنيع الماكينات والآلات فقد مرت بمراحل تطور على مدار مئات السنين، ولم تكن مجال عمل أو دراسة أيٍّ منا».**

«أنا أسأل عن الأسلحة التي حكى عنها رفيقك».

التفتت ناحيتي، ثم رفعت كتفيها بما يوحي قلة الحيلة:

«بالطبع لا أعرف».

هنا قام الكهل متجهًا نحو عرش الملك:

«أشعر أن هذا الرجل يعرف أمرًا يخفيه».

رد الملك لأول مرة:

«أدركت من البداية أنه لن ينفعنا وإن امتلك علمًا لتعاطفه مع أولئك العبيد، إلا أنني استجبت لمشورتكم، الآن أمهلوه بسجن القصر إلى يوم آربوس القادم، علّه يتذكر ما نستبقيه لأجله، وإن امتنع اجعلوه عبرة لمن ظل يؤمن بتلك النبوءة، أريد عذابًا فاق كل ما رآه اليوم، أما الفتاة البكر التي يكذب مدعيًا أنها زوجته فنفذوا بشأنها ما أمرتكم به».

حينها استأذنه ذلك الكهل الذي حادثني:

«اسمح لي يا مولاي الملك أن أذيقه بعض العذاب بمحبسه علّه ينطق».

أشار بيده التي حملت خاتمًا أحمر بالموافقة:

«احرص على أن تباشر ذلك بنفسك، فلا ندري إن كان هناك من أولئك الخونة بقية».

قاطعتهما ثائرًا: «أمهلونا يومين نجتمع فيهما سويًا وحدنا علنا نتذكر فتنفعكم الذكرى».

صاح قائد الجند: «لتتذكر وحدك أيها المارق».

صرت أصرخ: «أمهلونا يومًا واحدًا، أمهلونا ساعة!».

حين قام الأخير فاتحًا الباب ليلج منه جنديان اصطحباني بينما أصرخ موليًا وجهي نحو إسراء:

«سأظل على وعدي وآتيك قريبًا، سنعود، أقسم لكِ أننا سنعود».

maktabbah.blogspot.com

أخذاني عبر البهو من جديد إلى ردهةٍ تقع عن يمينه استقر في آخرها باب فتحاه لنجد سلمًا تنزل درجاته نحو أسفل القصر، بينما أضاءته مشاعل معلقة لدى جانبه الأيمن، نزلنا درجاته التي انتهت بممرٍ ضيق قبعت على جانبيه أبواب ما بدا على نور المشاعل أنها زنازين صغيرة، دفعاني إلى آخره قبل أن يودعاني في آخر تلك الزنازين يسارًا، حيث غرفة خاوية سوى من دلو صغير أدركت أنه لقضاء الحاجة.

أسقطت جسدي إلى حذاء الجدار المقابل للباب متشبثًا برؤية النور الخافت الذي تسلل عبر قضبان كوة استقرت أعلاه، بدا ذلك النور آخر ملمحًا للحياة به أتشبث، ودونه قد أشعر أنني ممددًا في قبري، بينما أجيل بذهني إخبارهم بما أعلم مفاوضًا على إطلاق سراحي أنا وإسراء -التي لم أعرف مصيرها الذي ساقوها نحوه- ومن ثمَّ أفاوضهم على تحسين أوضاع الوافدين إذا ما ارتأيت منهم استجابة.

صرت أقلّب الأمر على كل الوجوه مضطربًا مترددًا: إن أخبرتهم بأمر البارود قد يستبقونني لأصنعه مرة بعد مرة مذعنين لشروطي، وذلك إلى أن يعرفوا صنعته وحينها تنتهي منفعتي فينفذون ما انتووا بشأن إسراء ويسارعون إلى ذبحي لينهوا أمر النبوءة للأبد، ويبدأون عصرًا من الدمار والخراب على يدي، وإن لم أخبرهم سيسارعون إلى ذات النهاية دون ترددٍ أو تأخير، فما الإخبار من عدمه إلا منحة من الوقت.

كاد ذهني وقلبي أن يحترقا من الحيرة والوجل، إلى أن أسقطني النعاس بين شباكه، فلم أدر متى أراح عقلي ولا بأي وقتٍ اجتذبتني الاستفاقة من ثباتي، كل الأوقات هنا متشابهات، ما جد أني وجدت لدى الباب طعامًا وقربة ماءٍ أقاما صلبي، لتمر الساعات بعدها ما بين استفاقة ونعاس، طرقات على الباب دون مجيب، سؤال جالب الطعام دون رد، وحيرة من أمري على حالها، لأدرك من خلال الوجبات التي لاحظت أنها تأتيني مرتين في كل يومٍ أنه

مرت ثلاثة أيامٍ دون زيارة من وعد بعذابي.

حتى سمعت في صبيحة اليوم الرابع بعد وجبة الإفطار صوت مقتربين ما لبثوا أن فتحوا باب الزنزانة، ليطل ذلك الكهل بعينين لامعتين تحملان ضغينةً وحقدًا كادا أن يترجلان إلى الأرض متمثلين في هيئة شبحين سود، بينما تبعه ثلاثة جنود حملوا سياطًا وحبالًا.

استبقته قبل أن ينطق: «**أعرف صناعة شيءٍ يُدعى البارود، ذو قوة تفجيرية مثل الصواعق لم تعرفونها من قبل، ذلك الشيء قادر على دك الحصون وتفريق الجموع، لكن لي شرطين**».

لمعت عيناه بنشوة الانتصار التي طمست بريق الحقد والضغينة مردفًا لجنوده: «**كبلوه إلى الأرض ثم اتركونا وحدنا**».

ما إن انتهوا خارجين حتى عاجلني بينما وقف منتصبًا أمامي:

«**هات ما عندك**».

«**شرطي الأول أن أجتمع أنا وخطيبتي آمنين، أما الآخر هو أن تتحسن معاملة الوافدين ليصيروا عمالًا أو صانعين وليسوا عبيدًا كما تعاملونهم**».

علت قسماته ابتسامة واسعة قبل أن يصعقني بقوله: «**أما من تدّعي أنها خطيبتك لا تقلق بشأنها، واهتم لشأنك وحدك، فقد خطبها الملك لأجل الدماء النقية التي تسري في عروقها، واعدًا أن يقدمها على سائر الملكات، وأن يكون نسله منها ولاة العهد**».

فرغ من جملته فارتجت الأرض من تحتي بزلزالٍ تلته براكين استعرت داخل صدري الذي ارتجف ملقيًا حممه إلى عيني الشاخصتين صارخًا:

«**أجبرتموها على ذلك، فلا عهد بيننا ولا ميثاق**».

اتسعت ابتسامته بينما بقي باردًا:

«**بل وافقت وحدها دون ضغوط**».

انتابني صقيع كأني أقف وسط ثلوجٍ متراكماتٍ غطت جسدي وهامتي قبل أن يواصل:

«**سأستأذن الملك في ترتيب لقاءٍ بينكما، على الرغم من شدة غيرته على حريمه، أما شرطك الآخر، أعدك أننا سننظر في أمره، وصدقني إن انتهت الحرب بين مملكتي آربوس وتوحدت تلك الأرض تحت حكم ملكنا؛ سيتحقق مرادك دون شروط، وتنعم تلك الأرض بالأمان والرفاهية، بلا نبوءة أو مخلّص**».

عندها انتهى حديثنا وتركني بعدها ليدخل الجنود الذين حلوا وثاقي، بينما بقيت شاخصًا منكزًا لكل ما حكى.

مارينا

لم أدرك من بعدها هل ضاقت زنزانتي حتى حاصرت جدرها أضلعي فصرت ألتقط أنفاسي كمن يستلبها شحيحة لاذعة من قبضة الدنيا، أم أن التيه غزا غياهب عقلي ليشح طلبه للحياة ذاتها؟

ركام روح تصدع بنيانها فهوت مكومة، تطبق الخناق على نفس قبعت تحت أنقاضها مستسلمة لا تقوى على أن ترفع للاستسلام راية.

على حالي مرت ثلاث ليالٍ عجاف زهدت فيهن الزاد والأمل إلى أن حل ميعاد اللقاء، أخذوني نحو ذات الفرفة حيث وعدتها بعودتنا قبل أيام، ليخفق قلبي بنبضاتٍ مضطربة لمرأها جالسة جوار الملك في حلةٍ زاهية، بينما تدلى من رقبتها عقد توسطه لؤلؤة الحوريات، حالما أوقفوني مكبلًا في أول صف مقاعده الدميمة التي قبعت عليها نفس الوجوه الكريهة.

«هل وافقت على الزواج منه كما أخبروني؟».

زمت شفتيها وعقدت ما بين حاجبيها:

«من أنت؟ لقد رأيتك في أحلامي من قبل».

من أنا؟! لا أعرف. هل أنا يوسف الذي جاء من بلادٍ بعيدة بصحبتها أم أنني شخص آخر لفظه البحر كما يدعون؟

من هي؟! إسراء أم حورية بحرٍ نبتت لها قدمان؟! من هؤلاء؟ وأين أنا؟ ولم أقف بينهم؟

استفقت بعد شطحاتٍ من الجنون مجيلًا وجهي فيهم لأرى الكهل الثعلب يبتسم، إذًا هو اختبار لما فعلوه بها بمواجهتنا. زبانية الأرض هؤلاء يعرفون أسرار فقدان ذاكرة الوافدين، يعرفون سر السنوات السبع، أسرار الحوريات ومعنى لآلئ الميلاد، يعرفون كافة أسرار أربوس.

هتفت مركزًا نظري عليها وحدها بينما فرت دمعاتي ساخنة:

«أنتِ إسراء، حبيبتي، وأنا يوسف، وهذه الأرض ليست أرضنا».

ازداد انعقاد حاجبيها اندهاشًا حين بدت مستغربةً كلماتي. همت أن تنطق لكن الملك جوارها هتف غاضبًا:

«إنك في حضرة الملكة مارينا أيها المارق، فلا تنطق هرطقة لا تفيد».

أعقبه الكهل بأن قال:

«اتركه يا مولاي ليقول ما يشاء».

بدت شاردة، بدت وافدة فقدت ذاكرة الهوية، لكن قلبها يدرك، وعقلها الباطن يقاتل مستميتًا في مواجهة ما فعلوه أو ما أسقوها، بينما قبع إدراكها خلف بحورٍ من الظلمات.

مرت لحظات لم أنطق فيها، ثم صِحت بها من بين دموعي:

«سأظل عند وعدي».

لم ترد في هذه المرة قبل أن يأخذوني عائدين نحو زنزانتي ما بين إحساس بشيءٍ من الأمل لكونها لم تخذلني، وإحساس بالقهر على ما صار عليه حالنا، إحساس بالافتقاد، باستحكام الوحدة وعموم الضياع، وبين ابتسامة وعبرات، شهيق متراخ وانقباض صدر، آهات وابتهالات. عقدت عزمًا لم أعرف على ماذا، هل على فرارٍ ثم رجوع أم بقاءٍ جوارها؟

هل من الممكن أن تعود إسراء التي أعرفها، من ثمّ أحررها قبل أن نعود بلادنا، أم إن الأولى تحريرها من قبضتهم ولو رغمًا عنها، ثم من قبضة الظلمات التي سكنت عقلها بعد أن أحرر نفسي؟

مكثتُ أعيد ترتيب أوراقٍ تبعثرت مرة بعد مرة، لكن ما وقر في قناعتي هو بقائي، ليس في تلك المملكة بل في هذه الجزيرة، أقاتل على حياتي إلى أن أتحرر من قبضتهم وأهرب إلى نفس الأرض التي منعوني عنها، سلسلة جبال الوافدين، قبلما أعود وأقاتلهم دون نبوءة، دون هروبٍ جماعيٍ يوأد، لأذيقهم من بعدها بعض العذاب الذي أذاقوني، لكن مهلًا أهل آربوس، فقد أفقدتموني آخر من كنت أخشى عليه من بطشكم، من كانت تكبلني تحت أقدامكم، وفي ذات الوقت اطمأن عليها قلبي.

في صبيحة اليوم التالي جاءني الكهل بألاعيب خداعه محاولًا إقناعي أن بعض الوافدين يفقدون ذاكرتهم بعد مرور أيامٍ على مكوثهم بالمملكة، وأن ذلك ما حدث معها ليقع في صالحها، حيث ستكون زوجة الملك الأولى. استمعت له راسمًا الخضوع والإذعان وقليلًا من الأسف والضيق قبل أن يعرض منحي إحدى الجواري لتروّح عني، إلا أنني رفضت معللًا برغبتي في مباشرة العمل. ابتهج لعزمي الجديد موعزًا بأن أتأهب لنقلي خلال بضع ساعاتٍ نحو دار السلاح.

رافقني إليها عند الغروب بصحبة قائد الجند خلال عربة مغلقة ذات مقعدين متقابلين في حين جرها أربعة من الخيل، سارت بنا لبرهةٍ حتى عبرت بوابة سورٍ جاوز المترين بشيءٍ

يسير، لنترجل أمام بناءٍ من طابقين، وجدت بفنائه الأمامي بعض الجند يتبارزون، وآخرين يطلقون السهام نحو أهدافٍ ثابتة. بدوا قلائل بالنسبة لمملكةٍ تواصل حروبها، لكنه عاجلني:

«دور السلاح الأكبر هناك في رانتاز. هنا التخطيط والتدبير وهناك الجند الأشداء».

maktabbah.blogspot.com

ابتسمت بما يوحي التفهم قبل أن نلج إلى ردهةٍ أطل يسارها على قاعةٍ كبيرة بالطابق الأرضي حوت بعض الأدوات البدائية لسن السيوف ورؤوس الرماح والسهام، موقد نار كبير لتشكيل المعادن، قصاصات خشب تهيأت طولًا وسمكًا، قطعًا من الصخور والحديد، وتروسًا ودروعًا لم تكتمل، في حين انكفأ عليها بعض الوافدين، بينما يشرف عليهم قليل من الجند، وعن يمين الردهة استقر ما بدا مخزنًا لقطع الأسلحة التي اكتملت صنعتها، ليعاجلني من جديد:

«دار الراجمات العملاقة هناك في زورين».

أدركت أنه يقصد المنجنيق لذا رددت:

«سنحتاج إلى تلك الراجمات لنلقي بواسطتها البارود بعد أن نشعل فتيله، لتروا دمارًا لم تتخيله نواظركم من قبل».

نظر نحو قائد الجند لامع العينين:

«جهز راجماتك، قد اقترب أوانهم».

لم يبد الأخير اغتباطًا، بل ظل على تقطيب حاجبيه راسمًا الشدة والمنعة قبل أن يجيب على الكهل الذي أدركت أنه وزير الملك:

«الأهم من ذلك هو بأس الجنود وشدتهم يا سيدي الوزير مهما بدا السلاح الذي حكيت عنه، وسننتظر حتى نرى».

أدركت سبب تلك المعاملة من الوزير الكهل، حيث يصدِّر لي الأمان والطمأنينة والغبطة كأنه لا ينتوي بي شرًا، وأصدِّر له الاستسلام الكامل وتصديق أمانه المزيف بينما أعرف جيدًا أن نقطة الخلاف ستلوح عندما أتلو شروطي لصنع البارود.

عبرنا تلك الردهة نحو غرفةٍ استقرت في آخرها، لها نافذة مطلة على فناء البناء الخلفي، وتوسطتها منضدة خشبية كبيرة أحاطها عدة مقاعد جلسنا فوق ثلاثةٍ منها قبل أن يأتينا جندي أضاء مشاعل زيتيه معلقة بالجدران، تلاه من أتانا بقنينة نبيذٍ رفقة أكوابٍ خشبية، صب لثلاثتنا، لأبدي انعدام رغبتي طالبًا ماءً باردًا بديلًا عن ذلك إثر حرارةٍ نضحت من الجدران.

بقينا لبرهةٍ حتى جاءنا جنديان سلما على قائد الجند بحرارةٍ بينما يسألهما عن أخبار الجنود في رانتاز، أدركت أنهما من قبيل المهندسين أو صانعي السلاح لديهم. أنهيا طقوس سلامهما على قائد الجند، ومن بعده وزير الملك، ثم جلسا حالما جاء من صب لهما النبيذ، الذي ما إن انصرف حتى بدأ الوزير بسؤالي عن تلك المتفجرات التي يمكن صنعها.

تحتم عليّ أن أعطيهم بعض التفاصيل وأمنع بعضها، أخبرهم ما يجعلهم يؤمنون بحقيقة الأمر دون أن يلموا به علمًا، لذا عاجلتهم:

«هناك مادة صفراء تُدعى زهر الكبريت، هي أول العناصر التي سنحتاج إليها».

قلت ذلك بينما لم أتيقن هل بلغوا استخدام الكبريت أم لم يبلغوه بعد، لكن ما ثبت في يقيني أنه لو وُجِد بركان خامد في تلك الجبال الغربية، فمن المؤكد أننا سنجد لديه تلك المادة، ليبتسم الوزير الكهل قاطعًا ظنوني:

«أتقصد المادة التي تترسب إلى جوار فوهات البراكين؟».

أومأت موافقًا:

«هل تعرفونها؟».

«نجمعها منذ سنينٍ خلت، وتدخل في أغراض العلاج والملابس والمشاعل، لكننا نطلق عليها بدرة الشمس».

عقدت حاجبي: «**أنا لا أبتغي أي مادة صفراء، بل أقصد بلورات زهر الكبريت وحدها، ولن أتمكن من تمييزها إلا إن عاينتها في مكان تجمعها، فأعرف أن ذلك أصفر بينما ذاك أشد صفارًا، هذه كتل بلورات وتلك كتل صخرية».**

أومأ برأسه بمعنى التفهم منتظرًا أن يسمع ما بقيّ عندي حين بدا معارضًا لخروجي أو ذهابي. لم أعلم هل قرأ سرائري ودفائن نيتي أم شدة حرصٍ وحسب، في كل الأحوال انتويت المحاولة مستميتًا لإجبارهم على خروجي حتى وإن شددوا رقابتي، ليبقى طريقنا الطويل هو الفاصل بيننا، لذا وضعت عقدتي التالية عند ملح البارود أو ملح الصخر، تلك المادة البيضاء التي تتشابه مع عشرات المواد، حين سألت: **«هل تعرفون ما يُدعى ملح البارود أو ملح الصخر؟».**

رد الكهل: **«ما شكله؟».**

- مسحوق من البلورات الصغيرة شفافًا أو أبيض.

- أتقصد ملح البحر الذي يترسب في مواضع انحسار مائه؟

ابتسمتُ نافيًا:

«بل هي مادة نادرة سيستغرق بحثنا عنها وتجميعها بعض الوقت، تربض في شعاب الجبال فوق الصخور مترسبة، أو لدى بعض الكهوف أيضًا رفقة ما يشابهها من مواد كثيرة».

وهو قول حق، فتواجدها في تلك البقع جائز، بل وتقبع بوفرة لدى كهوف الوطاويط، حيث تكثر بزرقهم، وتترشح طبيعيًا منه، لكنه حقٌ مجتزأ أريد به إتمام فراري، لا سيما وأنا أدرك إمكانية ترشيح تلك المادة هنا من زرق الطيور مع بول الأحصنة أو مع بول البشر أيضًا.

لبث الكهل مطرقًا لبرهةٍ يجيل خلالها الأمر بذهنه قبل أن يسأل:

«هل يمكن أن تحدد للجنود ما يميزها؟».

أثبت لي بسؤاله أنه يمعن في محاولة الإبقاء علي دون خروج، إلا أنني لبثت أجاهد لأضع نفسي بموقف القوة الوحيد الذي قد أملكه يومًا، لذا رفعت كتفي مشيحًا بكلتا يدي:

«كثير من المركبات الكيميائية أو الأملاح في تلك المواضع يحملون ذات اللون الأبيض والشكل البلوري، وعلي أن أجري بعض الاختبارات كي أتأكد من كينونتها، وليس مجرد وصف وحسب».

ارتسمت على وجهه قلة الحيلة حين واصل:

«وهل يستلزم إعداد هذا الشيء مواد أخرى؟».

فركت جانب رأسي وكأني أحاول التذكر أو المراجعة، بينما احتفظت بسر المادة الثالثة لنفسي وهي الفحم، أسهل ما يمكن تحضيره، إلى جانب نيتي الاحتفاظ بأسرار المزج والنسب حتى أبلغ من أمري رشدًا، قبل أن أرد:

«لا أظن، هي تلك المواد وحسب».

- إذًا ماذا بعد جلبها؟

- لكم علي تصنيعها، أما نسب الخلط وطريقة التحضير فهي سر صنعتي التي ستستبقونني لأجلها ما دمت أصنع، إلى أن أنقل سرها بعدما يستقر بي الحال وأشعر بالأمان الكامل، لكن لي طلبات أخرى.

- ما هي؟

- امرأة حسناء أنكحها، نزل يليق وراتب مجزٍ يعيلني.

قلت ذلك مصدرًا الأمان لهم، كأني أرغب في جلب المواد محتفظًا بطريقة الصنع تحسبًا لغدرهم، بالإضافة لمستلزمات إقامتي التي توشي بنيتي البقاء بينهم طويلًا.

ليجيبني مبتسمًا مصطنعًا الود كعادته:

«لك أكثر من ذلك إن صدق قولك واكتمل عملك».

ثم حك ذقنه الطويلة:

«إذًا لا بُدَّ من خروجك في أول مرة رفقة الجند كي تعلمهم التفريق بين تلك المواد، قبل أن يستقر بك الحال للتصنيع هنا».

أومأت بمعنى الموافقة:

«أنا بين أيديكم، إن رغبتم في ذلك أنا لها، وإن زهدتم فما على الرسول إلا البلاغ».

تأفف قائد الجند ليبتسم له الوزير الماكر:

«لن يضيرنا ذلك، وسنبحث الأمر مع الملك».

ثم التفت نحوي.

- سيستقر بك الحال في مرقد لدى الطابق الثاني إلى أن ننظر في الأمر.

- إذًا لي استفسار أخير.

- ما هو؟

- إن لم تعدموني أمام الخلق كصاحب النبوءة، ماذا ستقولون؟

ابتسم بدهائه المعتاد حتى ظهرت نواجذه.

- سيعدم أي وافد جديد مكانك في يوم آربوس القادم، بعد أن تطول ذقنه وشعره ويكسو الغبار وجهه، على أن يكون مقاربًا لك في الهيئة.

بعد لحظاتٍ من التبجيل علت أوجه جميع من بالغرفة سواي، هتف قائد الجند ليأتيه أحد الجنود الذي رافقني نحو غرفتي الجديدة، حيث وجدت سريرًا خشبيًا، نافذة، ومنضدة اعتلتها قنينة نبيذٍ وبعض الطعام.

صرت أترقب ردهم الذي لن يطول، وقد أدركت من تلهفهم أنهم يتوقون للتفوق، اختلط

ذلك بقدرٍ كبيرٍ من الشعور بالأمان، وانعدام خطورتي بعدما اكتشفوا أمر التنظيم، إلى جانب اجتهادي في تصدير هذا الإحساس لهم من ناحيتي. في كل الأحوال لم أعدد لهم خيارات، بل وضعت خيارًا واحدًا، إما أذهب كي أحضر ما يلزم صنعتي، أو يتنازلون عن فكرتي ويريقون دمي دون طائل سوى نفي النبوءة، التي ما عادوا بحاجةٍ إلى نفيها بعدما قطّعوا أوصال أكابر المؤمنين بها ليبقى الخائفون وحسب، فما فائدة الإيمان إن كان دون صلاة؟!

لكني خلال ساعات ترقبي لم أتوقف عن استرجاع ذكرى الأيام الخوالي لدى الفنار، مستحضرًا ابتسامتها التي كانت تصبغ الدنيا بأريج المودة والسكينة، وأحاديثنا التي اشتقت وأشتاق وسيغالبني الشوق لها طيلة أيامي، وتلك الساعات التي ظننتها ستدوم.

ليعاودني استعار النار في صدري حنقًا ونقمةً عليهم، متمنيًا أن أحرق هذه الأرض بما عليها سوى الوافدين ومن بقي في قلبه رحمة من المعمرين، حتى جاءني الوزير بعد يومين ليخبرني بخروجي صباح اليوم التالي رفقة سرية من الجند نحو سلسلة الجبال الغربية، محذرًا من عواقب مجرد التفكير في الفرار، حيث سهم واحد سيصير كفيلًا بوأده بينما يصطحبني خيرة ملقي السهام، إلى جانب خطورة قاطني الجبال إن أدركوا أني جندي ممن يذيقونهم العذاب مرة بعد مرة، لا سيما وأنني سأرافق تلك السرية بعد أن يشمونني بوشم الجنود نسرًا يعلو منتصف عمودي الفقري، ويلبسونني زيهم، فما إن يراني أولئك القاطنين - إن هربت- إلا وسيسارعون إلى قتلي نقمة منهم على مصائبهم المتكررة.

أدركت مدى لؤمه وحيطته عندما أخبرني بترتيبه الذي لم أحسب حسابه، فكل اعتمادي بنيته على تعاطف الوافدين هناك مع وافدٍ مثلهم، وبذلك أفقدوني هذه الميزة، لكني لم أظهر ابتئاسًا، بل كسوت بالاستبشار وجنتي كأن أمر الانضمام للجند زادني غبطة، إلى أن انتهى مما جاء من أجله وهم بالانصراف، فسألته آسفًا:

«هل حددوا موعد زفاف الملك؟».

ابتسم مجيبًا:

«ستعقد احتفالات كبيرة تعم المملكة وقراها قبل يوم آربوس بستة أيام تنتهي بأن يصطحب الملك عروسه إلى الاحتفال الشهري».

ثم تركني بعدها أناديها دون كلمات:

«إسراء..

يا من لست مارينا..

ستظلين في جوف قلبي حتى أعود إليك منفذًا وعدي».

لم يغمض لي ذلك الخبر جفنًا، لم يترك لي رفاهية التفكير فيما سواه، وكلما حاولت الفرار منه بتصوراتي التي حاولت جاهدًا أن أرسمها عن تلك الرحلة، وجدت في أعمق أعماق عقلي إسراء وهي تُزف إلى الملك الكهل بينما تقف شاردة، نسي عقلها يوسف ولبث مستقرًا في قلبها، وليس هذا الملك المغتصب لها إدراكًا وجسدًا، فيا ليت الذاكرة محلها القلب!

إلى أن حل الصباح وآنت الرحلة، بعد وشمي انطلقنا في سريةٍ من بضعة وعشرين فارسًا، اجتزنا البوابة الجنوبية نحو السهل الرملي الذي سبق أن عاينته، حينها التفتُّ نحو آربوس متمنيًا عدم العودة لها على عجل، موعزًا لأسوارها بأن تتذكر هيئتي لأني سأعود، قبل أن ننحرف ناحية طريق الصحراء حين جعلوا فرسي بمنتصف الركب، لأدرك من بعيدٍ مدى ضخامة تلك المملكة التي حجبت أسوارها الآفاق، حيث ظهر طولها من البحر حتى جنوبها أكثر وضوحًا من هذه الزاوية، إلى أن غاب أثرها بعد أمدٍ لأتوقف عن التلفت بين حينٍ وحين، بينما عدت لترتيب أفكاري مرة أخرى، مجيلًا لتساؤلات فوق بعضها بين تجاويف رأسي، هل سأستطيع للفرار سبيلًا؟ هل من الممكن أن أزيل الوشم الذي استقر عند نقطةٍ لا تبلغها يداي، أم أستسلم إلى أولئك الوافدين دون إزالته؟ ممنيًا نفسي بألا يقتلوني إن أخبرتهم عن أمري، إلا أنني بالأخير تركت الأمر لتدابير القدر التي ستكشف عن خباياها ما إن نبلغ مقصدنا وأعاين ثغراته وفجواته بعد أن أستقصي أمر تلك الصحبة بشأن المبيت، الحركة، الحراسة، ومدى رقابتي. في دنياي قالوا أن لكل نظامٍ أمنيٍ ثغرة، هي مقصدي، من بعدها سيحين أمر ساكني الجبال.

تمنيت أن أعرف ماذا حل بفارس الذي بدا أنه لم يقع في أيدي آربوس الشمالية، حيث لم أره في ذلك اليوم الذي ذبحوا فيه أقراننا. إن نجا من عدوتها سيكون هناك بالجبال، فهل من أملٍ في لقاه إذا ما بلغتها؟! لا سيما وقد علمت أنها تمتد لعشرات الكيلومترات محتلةً قسمًا كبيرًا من غرب هذه الجزيرة، بينما يعيش أهلها في جماعاتٍ بدائية متفرقات.

بقيت على حالي تراودني الآمال والأماني بين ركضٍ طويل وسط صحراءٍ قاحلة، وفترات راحة مقتضبة حتى غربت الشمس وأخذ الليل يرخي سدوله. توقفنا عند بئرٍ تفطى بقطعةٍ من الجلد استقر فوقها بعض التراب، أزاحوها ثم نصبوا خيمتين كبيرتين متجاورتين، أوقدوا أمامهما نارًا وضعوا فوقها قطعًا من اللحم في إناءٍ خزفي، بينما أحطناها جميعًا.

بدا من حسن تعاملهم معي أنهم أخذوا تعليمات بهذا، لكن ذلك لم يمنعني من أن أشعر من بين ثنايا معاملتهم حنقًا منهم انصب على من تسبب في مقتل بعض أقرانهم من الجنود، خاصة قائدهم الذي لاحظت أكثر من مرةٍ أنه يرمقني بعينين تلظتا شررًا حين أشيح نظري

عنه وأعاود ناحيته، كأنه يتمنى أن يشفي غليلًا استعر بصدره، لأتيقن أنه لولا أوامر رؤسائه لقطّع أشلائي إربًا ثم أطعمها الجوارح بينما ينظر متلذذًا. لم يخالجني ذلك الإحساس وحده، بل لاحظت جليًا أنهم يولوني إحساسًا بالدونية كما يولون الوافدين. لم أبتئس لأمرهم، بل جالت في ذهني تساؤلات متكررات منذ جئت الجزيرة عن طبيعتنا كبشر، وهل تحوي العنصرية والتشبث دومًا بإحساس الفوقية حتى في هذا العالم البدائي أم أنها أمر يطرأ على حياتنا تبعًا لتقلباتها؟ هل الدافع لتلك الأحاسيس الشاذة هي فطرة الإنسان وغريزة البقاء الراغبة دومًا في الأمان النفسي؟ فيسعى إلى ذلك التأمين بتدعيم نفسه وجماعته بإحساس التفوق والتميز، ليس في هذا العالم البدائي وحسب، بل في عالمنا أيضًا، فهم لم يتوقفوا فيه قط عن ممارسة العنصرية، أينما وجدت الأقلية تبعتها، لتشعر الفئة الأقوى بإحساس المنعة والقوة والتميز.

هل الأمان النفسي يحتاج إلى تلك الصراعات ومحاولة إثبات القوة والفوقية، أم هناك دوافع أخرى تستجد وفقًا لظروف الحال لدى النفس البشرية القابلة للامتلاء بالأسقام كالجشع والطمع والأنانية إن لم تتهذب بضوابط حياتية؟

دارت تلك الأفكار في رأسي حتى فرغنا من طعامنا، حينها قسّم قائد السرية الخدمة الليلة إلى ثلاث مناوبات، في كل مناوبة خمسة من الجند، بعدها جاء من ساقني نحو فرشة صوفية وضعت لدى الركن الخلفي الأيمن للكوخ الأيسر، قبل أن يكبل قدميّ لبعضهما ويديّ خلف ظهري. سخطت لذلك معترضًا، لكنهم لم يأبهوا لاعتراضي، لذا بقيت متيقظًا لأمدٍ طويل حتى استغرق من جاوروني بالكوخ في نومهم، ثم أخذت أحاول فك الأربطة التي كبلوني بها دون نية فرارٍ في هذه الليلة، ولا بالتي تليها، لكن لأرى من أمر الحبال، وهل أستطيع حلها إذا ما أردت أم سيكون الأمر شاقًا.

بتُّ أحاول طويلًا -على الرغم من شدة برودة الصحراء ليلًا- دون جدوى حتى رقدت ساخطًا، لأشعر بعد كثيرٍ من التقلب فوق الأرض التي اختلط فوقها الصخر بالرمال بشيءٍ يخز في ظهري. اعتدلتُ رافعًا فراشي لأجدها قطعة حادة من الصخر، لكن حدتها لم تبذ كفيلة بقطع الأربطة، إلى جانب أن طولها لم يمكنني من الإمساك بها بيديّ المعقودتين خلف ظهري. صرتُ أقلب الأرض بحثًا عما يشبهها ملائمًا غرضي دون فائدة، إلا أنني في فترات الاستراحة طوال يوم سفرنا الثاني بينما تحررت أطرافي، أخذت أجيل نظري في الأرض بين قطع صخورها المتناثرات بحثًا عما يلائم مقصدي، وكلما وجدت إحداهن التقطتها مستترًا حتى إذا ما لاح أفضل منها ألقيت الأولى والتقطت الجديدة محتفظًا بقطعة صخرٍ مربعة صغيرة لسن ما سأستقر عليه، إلى أن بلغنا الليل عند بئرٍ جديد مغطى كسابقه. دخلت خيمتي

بعد الطعام وتكبيلي عاقدًا العزم على التوقف عن البحث وتحسين القطعة التي امتلكتها آخر ذلك اليوم في هدوء وروية، والتي بدت في طول كف يدي، وعرض لا يجاوز البوصتين، ما مكنني من الإمساك بها ومواصلة تشذيبها طوال قسمٍ كبيرٍ من ليل الوردية الأولى.

في يوم سفرنا الثالث بعد الشروق بقليل لاحت لنا الجبال شاهقة على بعد عدة كيلومترات، لذا بقيت أخرج أداتي المدسوسة في حزام سروالي كلما جلست منفردًا في فترات الراحة، وآخذ في حكها في أرضٍ صلبة أو في قطعة صخرٍ أو فيما أجده مناسبًا، حتى عسكرنا ليلتها عند سفح تلك الجبال، التي بدت عند الغروب مخيفة شاهقة تسد امتدادها آفاق بعيدة.

في ليلتها عين القائد في كل مناوبة ثمانية من الجند إثر عواء الذئاب المتواصل لأشعر بقدرٍ أكبر من الراحة في مرقدي، وأعتدل لأوقاتٍ طويلة من الليل عدا أوقات التبديل محاولًا إتمام ما بدأت، إلى أن شعرت بقدرٍ من الرضا عما توصلت إليه، ثم أخفيت تلك الصخرة التي صارت أكثر حدةٍ خلال حزام سروالي، لأفاجأ في الصباح التالي أنهم لم يحلوا وثاق يديّ ككل صباح، بل حلوا قدميّ وحسب كي أتمكن من ركوب فرسي، حين أخبرني قائد السرية لامع العينين أن الوزير من أمر بذلك ما إن نبلغ الجبال. لم أبد اعتراضًا هذا المرة، لا سيما وأنا أدرك أن الاعتراض لن يغير من الأمر شيئًا.

بدأنا التحرك نحو سلسلة الجبال، التفوا حول مقدمتها الشمالية حتى واجهنا ساحل البحر، فظهر ممر لصعودها خفيف الانحدار، حيث استطاعت الخيل أن تخطو فيه صعودًا، إلى أن بلغنا بقعة مستوية أطلت على ميسرة ذلك الممر عند منتصف النهار. التقطنا فيها أنفاسنا، وسقوا الخيل التي حمحمت إرهاقًا قبل أن نواصل صعودنا لنبلغ قمة المقدمة الشمالية لسلسلة الجبال عند الغروب، ليبدو مدى ضخامة تلك السلسلة الجبلية من موقعي، حيث لاح عرضها أمامنا، بعيدًا عن تلك المقدمة المكتنزة شاسعًا، بينما حدها البحر من ناحية، وأرض الجزيرة من الأخرى، وتتخللها تضاريس وعرة، ولم تبزغ نهايتها الجنوبية لنواظرنا.

نصبوا الخيمتين لنبيت ليلتنا عند موضع وصولنا، حتى إذا ما أشرقت الشمس تفقد أحد الجند رباط يديّ قبل أن نواصل مسيرنا عبر دربٍ امتد على حافة قمم الجبال مطلًا على البحر، بدا أنهم يداومون على استخدامه، بينما لم يظهر تأهبهم أو خشيتهم هجمات الوافدين، بل اتضح من خلال بعض أحاديثهم التي استرقت السمع لها أنهم يرونهم خرافًا لا تقوى على المواجهة، بل الهرب وحسب.

لم تمر إلا بعض ساعة وغيمت السماء بسحبٍ قاتمة فوقنا، ليسرعوا السير حثيثًا حائدين عن دربنا نحو قلب القمم مبتعدين عن حافتها، إلى أن ظهر مدخل أحد الكهوف توارينا فيه

قبل أن تهطل أمطار لم يسبق لي رؤية مثلها، كآلاف من الصنابير فُتحت فوق رؤوسنا تصب الماء صبًا من معينٍ لا ينضب حتى استحكم الظلام، ظننت أنها ستكفكف خلال الليل، لكنها واصلت لثلاثة أيامٍ بلياليهن، فكوا خلالهن وثاقي في اليوم الثاني لما ارتأوا أن الأمر سيمتد، حتى انتهت في صبيحة اليوم الرابع.

عاودنا المسير بعدما كبلوا يديّ مرة أخرى عبر دربنا المطل على البحر لمسافةٍ طويلة صاعدين وهابطين، بينما ضاق بنا في بعض الأماكن حتى سارت خيولنا فرادى متلاحقات، واتسع في مواضع أخرى، أما البحر من تحتنا فأحيانًا رأيت ساحلًا رمليًا له لامس سفح الجبال وأحيانًا أخرى ضربت الموجات المتلاحقات صخور السفح مخلفة دوامات صغيرة عند جُزُفٍ عمودية منه لا حيد فيها، إلى أن أخذ الدرب يتوغل في قلب القمم متخللًا تضاريسها مبتعدًا عن الحافة، حيث عبرنا ممرات ضيقة بين مرتفعاتٍ بارزة تخللت مسيرنا، ثم مناطق عشبٍ أخضر ربضت في وديانٍ متسعة توسطت مرتفعات أخرى، فخطت حوافر خيولنا في مياهٍ تجمعت بها، قبل أن تتخلل دربنا بعض الأشجار كغابات محدودة، وبرك تكونت بالمنخفضات مثل بحيرات صغيرة، وبين حينٍ وآخر لاح عن جانبينا بعض الأخاديد العميقة، منها ما بدا ضيقًا لا يظهر ثنايا جوفه، وأخرى متسعة كأنها فواصل بين أجزاءٍ من الجبال، ولاحت بعض الظباء، والأرانب والغزلان هنا وهناك.

بعد نوباتٍ من الاستراحة، ملء القرب، وسقي الخيل، توقفنا قبل الغروب للمبيت بعدما انطلق ثلاثة من ملقي السهام بحثًا عن صيدٍ يقتنصونه، ما لبثوا أن عادوا بغنيمةٍ كبيرة أخذوا في إعدادها، وقبيل العشاء قسموا مناوبات الليل، ثم انفض كل إلى مرقده، لأظل طوال ليلتي أقلب أمري على كافة جوانبه بعدما اتضح أمر الفرار أشق مما تأملت، حيث لم أجد منفذًا لهروبي حتى ليلتنا، فمناوباتهم متيقظة طوال الليل، وبالنهار أسير وسطهم، ذاك الرباط لم يعد يترك يديّ، وهناك جندي أخشى أن يعاود تفقده، إلا أنني لم أترك اليأس يتعلق بكتفيّ مستبشرًا أن يجد جديد.

في الصباح واصلنا المسير دون أن يتفقد الجندي وثاقي، قبل أن أدرك من ضحكاتهم ومسامراتهم عن غزواتهم السابقات أن قلب تلك الجبال أسفلنا ليس مصمتًا بالكلية، بل هناك ممرات وأنفاق وكهوف تتوارى بينها تجمعات الوافدين. صاروا يتضاحكون ويحكون إلى أن بلغنا ضفة بحيرة ضخمة بالكاد ظهر شاطئها المقابل، استقرت في أكبر وادٍ قابلته منذ وطئت قدماي قمم هذه السلسلة الجبلية، بينما أحاطت بها المرتفعات من كافة جوانبها، وانساب ماء الشتاء المخزن بين ثنايا تلك المرتفعات إليها. عرفت أنها بحيرة بالميري، حيث يتجمع أكبر قدرٍ من مياه أمطار هذه الجبال، والتي تستمر في الهطول مرات بعد مرات طوال ثمانية

شهور كاملات، لتمثل منبع نهر جودي، وأن شلالها يقع من ميسرتها وفقًا لموضعنا.

بعدها التف الدرب بنا من حولها لنعاود رؤية البحر مرة أخرى، حين ظهر تحفز الجنود ما إن جاوزناها؛ ذلك لتخطينا منطقة آربوس الشمالية ودخولنا في زمام عدوهم، حيث تفصل البحيرة بينهما فوق الجبال كما يفصل نهر جودي بينهما على الأرض، إلا أننا لم نلبث في مسيرنا كثيرًا حتى بلغنا فوهة أحد البراكين الخامدة. وجدنا حولها كميات كبيرة من زهر الكبريت، أخذوا يجمعون فيها بينما همّ القائد بسؤالي متجهمًا عن ملح الصخر وأين سنجده، فأجبت مشيحًا بيديّ ما أوحى بقلة الحيلة: «**طوال مسيرنا أفتش عنه لكني لم أجد إليه سبيلًا لا سيمًا بعد تلك الأمطار الغزيرة، ولا بدّ لنا أن نسلك طريقًا مغايرًا لدى رجوعنا نبحث خلاله في الكهوف**».

- لن نستطيع أن نسلك الطرق السفلى بأعدادنا المحدودة، إلا نزولًا وصعودًا في بعض المواضع وحسب.

أومأت برأسي بمعنى التفهم والموافقة حين تركني ليأمر جنوده بالتحرك عائدين، حتى إذا ما جاوزنا بحيرة بالميري في طريق رجوعنا، صرنا بين فينة وأخرى نترك دربنا لنحيد عبر طرقات متفرعة عنه، إلى أن نجد منخفضات تحوي كهوفًا أو أخاديد ذات منحدراتٍ ممهدة تأخذنا إلى أنفاقٍ في قلب الجبال، تتخللها الكهوف عن جانبيها، التي لاحظت أن بعضها حوى ما يوحي بأنها كانت مأهولة.

وجدنا كميات ضئيلة من ملح الصخر تكفي لصنع قدرٍ محدود من البارود، حين بدا اكتفاء القائد بهذا القدر، دون أن أجد منفذًا لهروبي. استنتجت أنهم لا يريدون سوى عينة يجربون من خلالها فاعلية ما أصنع، ويتعرفون على ماهية مكوناته، ومن ثمّ يجوب رجالهم الأرض شرقًا وغربًا باحثين عن هذه المواد إن أفلحت، بينما أبقى تحت أعينهم إلى أن يُفرغوا جرابي كاملًا، بعدها ينتهون من أمري، فلن يترك الملك منافسًا له في زوجته الأثيرة إلى جوارهما.

في تلك الليلة عسكرنا قبل أن يعود بنا الدرب نحو ساحل البحر حالما بدأت أفقد الأمل في جديدٍ سوى ما راودني من قبل، عندما رأيت الأمواج تضرب أسفل الجبل مخلفة دواماتٍ تشي بأنها مناطق عميقة وليست ضحلة. انتفض قلبي من مجرد التفكير في القفز، الارتفاع شاهق ولا أدري ما يقبع بالأسفل، في ذات الوقت لا توجد ثغرة إلاها، ذلك إذا ما سارعت إلى قطع تلك الحبال قبل أن نصل عندها؛ لن يقفز أي منهم خلفي، وميل الجبل حاد للغاية عندها، فلن يهبطوا في إثري ركضًا ولا بالخيل، وسيحتاجون لمسيرٍ طويل، بعده سيقف الماء عائقًا بيني وبينهم.

«إسراء..

يا من لستِ مارينا..

أيتها المنزوية خلف إدراكٍ ولّى..

أين المفر وأين اللقاء؟».

صرث طوال ليلتي أحاول قطع الرباط من الداخل بين يديّ، على أن أتركه معلقًا ببعض فتيله عند موضع القطع من الخارج؛ خشية تفقد الجنود له صباحًا أو أن يرى السائر من خلفي انقطاعه فتحبط كل مخططاتي، حتى إذا ما قفزت شددت يديّ لينقطع ما بقي معلقًا، دونما أدري هل بلغت حد القطع الكافي أم لم أبلغه، متيقنًا أني أخاطر بكل جوانب تلك المجازفة، لكن لم يبقَ أمامي غيرها.

عاودنا المسير صباحًا، بينما ارتفعت نبضات قلبي كلما اقتربنا من تلك البقعة التي انتويت القفز عندها، إلى أن بلغنا منطقة ضيقة من الدرب أطلت على تلك البقعة، وصارت خيولنا تمشي فرادى متفرقات، حينها ودون تردد ترجلت قافزًا قبل أن يدور في خلد أحدهم أن أفعلها.

تجاوزت الصدمة الأولى عندما لم يرتطم جسدي بصخورٍ أو شعاب تحت الماء، أما التالية لم أتجاوزها حيث شددت يديّ بعنفٍ، لكن الحبل ظل عالقًا ولم ينقطع، وأخذ جسدي في الغوص لأسفل، قبل أن يقفز خلفي من أدركت بعد لحظاتٍ أنه قائد السرية.

ما هالني أنه لم يحاول إنقاذي، بل عندما بلغني رأيت حقدًا أطل من عينيه لم يمنع الماء نفاذه نحو صدري قبل أن يمسك رقبتي بكلتا يديه محاولًا خنقي، لأدرك أنه لم يرد قتلي من قبل وسط الجنود خشيةَ إنزال العقاب به، ولم يطعنني الآن بخنجرهِ خشية فوران دمي بعد نزوله، فيدركون أمر تعمده قتلي، إلا أنني بقفزتي منحته ما تمنى، منحته الفرصة ليخمد نار الغضب بداخله، مع شرف جم بكونه جازف محاولًا إنقاذ الوافد الذي استأمنه مرؤوسيه عليه.

ميرا

صرتُ أحاول بكل عزمي مباعدة يديَّ بينما أشعر أنني قاب قوسين أو أدنى من مفارقة الحياة للأبد إثر انقطاع أنفاسي، وابتلاع جرعات كبيرة من الماء، لكن لا تدري ماذا تفعل غريزة البقاء بنا، فبقدر ما تهبنا من حماقاتٍ إذا لم نروضها إلا أنها تمنحنا قوة تخرج أشد ما فينا في ساعات الحسم.

حيث انقطع الحبل وتحررت يداي لأسارع باجتذاب صخرتي من تحت حزامي، طعنت بها جنبه، ثم رقبته، لتشخص عيناه جاحظتين، وتفلت يديه عن رقبتي، بينما تفور دمائه صابغة مياه البحر بلون أحمر قانٍ رأيت فيه أملًا لم ينقطع.

maktabbah.blogspot.com

سارعت إلى الصعود على مقربةٍ من السفح متيقنا أنهم لن يرونني عنده لبروزٍ في الجبل من أعلى، سعلت لعدة مراتٍ حتى التقطت أنفاسي، ثم تلفتُ يمينًا ويسارًا بحثًا عن مخرج. لم أسبح في اتجاه المقدمة الشمالية، بل اتجهت عكسها حتى بلغت ساحلًا رمليًا، بينما أدرك أنهم لن يستسلموا، لكن ما أخبرني به قائدهم المسجى في البحر من قبل نظم شيئًا من أفكاري، سيخشون أن يسلكوا الدروب السفلية بأعدادهم القليلة، وإن سلكوها سيغلب تحرزهم نقمتهم.

صرت أركض لدى الشاطئ مفتشًا في فجوات سفوح الجبال عن ممرٍ أو نفقٍ يأخذني لممرات باطنها، لكني لم أجد سوى كهوفٍ مغلقة، حتى انتهى ذلك الساحل الرملي الصغير إلى منطقةٍ يضرب فيها الموج السفوح، عندها انتزعني من ترددي مرور ثلاثة أسهمٍ إلى جواري، رفعت عينيَ لأرى من بعيد ثلاثة منهم يحاولون اقتناصي من فوق قمة الجبال، فقفزت إلى الماء غاطسًا، بينما جال في ذهني أنهم سيقسمون أنفسهم إلى ثلاث فرق، إحداهن تتبعني من عند القمم، والأخرى ستنزل من عند ممر المقدمة، أما الثالثة ستحاول أن تجد ممرًا هابطًا أمامي من لدى منتصف السلسلة الجبلية، إلا أنني صرت أتقدم تحت الماء بينما أصعد في خطفاتٍ لألتقط أنفاسي، ثم أعاود الغوص مسرعًا لتجنب السهام، إلى أن بلغت ساحلًا رمليا جديدًا، ما إن اعتلته حتى أصاب سهم فخذي الأيمن؛ انكفأت على وجهي من إثره حين انغرس سهمان في الأرض إلى جواري.

انتفضتُ أجري متعكزًا بينما يعتصرني الألم، خشيةً النوبة التالية من السهام، إلى أن ولجت إلى أحد شقوق السفح، بدا ككهفٍ صغير مسدودٍ هو الآخر من ناحية قلب الجبال، رقدت على جنبي صارخًا لا أقوى على حركة، أكاد أفقد وعيي من الألم والإرهاق والدم الذي صار يتدفق غزيرًا حالما أخشى الخروج مجددًا كي لا تصيبني سهامهم في تلك المنطقة المكشوفة

لهم. بقيت على حالي قدر ساعة، مرتعدًا من مصيري الذي بات وشيكًا، إما بيد الجنود أو بيد سهمهم النافذ بفخذي، إلى أن أخذت أشعر بوعيي يتراجع، غشاني ضباب أخذت تزداد كثافته ثم تقل في نوباتٍ متلاحقات، حتى لم أدرِ إذا ما كنت في حلمٍ أم واقع حين تحركت صخرة كبيرة في مؤخرة هذا الشق ناحية قلب الجبل. أزيحت لأرى من خلفها صبيين صغيرين في أوائل عقدهما الثاني ارتديا ملابس جلدية، وما إن رآني حتى ارتعدا متراجعين، وأمسكا بصخرتين رفعا بهما يديهما حالما وجداني هامدًا لا أقوى على حركة.

حادث أحدهما الآخر: «**إنه أحد جنود آربوس**».

اقترب الثاني متحرزًا إلى أن تفحص رأس سهمي قبل أن يجيب:

«**إذن لم أصابته سهامها؟ في الأمر شيء مريب**».

نطقت متهالكًا: «**أنا لست من جنودهم، بل أنا وافد مثلكم أجبروني على أن أقضي لهم حاجة في هذا الجبل، وألبسوني هذا الزي بعد أن وشموني بوشمهم حتى أمتنع عن الهرب إليكم**».

ابتلعت ريقي ثم واصلت: «**أنقذوني منهم، فهم في إثري**».

وقفا مترددين لبرهةٍ حين ظهرت من خلفهم فتاة في أواخر عقدها الثاني، تحمل شباكًا بدا أنها للصيد، سألتهم عن أمري فأجابوها بما حكيت، لتردف:

«**أعينوني على مساندته حتى ينظر الراعي في أمره**».

أسندوا يديّ على كتف الفتاة وأحد الصبيين عائدين لما بدا أنه نفق يمر أسفل الجبال توارى خلف الصخرة التي أزاحوها مجددًا، مغلقين منفذ الشق الذي كنت أرقد فيه. ساروا بي لمسافةٍ كبيرة خلال ذلك النفق في ظلامٍ دامس لا ينقطع إلا عندما نمر أسفل أحد الأخاديد الكبيرة أو الصغيرة، إلى أن استقر بنا الحال لدى كهفٍ مخروطي ضخم اتسع عند أرضيته الدائرية الكبيرة، وضاق في أعلاه، في حين ربض مدخله المكتنز على جانب أحد الأخاديد الحادة. بدا ذلك الأخدود ضيقًا للغاية إلا أنه أرسل بصيصًا من نوره نحو الكهف من خلال بابه.

لأرى عدة خيامٍ كبيرة تراصت بانتظامٍ في بضعة صفوفٍ فوق أرضية الكهف، تخللتها طرقات ضيقة ظهر فيها من يلبسون ملابس جلدية كاملة ما بين جالسين أو سائرين. أخذني الصبية والفتاة نحو شقٍ في جدار الكهف الأيسر أضاءه مشعل، بدا كغرفةٍ صغيرة بعرض مترين، وطولًا تجاوز الثلاثة أمتار، بينما جلس فيه كهل أطلقوا عليه الراعي، أخبروه بأمري،

ثم أرقدوني أمامه على فرشة جلدية ليكشف عن ظهري حتى رأى الوشم، وقال:

«صدقكم القول، هذا وشم جديد لم يمر عليه سوى عدة أيام، لكن لمَ جلبتموه؟ قد يسبب لنا المتاعب».

لترد الفتاة: **«أشفقت على حاله، فهو ينزف كما ترى».**

هنا استسلمت لذلك السواد الذي نهش عقلي وفقدت وعيي، لأستيقظ صارخًا حالما نزعوا السهم من فخذي، وأدخل محله الكهل سيخًا حديديًا رفيعًا استعر نارًا حتى صار بلونٍ أبيض، لم يلبث لحظة، ثم سحبه بينما كبلني إلى الأرض أربعة من الرجال الأشداء، واستقرت بين أسناني قطعة من خشبٍ أخذت أصرخ متأوهًا حتى لفظتها قبل أن يضع ذلك الكهل ضمادات باردة فوق رأسي وبعض من جسدي، بعدها أسقاني شرابًا لاذعًا لأغيب في غياهب الظلام من جديد.

«إسراء..

مارينا..

أيتها المسجاة في زنازين عقلك..

اذكريني ولو في أحلامك».

ما بين استفاقة وغياب مرت سبعة أيام اعتنى فيها الكهل بجسدي إلى أن استرددت شيئًا من عافيتي في اليوم الثامن، لأدرك في أول خروجٍ لي من الشق نحو الكهف متعكزًا على فرع شجرةٍ يابس، بعدما ألبسوني ثيابًا جلدية مثل ثيابهم، أنني في قبيلةٍ يقترب أهلها من عدة مئاتٍ ما بين أطفال وشباب وشيوخ قابعين في هذا القبر الأقرب إلى الموت عن الحياة، ثم مضى يومان لبثت فيهما أجلس وحدي في قلب الكهف شاردًا أتابع خلوه نهارًا من قاطنيه، واكتظاظه بهم عند المبيت، بينما أقضي ليلتي رفقة الراعي ليتم مهمته في علاجي، الذي لم يبادرني بأي حديثٍ عن حكايتي، ولم أبادره بأي استفسارٍ عن حالهم حتى الليلة الثالثة حين دخل إلى غرفته ووجدني أجلس مسندًا ظهري لجدارها، فجلس إلى الجدار المقابل ناظرًا نحوي: **«يبدو أن فخذك تتعافى أسرع مما ظننت».**

ابتسمت: **«الفضل لك يا سيدي الراعي، لكن هل سأظل أتعكز على هذا الفرع لمدةٍ كبيرة؟».**

«يمكنك السير دونه زكًا على قدمك إن أحببت من الصباح الباكر، إلا أنني لا أحبذ ذلك، بل أفضّل التعكز عليه حتى تشعر أن ساقك تحملك بلا كبد».

صمت لبرهةٍ قبل أن يضيف: «**إن أردت أن تحكي ستجد آذانًا صاغية، وإن امتنعت فلن يضيرك التمنع**».

لم أتردد في ذلك مبتدءًا حديثي بقول:

«**أنا حامل نبوءة تحرر الوافدين، جئت من بلادٍ بعيدة لا تعرفونها**».

ابتسم حتى لاحت نواجذه:

«**تيقنت منذ رأيتك أن هناك شيئًا مختلفًا بشأنك، ولكن ما أدراك أن تلك النبوءة حقيقية ؟!**».

عقدت حاجبي:

«**هناك الكثير ممن يؤمنون بها من الوافدين**».

«**أنا لست من الوافدين وفقًا لوجهة نظرك التي عرفتها، بل معمرًا وكل من حولك بالجبل معمرين، ولا يأتينا من وافدي البحر أحد إلا فيما ندر، ولكن يجب أن تعرف من هم المعمرون ومن الوافدون وفقًا لوجهة نظر أهل الجبال**».

ازداد انعقاد حاجبي حين عاجلني:

«**تاريخ الجزيرة ليس كما يحكى في الساحة**».

- إذن أريد أن أعرف ذلك التاريخ.

- ستعرف لكن قص علي حكايتك قبلها.

أخذت أخبره عن الدنيا خارج آربوس قبل أن أحكي كيف جئت إلى هنا، ثم أعقبت ذلك بحكايتي منذ وطئت قدماي أرض آربوس، متجنبًا ذكر حكاية إسراء التي تحولت إلى مارينا، لتتباين ردود أفعاله ما بين اندهاشٍ تخلله عدم استيعابٍ، وبعض الأسف، وقليل من الاغتباط حتى فرغت، ثم طلبت منه أن يحكي ذلك التاريخ الذي أجهله.

صار يحكي بكلماتٍ شابها الأسى، وبأسلوب القاصين الذين يحكون قصص العظة والحكمة عن أصل الجزيرة، وأنها كانت خاوية من البشر، وأول من قدم إليها هم الوافدون من البحر، الذين أخذوا في التكاثر دون علمٍ بأصلهم، حيث لا تنطبق قاعدة السنوات السبع على أبنائهم كما يقولون في الساحة، فوافد البحر إذا ما تزوج وافدة مثله ينجب ابنًا طبيعيًا معمرًا، في حين يموت أبواه الوافدان بعد سنواتهما السبع، ومع مرور السنين أخذ أولئك الوافدون الأوائل يتجمعون في قطعانٍ بدائية، وينضم لكل قطيعٍ بعض الوافدين الجدد من البحر كلما

وفدوا، ويموت الوافدون القدامى عندما ينهون سبعهم، ويترعرع الأبناء وسط القطعان ما بين قادمين وراحلين.

لكن بعد سنواتٍ ظل الوافدون -الذين يتواتر قدومهم من البحر في كل يومٍ- هم الأكثرية في الجزيرة عن النسل الصغار المولود بها، اكتشفوا قاعدة الاستيلاء على أعمار بعضهم، فإن قام وافدٌ عمره خمسة أعوام في الجزيرة بقتل وافد عمره سنة واحدة فيها؛ يأخذ القاتل عمر المقتول، أي يتبقى له من عمره في الجزيرة ست سنوات، وليس سنتين كما كان قبل القتل، أما لو حدث العكس فلا يتأثر عمر الأصغر بقتله للأكبر، ويظل على ذات عمره، في حين أن قاعدة الاستيلاء لم تنطبق على الأبناء المعمرين، فلو قام وافد بقتل معمر لا يتأثر عمره بذلك.

ومن وقتها أخذ الوافدون الأقدم في قتل الوافدين الجدد من البحر كلما وفدوا بديلًا عن استضافتهم ودمجهم بقطعانهم، بل زاد الأمر لتتقاتل قطعان القدامى على الفوز بالوافدين الجدد أو يتقاتلون مع بعضهم لأجل قاعدة الاستيلاء ومد أعمارهم، للحد الذي كادوا فيه أن يفنوا بعضهم، ويفنوا النسل المولود بأربوس في حروبهم، بينما لا يعلم أحد كم استمرت تلك الحروب البدائية التي كانت تستعر وتتوقف على فترات، إلى أن جاء الملك زهير منذ مئات السنين، والذي اختلفوا حول أصله، ليعقد بعض التحالفات مع عددٍ من القطعان مجمعًا لها، ويحارب الأخرى التي لم تذعن له حتى صار ملكًا على الجميع، ثم أوقف الاقتتال على الوافدين الجدد، ومنع أن يقتل وافد قرينه، بل كان أول من وضع قاعدة أفادت أن من تجاوز عمره السنوات السبع من الوافدين عد دليلًا على قتله لغيره لذا يُقتل، من بعدها صار حاكمًا على قبيلةٍ واحدة تجمعت بها القطعان.

علّمهم الزراعة والاستقرار، ازدهرت الحياة، زاد النسل، وأصبح الوافدون يأتون من البحر لينضموا آمنين إلى تلك القبيلة، منصهرين في حياتها من جديد، يتزاوجون مع بعضهم البعض أو يتم التزاوج بينهم وبين أبناء الوافدين الأقدم الذين ولدوا في الجزيرة وترعرعوا معمرين، حتى بلغوا سن الزواج وصاروا يتزاوجون مع الوافدين أو مع بعضهم البعض أيضًا، لتتربى أجيال الأبناء وتكبر في ذلك المجتمع القبلي المتكافل دون تفرقة، بينما لم يعرف أحد لم استمر عمر زهير فوق السبع سنوات حتى مات كهلًا عجوزًا، قبل أن يأتي ابنه فاتح ابن زهير، الذي تلاه الملك زهير الثاني ابن فاتح، وتلاهم ثالث يُدعى زين ابن زهير الثاني، حين أخذت القرى في عهدهم تتشكل حول ضفتي النهر، وبدأت الحياة تزدهر وتتشعب وتصبح صفة أهله الغالبة هي المعمرون المولودون في أرض آربوس، سواءً في ذلك كانوا مولودين من آباء وأجداد ترعرعوا معمرين أو من وافدين وحسب أو من خليط. ليصبح الوافدون الذين يلقيهم

البحر بعد ذلك قلة قليلة بالنظر إلى أعداد المعمرين التي صارت كبيرة ومستمرة في التزايد، وليتجه المجتمع تلقائيًا أثناء تعاقب أولئك الملوك وتعاقب الأجيال وتكون القرى نحو اتخاذ شكل العائلات، ثم شكل الأسر ذات الأصل المشترك، وظهرت الملكيات الفردية أو الأسرية من مسكن وأرض ومتاع، مبتعدين عن شكل القبيلة المتكافلة، لذا أخذت رغبة المعمرين في الاقتران بالوافدين من البحر تقل حتى انعدمت، فمن ذا الذي يرضى أن يزوج ابنته أو ابنه لمن سيعيش سبعة أعوامٍ فقط ثم يولي، قادمًا من البحر عاريًا لا يملك زادًا ولا متاعًا ولا نسبًا، بل صار زواج المعمرين من الوافدين مثل شبة، أو تقليل من الشأن.

maktabbah.blogspot.com

ومع أواخر سنوات الملك زين، اقتصر زواج الوافدين على بعضهم البعض، حتى جاء من بعده الملك آسرو ابن زين، حالما بدأ أبناء الوافدين الذين يتركونهم دون معيلين أو سكن ثابت أو زاد -بعد أن ينهوا سبعهم- يسببون أرقًا للملكة التي صارت تنمو في ظل مجتمع يتخذ شكل الأسرة، هنا أصدر الملك مرسومًا بمنع تناسلهم على أن يستمر اندماجهم في المجتمع كلما وفدوا، ويلاقون معاملة كريمة، إلا أنهم استمروا في التناسل، لذا غلّظ قوانينه في آخر عمره بإيعاز من كهنته، وأصدر مرسومًا أن من تحمل في بطنها من نساء الوافدات يتم إجهاضها، وأن كل جنين يولد في المملكة لا بد أن يأخذ صكًا بميلاده من أبوين معمرين، لتصير هذه أول لبنة في انحدار معاملة الوافدين ونبذهم وقطع تناسلهم، ثم دارت القرون ليجيء ملوك متلاحقون، وتتكون المدينتان الكبيرتان الشمالية والجنوبية، وتموت الأجيال التي ولدت مباشرة من تزاوج الوافدين الأوائل وما بعدها وما بعدهم من أجيال، وتغفلهم ذاكرة التاريخ، ويتناساهم المعمرون حكامًا وشعبًا، بل وينسون أن أصل الحياة هم أولئك الوافدون الأوائل، حتى لا يوخز ضمائرهم الظلم المتنامي لوافدي البحر الذي لم يتوقف يومًا عن الإتيان بهم.

وذلك بأن ادّعى حكام آربوس وصدقهم أهلها، أن أجدادهم القدامى هم المعمرون الأوائل، قاطعين نسبتهم إلى الوافدين نهائيًا، كأنهم كانوا في هذه الأرض ابتداءً، وأن الملك زهير الأول موحد المملكة كان من أولئك المعمرين الأوائل، وحارب من أجل تجميعهم، بل زادوا على ذلك بأن زعموا أن أبناء الوافدين -إذا ما سمح لهم بالإنجاب- لا يعيشون سوى سبعة أعوام مثل آبائهم، وأن أصل الوافدين من البحر بينما لا يعرفون أصلهم. علّموا ذلك أبناءهم في دور التعليم، ونقشوه في مخطوطات التاريخ التي ما كتبت إلا بعد عدة قرون، لتترسخ تلك الأكاذيب بالتوثيق، وتنحدر معاملة الوافدين أكثر وأكثر وينعدم اندماجهم بالمجتمع إلى أن صاروا مثل عبيد لدى المملكة يعملون نظير طعامهم وإقامتهم.

في تلك الأوقات ومنذ قاعدة إجهاض الوافدات، ومن بعدها حين أخذت المعاملة تزداد

سوءًا، التجأ بعض الوافدين إلى الهرب نحو هذه السلسلة الجبلية، مكونين مجتمعًا موازيًا منعزلًا في جماعاتٍ بدائية كتلك التي بدأت بها الحياة على أرض آربوس، لكن دون تقاتلٍ على العمر، وصار يلحق بهم من يسمع عنهم من الوافدين الذين يستقر بهم الحال في آربوس بعد قدومهم من البحر ويستطيعون الهرب، أو يصلهم من البحر مباشرةً قبل أن يقع في أيدي السلطة الموحدة القائمة وقتها.

لم يتعقبهم أحد لدى الجبال في بادئ الأمر، وأخذوا يتناسلون دون رغبةٍ في العودة هم وأبناؤهم وأجيالهم المتعاقبات خشية قاعدة السنوات السبع، لأن من لا يملك صك المعمر الذي يُمنح بالمملكة عند مولد الجنين ويثبت أنه مولود من أبوين معمرين يعتبرونه وافدًا من البحر مهما ادعى غير ذلك، وتطبق عليه القاعدة منذ أن تطأ قدماه المملكة.

maktabbah.blogspot.com

إلى أن حدثت خيانة الحوريات، حيث اعتاد الملوك الأوائل قبل الانقسام أن يزوروهن مرة كل عام عند بقعتهن التي لم يعرف مكانها سوى الملوك في عيدٍ أسموه عيد الميلاد، كان تقليدًا متبعًا منذ زهير الأول الذي لم يُعرف أيضًا سر علاقته بهن، إلى أن جاء ملك يُدعى زاجر، غدر بالحوريات لأسباب لم تُعرف، إلى جانب طمعه في تلك اللآلئ التي تستقر بمفرق رأسهن، فدبر لهن مكيدة، وأسر منهن الكثيرات، ليموت اللائي انتزع منهن لؤلؤتهن، ويحتفظ بالباقيات، ثم جاء ابناه من بعده واللذان تنازعا على الحكم واللآلئ والحوريات المحبوسة في الأحواض، فانقسمت آربوس وبدأت الحرب من وقتها التي ما تكاد تخمد نارها إلا وتستعر من جديد مخلفة شقاء عيشٍ بعد نعيمٍ انكب فوق أهلها، وجشعًا فيما بيد الآخر بين حكامهم، وليبتدر أحد ملوك آربوس الشمالية -بعد الانقسام بسنوات طوال- قوانين جديدة بشأن الوافدين بعد أن حزف في تاريخ الجزيرة تحريفًا جديدًا بدا هينًا للغاية إذا ما قورن بما سبق.

لكن أثره كان قاسيًا، فبعد أن استقر في أذهان أهل آربوس أنهم أبناء المعمرين وحسب، وأن الوافدين يأتون من البحر ولا يسمح لهم بالتكاثر لأن أبناءهم تنطبق عليهم قاعدة السنوات السبع، وأن قاطني سلسلة الجبال الغربية هم مجرد وافدين من البحر أيضًا يلتجئون إليها ولا يتوقفون عن اجتذاب الوافدين الجدد؛ ذكروا في تحريفهم أن الحرب التي قامت قديمًا كانت بين المعمرين والوافدين، وانتصر فيها الملك زهير للمعمرين مثلما يُحكى كذبًا في الساحة، ليضع مبرزًا لتنامي بغض الوافدين، ولمنازلات الساحة التي يلهي بها شعبه، إلى جانب سائر تلك القوانين المطبقة بخصوصها من قتل الوافدين بتلك الطرق وتجريم اللجوء لسلسلة الجبال الغربية، في حين كان يعرف التاريخ الحقيقي جيدًا هو ومستشاروه وكبار كهنته وقائد جنده، حيث يتوارثونها في تلك الطبقة، وليحذو حذوه ملك آربوس

الجنوبية وقتها.

ومع تواصل الحروب وتعاقب الملوك والسنون، ومع احتياجهم لمزيدٍ من الوافدين بكلتا المملكتين، واستنادًا إلى المراسيم التي حزمت اللجوء إلى الجبال؛ وضعوا مراقبات صارمة للبحر حتى لا يفلت وافد نحو الجبال، وهذا لم يكن أمرًا ذا شأن بالنسبة لقاطني الجبال من الوافدين، حيث كانوا قد أنشؤوا مجتمعًا قبليًا في جماعاتٍ تعاقبت عليه عدة أجيال، إلا أن المملكتين لم يكتفيا بالاستئثار بوافدين البحر، بل بدأوا يغزون الجبال مرة بعد مرة بحثًا عن القاطنين فيها، وسواء كنت مولودًا في تلك الجبال من آباء وأجداد قطنوها على مدار قرون لكن دون صك معمر أو كنت وافدًا من البحر؛ أنت في أنظارهم مجرد وافدٍ طالما لا تحمل صك معمر، وتطبق عليك أحكام الوافدين، إلا أنهم بعدما أسروا دفعات متتاليات من الجبال، وتحدث الأبناء الذين ترعرعوا فيها محاولين أن ينشروا خبر أنهم مولودون في جبال آربوس الغربية، وتخطوا السبع سنوات بها، بل وآباؤهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم مولودون بها وأنهم ليسوا وافدي بحر، وعلى الرغم من عدم الاعتداد بكلامهم من قِبل الرعية أو الحاكمين في المملكتين ومنعًا للغط، صاروا كلما أسروا دفعة من الجبال هنا يفقدونهم الذاكرة حين دخولهم أي من المملكتين محتفظين بسر هذا الأمر، ليوعزوا إليهم أنهم مجرد وافدين من البحر، ولتبقى الحقيقة هنا في مجتمع الجبال وحسب وعند الملوك ومستشاريهم، بينما لا يعرفها أو بالأحرى ينكرها أهل المملكتين، لأنها حقيقة دون قوة لنشرها، حقيقة لا يتقبلها الحكام ولا الرعية ليظلوا محتفظين بفوقيتهم التي اكتسبوها، وبلهوهم وعبيدهم وجواريهم، فلا يجرؤ أي من ساكني الجبال أن يذهب إلى أي من المملكتين دون أن يحوز صك معمر، ومن يأسرونه من الجبال إلى المملكتين يفقد ذاكرته، بينما لا يقدر على معاودة الهروب بعد الأسر أحد، ولم تحدث سوى بضع مرة أن يهرب ابن الجبال عائدًا إليها، ليكتشفوا أنه عاد ليس لأنه يدرك أنه من أهلها بل هربًا من الظلم وحسب، وليدرك أهل الجبال عندها أن كل من يهرب بعد أن يؤسر بأمد يكون فاقدًا لذاكرته، ويلاحظون مع مرور الزمن أن حكام آربوس لا يتعقدون إفناء قاطني الجبال في غزواتهم، بل يتركونهم كمفرخ لمن يرونهم وافدين عبيد، ففي هجماتهم إن أمسكوا بقبيلة كاملة تعدادها ألف إنسان فإنهم يأخذون البعض ويتركون البقية للتناسل، ذلك بالإضافة لأسرهم كل من يلفظه البحر، الذي يلفظ الكثير في كل عام، ونادرًا ما يتركوا أيًا منهم يصل إلى الجبال منذ بداية عقود التعقب.

لبثت مشدوهًا فاغر الفاه طوال حديثه الذي ما قاطعته فيه ولو بأنفاسي، حتى بعدما انتهى بقيت للحظاتٍ على نفس ذهولي أستجمع شتات أفكاري وأعيد ترتيبها، فلم أتخيل منذ وطئت قدماي تلك الأرض أن تنقلب الحقائق التي عرفتها بهذا القدر، إلى أن ابتلعت ريقي وسألته:

«وما سر الموت بعد السنوات السبع ولآلئ الميلاد وفقدان الذاكرة وما يدعى العوالق؟».

ابتسم متهالكًا.

- تلك أمور لا يعرفها سوى الحوريات، ومن الجائز أن يعرف بعضها الملك وحاشيته وحدهم.

- إذًا لمَ لمْ تتوحد جماعاتكم ليصنعوا قوة تحميهم؟

زالت ابتسامته مشيحًا بنظره نحو جماعته التي تقطن الكهف الكبير.

- ومن قال أننا لم نحاول؟

أعقب ذلك بأن صمت للحظات لبث فيها شاردًا نحو جماعته، ثم عاود بنظره ناحيتي مستكملًا: **«في أول الأمر عاش أجدادنا في جماعات في قمم الجبال، وبعدما بدأت المطاردات والتعقب، تجمع الكثير منهم مشيدين لقريةٍ ذات أسوارٍ بين تضاريس القمم أثناء حرب بين المملكتين، إلا أنهما اجتمعا عليها في حربٍ واحدة بعدما انتهت حربهما، دمروها وأنزلوا العقاب الصارم بأجدادنا فوق كل ما رأيته في الساحة، منذرين من محاولة التجمع مرة أخرى، ليذعنوا متفرقين من جديد، ويلتجئون إلى الكهوف في بطن سلسلة الجبال مع شدة وطأة المطاردات بعد هدم القريةِ، وبديلًا عن قريةٍ تجمعهم في الأعلى؛ نحتوا كثيرًا من تلك الأنفاق التي تراها لتصل بين قبائلهم والبحر أو بين بعض القبائل القريبة من بعضها، إلى جانب الأنفاق والكهوف التي كانت موجودة بطبيعة هذه الجبال، لتصبح القمم للصيد وجمع الطعام والتقاط الأنفاس، بينما الإقامة الدائمة بين الكهوف والأنفاق».**

- وما الفائدة من ذلك إذا ما لبثوا يواصلون تعقبكم؟

- الأمر صار أشق عليهم، وصرنا أكثر قدرة على التواري.

- لكنكم بذلك أقرب إلى الموت من الحياة.

ابتسم من جديد لكنها بدت ابتسامة ساخرة.

- لا تثر مصدقًا أمر تلك النبوءة، فهي بقايا أمل من أجل استمرار الحياة يتشبث به بعض الوافدين، سواءً من بيننا هنا أو هناك في المملكتين.

عقدت حاجبي مستفهمًا لإطلاقه لفظ الوافدين على قاطني الجبال حين بدا تفهمه

لاندهاشي فعاجلني:

«بلى نحن وافدون، فقد استسلمنا إلى هذه التسمية لأننا نعلم أننا أبناء الوافدين، أما هم فينكرون».

أطرقت للحظاتٍ بعد جملته، بينما تخبطتني الحيرة بخصوص ذلك الاستسلام بشأن التسمية، وهل يعد خنوعًا كسائر استسلامهم الذي اتضح لي، أم يعد صدقًا وشرفًا، قبل أن أعود للحديث عن النبوءة التي لم تختلف قناعتي بشأنها كثيرًا عما قال.

- إذًا أمر النبوءة مجرد هراء؟

- ما أنا على يقينٍ منه، أنه على الرغم من إظهار الملك وحاشيته رغبتهم في وأد أخبارها متوعدين من يذكرها بالعقاب، إلا أنهم يمعنون في بقاء تداولها عبر السنين، وهذا يثير ريبتي عن حقيقتها.

قاطعت حديثه: «**يتركونها حتى تبقى مخدرًا للمؤمنين بها، ليتحملوا القهر على أمل بزوغ المخلّص، فالمخدر مطلوب لعامة الخلق، وللمقهورين أيضًا**».

أومأ برأسه موافقًا وأضاف:

«لكن ما إن يظهر مدعٍ لها سيقتله جند آربوس موعزين بنفيها حتى لا يثير القلاقل، ويتجمع حوله المؤمنون الأقوياء، لكنهم سيسمحون لها بالعودة فيما بعد».

- أليس لها أصل أو مصدر؟

- كاهن تمرد على قواعد المملكة الشمالية بعد الانقسام الذي تلاه الحرب، يبدو أنه كان ملمًا بالتاريخ الحقيقي، فتأمل أن يأتي من هو مثل زهير الأول ويوحد الخلق دون أن يكشف ستر باقي الأسرار، هذا قبل أن يعدم بالساحة، لتنتشر من بعده نبوءته لأنها وجدت عقولًا تتشبث بها، وهي من وجهة نظري مجرد أملٍ ليس إلا.

لم يعد لدي ما أسأله، بينما أخذ يتثاءب بعد جوابه الأخير ليلمّح بأنه لم يعد قادرًا على المواصلة، لذا استأذنته في الخروج نحو الكهف الذي بدا خافتًا على ضوء مشاعل قليلة تبعثرت لدى جوانبه، في حين هدأ دبيب الحركة وخشعت الأصوات. تجاوزته في خطواتٍ وئيدة بين الخيام إلى أن بلغت النفق المار تحت الأخدود خارجه، جلست مسندًا ظهري إلى جداره مناظرًا السماء التي لم تُظهر نجومها، بينما أخذ يدور في ذهني ما حكى، حيث أزال كثيرًا من الغشاوة عن عيني، إلا أنه أظهر استسلامًا تامًا على الرغم من أعدادهم التي بدت كبيرة في قبيلة واحدة، ومن يدري عدد القبائل الأخرى في مثل هذه الكهوف الضخمة، لكني

لم أفقد أملي، لا سيّما وأنني لم أفقد ورقتي الأخيرة؛ البارود الذي لم يهتم لأمره ذلك الراعي لأنه لم يتخيل مدى قوته إن ظهر في عالمهم. يبقى من بعده أن يلتفوا من حولي لتبني قربة ذات أسوار، ثم نقطع دابر من يقترب وتبقى لنا منعة وقوة، لذا عقدت أمري على أن أخطو حثيثًا في الناحيتين أبحث عن البارود، بينما أنصهر في هذه القبيلة محاولًا معرفة أخبار الأخريات.

لكن في اليوم التالي استيقظنا على صوت صراخٍ عند مدخل الكهف بأن مراقبي الجبال لمحوا فرقة كبيرة من جنود آربوس الشمالية متجهين نحوه، بما يوحي أنها حملة جديدة حين عم الهرج بينهم حتى قطعه صوت الراعي صائحًا: **«لا تفزعوا، لا زال أمامهم يوم على الأقل ليبلغوا مكاننا إن بلغوه، وسيبقى في الكهف من عليهم البقاء هذه المرة، بينما سيتحرك البقية متفرقين قبل الغروب كما أسلفت من قبل».**

maktabbah.blogspot.com

عندها نظر نحوي، لأدرك أنه تيقن مما تيقنت منه، هم قادمون في إثري، فهل ينتوي بي غدرًا ذلك الراعي؟ ليجيب عن سؤالي سريعًا حين صاح من جديد:

«إن أمسكوا منكم أحدًا فلا يخبر عن ذلك الوافد الذي جاءنا منذ أيام، نحن لا نشي بإخواننا».

لم يطمئن قلبي لحديثه، فمن ذا الذي يضمن لي عدم وجود ضعاف نفوسٍ بينهم، لذا لبثت مشتتًا حتى حل موعد التحرك الذي جاءتني فيه تلك الفتاة التي اصطحبتني رفقة الصبيين. ابتسمت متفرسة وجهي دون استحياءٍ بعينيها الزرقاوين اللتين بدتا كموج البحر بالأصيل، بينما حملت على ظهرها بؤجة زادها.

«ألم يحدد الراعي مرافقيك؟».

زويت شفتيّ بمعنى الحيرة، لتعاجلني قبل أن أرد:

«تعال برفقتنا أنا وإخوتي».

اجتذبتني من يدي وصرنا نمشي في نفس النفق الذي جئنا منه أول مرة على ضوء مشعل حملته في يدها اليمنى، بينما تبعنا أخواها الصبيين لأكتشف على ذلك الضوء أن هناك بعض نفق يتفرع عن ممرنا بين الفينة والأخرى عن يمينٍ أو يسار. انحرفنا في أحدهم على اليسار بعد طول مسير، لنكمل فيه طريقنا لمسافةٍ كبيرة، حالما شعرت بصعوده لأعلى، إلى أن توقفت الفتاة وأخذت تتحسس جداره الأيمن لبرهة، قبل أن تشير لأخويها اللذين عاوناها في إزاحة صخرة برزت مكانها كوة دائرية، بالكاد يمكن للفرد أن يعبر من خلالها، حيث اقترب قطرها من الذراعين، في حين ربض خلفها كهف صغير أطل على البحر من أعلى لدى

ناحيته الأخرى. بدا أنه كهف في منتصف ارتفاع الجبل، ولجناه ثم أخذوا في اجتذاب الصخرة حتى سدوا كوّته.

فرشوا لنا أربعة فرش متجاورات على الأرض بعرض الكهف، بينما اتجهتُ نحو مطله على البحر عند الغروب، ناظرًا إلى سفح الجبل لأرى أننا فوق إحدى البقاع التي تضرب فيها الأمواج السفوح، حين جاءت إلى جواري بعدما أزالت غطاء رأسها:

«لا تخشَ أمرهم، هذا كهفي الذي لم يصلوه من قبل».

بدت فاتنة شقراء ذات قسمات دقيقة وندبة استقرت فوق حاجبها الأيسر زادتها جمالًا، في حين ملكت قوامًا كالظباء. أشحت بنظري نحو البحر الهادر منصتًا لتلاطم أمواجه، لتبادرني من جديد:

«ما قصتك؟ لا يدوم سر في القبيلة».

تنهدت بزفيرٍ ثقيل.

- لم أعد أعلم لي حكاية.
- هل كانت لك زوجة؟
- لم تسألين؟
- يبدو في عينيك جليًا.
- بل هي حبيبة.
- وأين ذهبت؟
- محبوسة خلف ألف ظلمة.
- لكن حبها ينبض في قلبك.
- وسيظل.

صمتنا لبرهةٍ ثم عاودت:

«أتمنى أن أرى ما يطل من عينيك يومًا لدى عينيّ من أقع في هواه!».

ابتسمت دون رد، فاستأنفت:

«ما اسمها؟».

ترددت للحظات.

- إسراء.

- اسم غريب عن أرضنا.

أومأت بمعنى الموافقة.

- وما اسمك؟

- يوسف.

- أنا ميرا.

تركتني بعدها لتعد طعامًا ما إن هيأته حتى نادوني حين غابت الشمس وأشعلوا مشعلًا علقوه في أحد جانبي الكوخ. جلسنا في دائرةٍ حول سمكٍ مدخن، بعض أوراق الشجر التي استسغت طعمها، وبضع ثمرة مثل البصل. ما إن فرغنا حتى عدت نحو مشهد البحر متدثرًا بغطاءٍ وضعوه فوق ما أوعزوا إلي بأنه فراشي، بينما لم يتوقف الصبيان عن مناكفاتهما لبعضهما، في حين أتتني ميرا من جديد متدثرة بغطائها، وجلست إلى جواري ناظرة نحوي.

- فقدنا أبي وأمي وبعضًا من إخوتي في حملاتٍ متلاحقات منذ سنواتٍ خلت حين كنا صغارًا، بالكاد أذكر شكليهما لأنهم لا يرسمون صورًا هنا إلا بموافقة الرعاة حتى لا تتأجج نار الفقد بعد الرحيل.

اكتسى وجهي الذي أملته نحوها بالأسف.

- هل جاوزوا السنوات السبع؟

أومأت بمعنى الموافقة بعينين امتلأتا بالأسى، فلم أجد ما أقول لمواساتها، لذا غيرت دفة الحديث عائدًا بنظري نحو البحر:

«لم تتركون بعضًا منكم في الكهف الكبير؟».

ناظرت البحر مثلي، وأردفت:

«تلك هي المنحة التي اعتدنا دفعها، فإن توارى الجميع سيواصلون التفتيش بين ممرات الجبل ولدى القمم محولين حياتنا إلى جحيم، ولن نستطيع التواري في تلك الكهوف الصغيرة لأمدٍ طويل قبل أن نخرج منها هائمين جائعين».

تنهدت بزفيرٍ ثقيل وشدت أطراف غطائها فوق كتفيها، ثم واصلت: **«وعندها سيكيلون**

العذاب لمن يجدوه منا نظير توارينا قبل أن ينتقوا قسمتهم وفقًا لهواهم، أما إن بقيَ من يبقى وأخذوا مطلبهم على عجلٍ ممن ينتقيهم الراعي للبقاء، فإنهم يرحلون دون أذى للهاربين أو المأسورين، لا سيّما أن الراعي يترك من تزوجوا وأنجبوا من قبل حتى يستمر نسلنا، وهذا ما تسير عليه سائر القبائل».

ذكّرني حديثها ببعض الحكايات عن حملات الاستعباد التي لاقتها القبائل الإفريقية لقرونٍ طويلة متمنيًا أن يقاوموا في الأخير مثلما قاوم أولئك فيما بعد، بينما واصلت حديثها بعد برهةٍ من السكوت قطعتها بابتسامة أملٍ لاحت على شفتيها:

- لكنهم يتركون الحوامل وصغار السن والعجزة الذين أفلتوا طوال عمرهم من تلك الملاحقات، بل ولا يأخذون كل الرجال والنساء البالغين أيضًا، إلى جانب أن من يذهب إلى أيٍّ من المملكتين يعيش حياةً تفوق حياتنا ولا يعيبها سوى قاعدة السنوات السبع التي يتغلب عليها البعض تبعًا للقواعد.

ران علينا الصمت بعدها حين دار في ذهني أن المملكتين لو أخذا الجميع فلن يجدا بعدها من يأخذانه، بل من الاكيد أنهما بطريقةٍ فطرية يأسران في كل عامٍ عددًا لا يمنع من التزايد المضطرد لأولئك البؤساء من خلال التزاوج والإنجاب، لأن بزيادتهم يزيد إنتاجهم من العبيد خلال الحقبات المتلاحقة. هو أمر أشبه لطريقة تربية الأرانب التي تعشق التواري في الجحور هي الأخرى، فلا وفاة طبيعية هنا، إنما انتقاء للعبودية، ثم الذبح وفقًا لقاعدة السنوات السبع، بينما لا يترك ليشيخ سوى فئة نادرة، ليبقى هناك شيء من الأمل لأن يكتمل هروب البعض.

عدت بعدها لسؤالها: «**إذًا متى تصعدون إلى قمم تلك الجبال؟**».

ابتسمت.

- كثيرًا ما نصعد في غير أوقات وجودهم، نصطاد ونتنزه ونبيت في بعض الأحيان. قسم كبير من حياتنا في الأعلى، لكن الإقامة الدائمة بالكهوف، لأنهم ما عادوا يسمحون لنا أن نبني حياة في الأعلى.

- ولا في الأسفل!

رددتُ آسفًا، ثم أعقبت ردي بأن قلت:

«لا أريد العودة إلى القبيلة مرة أخرى، فما إن تنتهي حملتهم التي ستطول هذه المرة، أبتغي أن ترشديني إلى قبيلةٍ أخرى».

- ولم؟

- لأن الحملات ستتواصل وتتقارب بحثًا عن ذلك الوافد الذي جاء مصابًا يرتدي زي الجنود، وسيعرف أهل قبيلتكم أنني المقصود، لكني لو رحلت إلى قبيلةٍ أخرى بعدما ارتديت تلك الثياب الجلدية دون إصابة، سأخبرهم أنني وافد من البحر أو من أي قبيلة أخرى فقدت قبيلتي أو تهت عنها.

- لا تتوجس، أفراد القبيلة ذاتهم لا يعرفون هذا الكهف، وما إن ينهوا حملتهم سأرافقك نحو قبيلة أخرى، لكن ما سر استماتتهم في تعقبك؟

- لأنني صاحب النبوءة.

اتسعت حدقتاها.

- صدقًا؟

- لم أعد أظنه شرفًا حتى أدّعيه.

- لم تقول ذلك؟

- لأن الراعي ثبط عزيمتي بشأنها.

- طالما كان الرعاة قليلي العزم مستندين إلى الوداعة والاستسلام، لكن الشباب سيبتهجون بتلك البشرى.

- أرجو أن يصدق أملك.

أخذنا بعدها بعض حديثٍ عن النبوءة لم تمنحني فيه جديد حين رقد الصبيان، ثم ما لبثا أن غطا في نومهما لأشعر بها تقترب رويدًا رويدًا إلى أن التصقت بجانبي الأيسر، بينما تكلمت بصوتٍ هامس: «**يقولون أنني أبغض الرجال وقد صدقوا، حتى رأيتك**».

«**قلبي موصد يا ميرا**».

نظرت نحوي بينما بقيتُ ناظرًا إلى البحر المظلم منصتًا لتلاطم أمواجه وأردفت: «**سأحاول أن أضع به لبنة**».

أملت وجهي ناظرًا نحو عينيها:

«**كم تنبضين بالحياة والجمال، وكم أنا مدين لكِ، لكن لم يبقَ في قلبي سوى نار الافتقاد التي تحرق ما سواها**».

أعقبت ذلك بأن قبلتها من مفرق رأسها قبل أن أقوم واقفًا:

«سأخلد إلى نومي».

مر يومان دون جديدٍ سوى أحاديثنا المتكررة عن حياتها وحياتي، ليزداد بريق نظراتها نحوي كلما عرفت أكثر عن أمري حتى اليوم الثالث، استفقت في صباحه على شجارات الصبيين التي لا تنقطع حالما أخذت ميرا تعد طعامًا جافًا كعادتنا، ما إن فرغنا منه حتى أمرت أحد الصبيين بمغادرة كهفنا لتفقد أحوال القبيلة والاستفسار عن حملة الجنود، حيث خرج ولم يعاود حتى المساء، بينما جلست ميرا تعض أصابع الترقب. لم تنم في ليلتها حتى أشرق الصباح، فبعثت أخاه في إثره لينقضي النهار دون عودته هو الآخر، لتخبرني بوجهٍ اكتسى بالحزن والتشتت أن هناك أمرًا غريبًا بشأن هذه الحملة، حيث لم تظل أي من حملاتهم طوال سنينٍ خلت لمثل هذه المدة، وفي الصباح انطلقت في إثرهم بعد أن أوعزت لي أني لو أحسست بتحرك الصخرة دون طرقاتٍ تسبقها فعليّ أن أقفز إلى البحر ولا أخشى صخورًا أو شعابًا لأنها تعرف تلك البقعة جيدًا.

بقيت مترقبًا عودتها التي لم تتأخر كثيرًا، حيث طرقت ثلاث طرقات، ثم أزاحت الصخرة، ولم تغلقها من خلفها، أخذت تجمع بعض أغراضنا في تعجلٍ قبل أن تقول بوجهٍ ممتقع:

«لا بُدَّ أن نرحل».

- ألم تخبريني أن هذا الكهف لا يعلمه أيًا من أهل القبيلة؟

أجابت بينما تواصل جمع بعض الأغراض:

«أخواي صبية صغار وقد أمسكوا بهما، ولا أعلم من رآك حين رافقتنا، إن أمسكوا بأيٍّ ممن رأوك بصحبتنا من الممكن أن يشي بأخويّ، وحينها قد يجبرونهما على الإفصاح عن مكاننا، يبدو أنهم متيقنين من قدومك نحو قبيلتنا، لذا هم باقون فيها دون تحرك وبأعدادٍ كبيرة».

- وهل سيأخذون أخويكِ؟

- لا أظن، فقد أمسكوا بالكثير من أهل القبيلة ممن هم أكبر وأشد، كل خشيتي أن ينزلوا بأهل القبيلة عقابًا نظير إيوائك.

- لا تقلقي، سيتنصل الراعي من أمري موعزًا أنه حسبني منهم.

- أتعشم ذلك.

فرغت من جمع الأغراض قبل أن نخرج من الكهف ونغلق كوته بالصخرة، ثم انطلقنا في اتجاهٍ عكس الذي جئنا منه على نور مشعلنا، عندها شعرت أن قدمي تحسنت بقدرٍ كبير، ولما أحست ميرا ذلك سألتني ما إذا كنت أستطيع الركض؛ أجبتها بالموافقة، لذا أخذنا نهرول بين الأنفاق والممرات المتقاطعة. بدا أنها تعرفها جيدًا، حيث لم تتردد في اتخاذ قرارٍ بشأن الاتجاهات، لكني حين سألتها عن ذلك أجابت أنها تريد الابتعاد بأكبر قدرٍ وبأسرع وقت، إلا أن هذا لم يصب في صالحنا، لا سيما وقد أحسستُ بعد برهةٍ أننا ندور في دائرةٍ لم نفارقها، حتى توقفنا في تقاطعٍ تفرع منه ممران اعتقدت أننا مررنا خلاله من قبل، أخبرتها بذلك، لترد:

«هل أنت متيقن مما تقول؟».

- لا أعلم، لكن يغلب على ظني أننا مررنا بهذا المكان.

بقينا واقفين للحظاتٍ حين لمحنا أنوار مشاعل تقترب من خلفنا. همست ميرا: «لا بدّ أن نعاود الركض، هل تذكر الممر الذي سلكناه حتى نخلفه؟».

أشرت بيدي المرتجفة نحو أحدهما قائلًا:

«هذا سلكناه، لنركض عبر ذاك».

ابتدرنا مسيرنا بخطواتٍ متأنية، إلى أن سمعنا صريخًا:

«هناك متسللين».

ألقت ميرا مشعلها حتى لا يقتفوا أثره، وأخذنا نركض في ظلامٍ لا ندرك آخره مستبقين متعقبينا بمسافةٍ كافية، لكنها بدت كفيلة لأن يلفنا بصيص من أنوارهم، أخذوا يصرخون كي نتوقف بينما ينتفض قلبي جزعًا، إلا أن طريقنا هذه المرة بدا مغايرًا، حيث اختلفت منحنياته وتقاطعاته عن سائر ما سبق، قبل أن يظهر نور أمامنا أدركنا حين بلغناه أن دربنا يقبع تحت أخدودٍ كبير كشف السماء فوقنا. عبرناه طوليًا لنجد في آخره امتداد نفقنا، من بعدها صرت أشعر باقترابهم في بعض اللحظات، وفي أوقاتٍ أخرى أظنهم فقدوا أثرنا في هذه المتاهة التي أخذ يغمرها الضوء في بعض الأماكن ثم يخفت في أخرى وينعدم في غيرها على إثر الأخاديد والجزف، لكنهم كانوا لا يلبثون طويلًا في تيههم ثم يعاودون تعقبنا. أخشى ما خشيته أن أجدهم في وجهي بعد أحد المرات التي ينقطع فيها صياحهم، إلى أن قطع نفقنا جرف عرضي حاد تخلل باطن الجبل، توقفنا عنده لاهثين من فرط الجزع والركض حين بدا عرضه مقاربًا لأربعة أمتار، في حين امتد طوله حتى نورا عن جانبيه، وربض على ناحيته الأخرى تكملة نفقنا.

حرب بالميري

لم تملك ميرا وقتًا للتردد، ألقت أغراضنا، ثم تراجعت لخطواتٍ، بعدها أخذت تركض إلى أن قفزت نحو الناحية الأخرى برشاقة فهدٍ شاب، حالما بدأنا نلتقط تصايح الجنود من جديد، لتعاجلني صارخة بعدما ثبتت يدها اليسرى في إحدى بروزات الصخور:

«اقفز ولا تخف، قبل أن تتراءى لهم وتصبك سهامهم».

بقيتُ مترددًا للحظاتٍ إلا أن الأصوات أخذت تزداد اقترابًا، لذا تراجعت لخطواتٍ قبل أن أعدو قافزًا نحو الجانب الآخر. بالكاد بلغت أطراف قدمي حافته حين التقطتني يدها القوية وجذبتني إليها، لنواصل ركضنا.

ما إن انقطعت أصواتهم لفترةٍ طويلة -بعد كثيرٍ من الركض خلال نفقنا- حتى تهالكنا إلى الأرض لاهثين في أحد الشقوق الجانبية المظلمة، لأشعر بعد لحظاتٍ بتشنجات جسدها إلى جواري. التفتُ فرأيت على بصيص النور الخافت دمعاتها تتقاطر من عينيها غزيرة، وعلا نحيبها حين دفنت رأسها في صدري. أدركت أنها تبكي أخويها، فربتُ على رأسها قائلًا: **«لن يصيبهما أذى».**

ردت بصوتٍ متهدج: **«أنا لا أبكي أذاهما وحسب، أنا أبكي حالنا، ما عدنا نعرف للقرابة أو الصلات طعمًا إلا طعم الافتقاد، حتى وإن بقيا في هذه المرة؛ سيأتي يوم ويرحلان أو أرحل. أتدري؟ أظن أن ما حزك في داخلي الحزن واللوعة هي حكاياتك عن أناسٍ أحرار خارج هذه الأرض الظالمة، ليس بهم وافدين ولا قاعدة السنوات السبع ولا كل تلك الحسرات».**

ابتسمتُ آسفًا: **«لأني لم أخبرك عن مهاجرين يموتون في البحر بحثًا عن حياة، ولاجئين يعيشون على حدود الدول هاربين من الحروب، وأقليات مستضعفة في كل بقعةٍ من العالم، والأنكى من ذلك ملايين الأطفال يموتون جوعًا في حين تُلقى أطنان الطعام كقمامة. لم ينتهِ البؤس في عالمنا، فحياتنا تشبه تلك الحياة، بل أقسى في بعض الأحيان. هم لا يطبقون قاعدة السنوات السبع عندنا ليشعر البعض بالفوقية، ولكن هناك ما يدعى خط الفقر، ومستضعفينا يعيشون تحت خط الحياة وليس خط الفقر وحسب، فما الداعي إذًا لقتلهم إن كانوا أمواتًا في دنيانا».**

كفكفت دمعاتها ورفعت رأسها:

«هل كنت من الوافدين هناك؟».

ابتسمتُ.

- بل كنت قاضا، أحكي القصص والحكايات.

- ليس لدينا قاصون هنا سوى الرعاة.

- إذن ينبغي أن أصير راعيًا.

علت شفتيها ابتسامة.

- ستصير.

- عليكِ العودة إلى إخوتك وسأكمل هذا الدرب وحدي حتى أبلغ القبائل التي تقع في نطاق آربوس الجنوبية. أظن أن هجمات الشمالية لن تمتد إلى هناك، وإن امتدت ستكون على عجل.

- هل الجنوبية لا تعلم بأمرك؟

أشرت بالنفي لتعاجلني: «**إذن سأرافقك**».

- وأخواكِ؟

- يبدو أن حملاتهم لن تتوقف، وأنا استمت في الهرب لفترةٍ طويلة، لو عرفوا بصحبتنا سيمعنون في مطاردتي حتى يجدوني، أما أخواي فأقصى ما سيتخذون بشأنهما هو إجبارهما على الإفصاح عن كهفي دون أن يأخذوهما، هم يبتغون من هم أصلب عودًا منهما، وإن أرادوا لن أستطيع منعهم، ولن تستطيع بلوغ مقصدك من دوني.

- وتعودين إليهم بعد ما تهدأ وطأة الحملات؟!

- هذا ما أنتويه.

أخذنا نتحرك مجددًا ناحية الجنوب عبر أنفاق وممرات باطن الجبال، متجاوزين لعدة قبائل متتاليات، لم يختلف حالهم عن قبيلة ميرا، إلا أننا لم نستقر في أيٍ منها، والتجأنا لاعتزالهم والبقاء وحدنا متنقلين، حيث توالت الحملات لثلاثة شهور؛ باحثين عن زوجٍ من الوافدين، متوغلين في تلك المنطقة التابعة لآربوس الجنوبية على استحياء.

كادوا يمسكون بنا أكثر من مرة، لكننا لبثنا ننجو بفضل ذكاء ميرا وسرعتها، بل وتحسسها الخطر بغريزة كغريزة الطيور، بينما بلغت أثناء هروبنا المتكرر بضعة كهوفٍ قبع في أرضيتها الكثير من ملح الصخر. لم أستطع جمع أي منه، لا سيما مع خفة حملنا، تكرر فرارنا، صعودنا للقمم في أحيان، ونزولنا للأنفاق في أخرى، إلى أن حل شيء من الفرج بعد طول معاناة،

حين حدث اشتباك بين قوة من آربوس الشمالية، وأخرى تابعة لجارتها الجنوبية على مقربة من بحيرة بالميري في أرض الأخيرة. اشتعلت على إثره الحرب في أقصى الشرق عندما حاولت آربوس الجنوبية التوغل في أرض الشمالية ردًا على توغلهم في أرضها عند الجبال، ثم استعرت في أكثر من موضعٍ آخر. عرفنا ذلك فيما بعد من إحدى القبائل الواقعة في إطار الجنوب بعدما توقفت الحملات والتجأنا إليها.

في بداية ظهورنا لبثت متوجسًا من عودة الحملات، وأن يشي بنا أي من أهلها، لكن ميرا أخبرتني مرارًا وتكرارًا أن الحرب ستظل سجالًا لأمد ما بين كرٍ وفرٍ واستيلاءٍ متبادل ثم تراجع إلى أن يهمدا وتخور قواهما، بعدها يمكثان لفترةٍ منشغلين في معالجة آثار تلك المعارك.

ذلك قبل أن تأتيني في صبيحة أحد الأيام بعدما استقرت معيشتنا لدى كوخ صغير في تلك القبيلة كزوجين أمامهم، ثم تحادثني آسفة:

«علي أن أرحل».

لم أقدر على ردٍ سوى الصمت بلا انعكاسات على وجهي، فلم أستطع قول ما يوحي باعتراضي على ذهابها نحو أهلها، في حين اعترتني غصة على فراقها بعدما ظلت عونًا أبقاني حيًا حتى وقتنا، لكني ابتسمت بعد برهةٍ موحيًا تفهمي لتضيف:

«ألن تطلب مني البقاء، أو الرجوع مرة أخرى؟».

- بل أعد أنني سأجدك، أو تجديني عندما يحين أوان تحررنا.

- إذن سنلتقي من جديد.

عندها اقتربت من وجهي حتى ظننت أنها تبتغي أن تتلاقى شفاهنا، لكنها قبلت جبهتي بينما أطلت من عينيها حمرة توشي باقتراب ترقرق دموعٍ حارة وارتها بأن رحلت مسرعة. وعلى الرغم من تأثري برحيلها إلا إنني بدأت من وقتها محاولة استمالة راعي القبيلة للتجمع والالتفاف متحدثًا عن النبوءة وعن البارود دون أن أتمادى في الحديث عن دنياي التي جئت منها كما أسلفت مع الراعي الأول، بل اعتدت أن أجيب إجابات مقتضبة إذا ما سُئلت عنها، لا سيما وقد بدا أن عقولهم لا تستوعب مثل تلك الدنيا، في حين أسهب في الحديث عن البارود وكيف من الممكن أن يحمينا إذا ما تجمعنا في قريةٍ ذات أسوار.

لم يستجب راعي القبيلة لمناشداتي، فرحلت إلى غيرها التي شابه راعيها من سبقه. صرتُ أتنقل بين بضعة قبائل استطعت معرفة دروبها في نطاق الجنوب، حيث لاحظت أثناء فراري

مع ميرا أن القبائل تنتشر في ثلاث مناطق داخل هذه السلسلة الجبلية: شمالية ووسطى وجنوبية، كل منطقة فيهم تتقارب قبائلها عبر الأنفاق، إلا أنني صرت أزداد يقينًا من حقيقة حديث ميرا بخصوص رعاتهم كلما خذلني أحدهم، لابادر دون يأس بعدما فقدت الأمل في الرعاة نحو محاولة إقناع رعيتهم، خشيةً أن تنتهي الحرب في أي ساعة دون جديد، وبعد أسبوعين من التنقل بين قبائل الجنوب، سواء في الأنفاق أو عندما أقابل من أهلهم أحدًا لدى القمم؛ لم يتجمع حولي سوى بضعة عشر شابًا من أهلها صاروا يتنقلون بصحبتي بينما نحاول إقناع المزيد ونجمع ملح الصخر وزهر الكبريت.

إلى أن ذاع أمري بين القبائل الجنوبية بأنني أشتت شمل أبنائها متبعًا نبوءة كاذبة، ليمتنعوا من بعدها عن إيوائنا أو إدخالنا كهوفهم، بل جرموا على رعيتهم مجرد الحديث معنا إذا ما لاقونا بين الدروب أو لدى القمم. صرنا منبوذين للحد الذي جعل صحبتي تتفرق واحدًا تلو آخر تائبين عن ذنب مصاحبتي، حتى لم يبقَ جواري سوى بضعة شباب لا يتجاوزون العشرة.

صرتُ حانقًا عليهم وعلى استسلامهم متكهنًا أن سائر القبائل الأخرى حتى وإن بلغتها ستحذو حذو قبائل الجنوب، لأتوقف عن استجداء عونهم منتويًا أن أريهم حقيقة نبوءتي في قوة البارود علها تغير ركونهم، لذا أنهيت التنقل وانتقيت كهفًا لنا لدى القمم، أخذنا في تهيئته في يومنا الأول، حيث فرشنا مراقدنا وأفرغنا حمولتنا من الكبريت وملح الصخر في كوماتٍ صغيرة، ثم ابتدرت في الصباح التالي في إعداد البارود، بأن أحرقنا بعض أغصان وأفرع الشجر أمام كهفنا حتى تفحمت، ثم طحنا فحمها إلى أن صار بودرة ناعمة، بعدها طحنا بلورات ملح الصخر والكبريت كلًا على حدة، إلا أنني لم أقم بخلط النسب أمام أيٍّ ممن تبعوني، بل طلبت منهم الخروج جميعًا للصيد قبل خلط مسحوقي داخل كهفنا، الذي وضعت ثلاثة أرباعه من ملح الصخر، و15% من الفحم، والبقية من زهر الكبريت، وما إن انتهيت من التجهيز والترطيب حتى انتظرتهم ليعينوني في خطوة التكوير الأخيرة، إلى أن جمعنا قدرًا من كريات البارود الصغيرة كافيًا لإعداد ثلاث قنابل متوسطة الحجم.

في اليوم التالي قطعت شوطًا كبيرًا في التفكير بشأن الغلاف أو الحاوية التي ستملأ بالبارود، ليستقر أمري في الأخير على صنع كرات خزفية مجوفة من طين البرك، ثم تطييبها فوق النيران، على أن نترك بها كوة صغيرة، أنهيناها قبل أن نبدأ في إعداد ثلاث جدائل من فتائل جذوع الأشجار كي تكون فتيلة الإشعال، بعدها أسقطنا طرف كل جديلة داخل إحدى الكرات الخزفية على أن نبقي طرفها الآخر خارجها، ثم ملأناهم بالبارود مع بعض قطع الصخور الصغيرة، وفي الأخير سددنا كوتها، ثم أحطنا كل قنبلة بقطعة من جلد الحيوان

تحسبًا للصدمات.

استغرق أمرنا ثلاثة أيام حتى أعددنا القنابل التي حفظناها بعناية فائقة لكيلا يفجرها احتكاك أو تقلّب قبل أن أتجه في صبيحة اليوم الرابع نحو تلك القبائل وحدي. أخذت أحاول مقابلة الرعاة موعزًا لمن يصدني أني قد صنعت ذلك الشيء الذي حكيت عنه، إلا أنهم امتنعوا عني ولم يقابلوني حتى بعدما أبلغهم حجّابهم بأمري، ولولا أن انفجار القنابل في قلب الأنفاق قد يدكها دكًا لأقبلت على تفجير أحدها أمام أعينهم علهم يرجعون.

عدت ليلًا نحو كهفنا، بينما غط رفقائي في نومهم، جلستُ أمامه لدى النار التي أشعلوها منكسرًا أناظر السماء، فاقدًا الأمل في أولئك المنبوذين، وإن رأوا ما أملك رؤيا العين، بل صرت على يقين أن ما قابلته اليوم من نكرانهم هو نفس الذي سأراه إن جبت الجبال شمالًا وجنوبًا، فلقد تشربوا الخنوع حتى صار يجري منهم مجرى الدم في الأوردة، ارتووا منه إلى أن بلغوا الثمالة. أسكرهم طول الخضوع فما عادوا يبتغون قيامًا. قدسوا الذل وعبدوا أصنامه التي ترعرعت في صدورهم، فليس كل الذنب في الظلم على الظالمين، بل المظلومين ذنبهم أشد إذا ما ارتكنوا وما قاوموا.

«إسراء..

يا من لست مارينا..

لأقاتلن صخر الجبال وجذوع الشجر.

وهبات الرياح والرعد والقمر.

لأقطعن سديم الليالي..

وأحرق في شمس النهار البُخر».

لم أنم ليلتي في الكهف، بل أيقظني في الصباح أكمل، أول من استجاب إلى دعوتي وأقربهم إلى قلبي، شاب كست الوداعة ملامحه، إلا أن في داخله استقر إنسان جلد صبور قوي العزيمة، أخبرني أن ثلاثة من رفقائنا قد رحلوا، ولم يبقَ سواه رفقة أربعة غيره وأنا.

لم أظهر ابتئاسًا، بل ابتسمت قائلًا: «**يقولون أن أحلك ساعات الليل هي التي ينفرج بعدها الصباح**».

- صدقت يا سيدي.

- هذا نهج دائم في الحياة، وليس بخصوص سواد الليل وحده. أشد لحظات ألم الأم قبل

ميلاد طفلها هي تلك اللحظة التي تبزغ بعده رأسه إلى النور. أتدري إن تجمع بين ثنايا جلدك صديدًا وصار ينبض أكثر وأكثر فإن أشد وجعك سيكون قبل أن ينفجر ليفض ما في قلبه، كلما زاد الألم كلما اقترب انبثاق الأمل.

- سأظل إلى جوارك يا سيد يوسف حتى وإن صرنا وحدنا.

- سينفجر، أنا على يقينٍ من قرب انفجاره.

لم يغادرنا أحد من بعدها، ولبثت لأيامٍ أفتش عن ملح الصخر والكبريت رفقة صحبتي القليلة، كأن في داخلي يقينًا أن تلك اللحظة قادمة لا محالة فأتمم استعداداتي لها. جمعنا الكثير حافظين له في قدورٍ حتى امتلأ بها كهفنا دون جديد بشأن الرعاة أو رعيتهم، في حين صرت في أوقات خلوتي أحلم بتلك القرية وأسوارها، راسمًا خططي لحمايتها بواسطة البارود، متخيلًا شكل النيران التي سنذيقها لجنودهم عندما يأتون في طلبنا، إلى أن يدركوا أن معاركهم معنا خاسرة، ويؤمن سائر وافدي الجبل والجزيرة بمنعتنا، فيلتفوا من حولنا لنصير قوة تناطح قوى هذه الأرض، قبل أن أذهب نحو آربوس الشمالية، أغزوها وأمشي بين طرقاتها وسط جنودي على جوادٍ أصهب إلى أن أبلغ قصر الملك وألقاها، لأخبرها أنني وفيت بوعدي الذي لن يبرئني منه سوى الموت وحده.

أفيق من أحلامي على صخور كهفي وصحبتي القليلة، إلا أنني ما ألبث كثيرًا حتى أعود إلى الأماني التي تشد من أزري، ولفا يجدني أكمل سارحًا بين خيالاتي يسألني عن حالي ظنًا منه أن اليأس تسرب إلى روحي، لكني أجلسه إلى جواري، وأرسم له على الأرض بإصبعي تلك الأسوار التي تعلوها راجمات بدائية تلقي حممًا فيبتهج وتنفرج أساريره، إلى أن مرت عدة أيامٍ دون جديدٍ من رعاة القبائل ورعيتهم، فبدأت أناقشه في أحد أمرين، أولهم أن أقوم ببعض التفجيرات لدى القمم عندما يظهر بعض الرعية عليهم يرونها ثم يتناقلون ما رأوا من بأسٍ مع أقرانهم، أو أن أرحل نحو الشمال محاولًا إقناع أي من القبائل هناك تاركًا إياه مكاني حتى أعود، ليظهر ميله نحو الاقتراح الثاني مرجحًا له، لكننا قبل أن نستقر على أمرٍ، وبينما كنا في أحد الأيام نركض في إثر ظبي نتعقبه بسهامنا لدى غابة صغيرة؛ لمحته بين جذوع الشجر.

«فارس».

لم أصدق عينيّ حين رأيته يحاول تعقب صيدٍ هو الآخر حتى تلاقت أعيننا، رمى قوسه وجعبة سهامه آخذًا في الركض نحوي إلى أن احتضني رافعًا جسدي من على الأرض، وكاد يحطم أضلعي بينما يضحك بشدةٍ قبل أن يفلتني واضعًا يده اليمنى على كتفي.

- لا أصدق عينيّ، كيف فعلتها يا صديق؟

ابتسمتْ.

- إنها حكاية طويلة، لكن أخبرني كيف نجوت؟

- صدق حدثك بخصوص الغابة الجنوبية، ما إن أخذوك وتسللت عبر أشجارها حتى هدأت الملاحقات أو بالأحرى انعدمت. صرت أتحرك غربًا حتى بلغت الجبال، لكن المفاجأة أنني لست من وافدي البحر كما ظننت، ولا من تلك البلاد البعيدة التي حكيت عنها.

- بل من وافدي الجبال الذين يفقدونهم الذاكرة.

- كيف عرفت؟

- قصتي لا زالت طويلة، أكمل لي حكايتك.

- بعدما بلغت الجبال وصلت إلى قبائل المنطقة الوسطى، قابلت هناك مَن عرفني وأخبروني عن قبيلتي التي تقع في ذات المنطقة. صرتُ مندهشًا مما يقول حتى بلغتها ليبتهجوا بعودتي مؤكدين ما ذكر، وإلى الآن لا أذكر ما مضى من حياتي قبل غرفة الساحة، لكنهم أخبروني أن إحدى الحملات أسرتني لدى القمم. يقولون أنني اعتدت التمرد صاعدًا في أي وقتٍ غير آبهٍ لحملاتٍ أو غيره، لكن ما أحنقني أنهم أخبروني عن زوجتي التي أسرت برفقتي.

صمت لحظات وقد زال ابتهاجه.

- لا أذكرها، حتى بعدما أروني صورتها.

قالها ثم مد يده في أحد جيوب سرواله مخرجًا صورتين لوجهين مرسومين بالفحم على ورقتين بنيتين كتلك الرسالة التي لا زلت محتفظًا بها، إحداهما بدت قريبة للغاية من سحنته الحقيقية، والأخرى لمن قال عنها زوجته حين بدا عليه التأثر، إلا أنه ما لبث أن أعاد الصورتين إلى جيبه معاودًا قهقهته مربتًا على كتفي.

- وليس اسمي فارس بل اسمي ليث، والأكثر من ذلك أن عمي هو راعي قبيلتنا، الذي ظل يتحرز عمرًا طويلًا لكيلا أقع، لكنني كنت أهوجًا كما يقول.

انفجر ضاحكًا من جديد، قبل أن أصطحبه نحو كهفي، موعزًا إليه خلال طريقنا أنه سيظل في نظري فارس وليس ليثًا، بينما بدا أكثر نشاطًا وإقبالًا على الحياة، بل بدا جسده أشد قوة، وما إن بلغنا الكهف وجلسنا فوق فرشتي حتى بادرته بقص حكايتي التي انتهت بما

لاقيته من الرعاة عندما عرضت عليهم الوقوف إلى جواري والمقاومة، أعقبت ذلك بالتلميح له عن طلبي لمساعدته، ليبادرني بقهقهته التي اعتدتها.

- لا تبتئس يا صديقي، قد جاء من ينصرك حتى وإن بنيت تلك القرية على كتفي وحدي.

نظرت نحوه بعزم.

- لكننا نحتاج المنعة، الرجال، التجمع، ليس من أجل البناء وحده، بل لاستنهاض عزائم الجميع، نبتغي تحطيم ذلك الخنوع والخضوع واليأس، فلن تكون القرية آخر آمالي.

- بشأن المنعة والتجمع، هل نجح فرار أي من ذلك التنظيم؟ هل فرت حبيبتك التي رافقتك من أرضك؟

أجفلت للحظاتٍ مشيحًا بنظري.

- لا لم تهرب.

- وأين ذهبت؟

التفت نحوه يائسًا.

- محبوسة في قصر الملك.

- إذًا صارت لنا اثنتان هناك في هذه الأرض، هيا أخبرني بما عليّ فعله كي لا يستأخرا قدومنا.

انفجر ضاحكًا كعادته، فتريثت حتى فرغ من ضحكه، وأخذت أوعز إليه أن يقنع عمه بالانضمام إلينا بعدما يحكي له عما صنعت، ويزيد على ذلك أن يخبره بالتجمع والالتفاف الذي كان من حولي في آربوس عند هروبنا الأول، وعن أولئك الخائفين هناك، الذين لا يحاولون الهرب إلى هنا، ليس لطول الطريق وصعوبته بل لانعدام الملاذ الآمن، وما إن وجدوا صاحب نبوءة إلا وانتفضوا في إثره، ويخبره أننا لو أوجدنا الملاذ سيتجمع حولنا كل الوافدين، ليس من أهل الجبال وحسب بل من المملكتين أيضًا، لنصير قوة ثالثة في هذه الأرض تناطح من أجل بقائها، وليس قطعان من المستضعفين الذين يداومون على معاملتهم كالخراف.

قضى فارس يومه في صحبتي قبل أن يتركني لتنفيذ ما أمليت عليه، على وعدٍ بالرجوع لأجل مصاحبتي سواء في ذلك لان له عمه مقرزا الانضمام لنا بقبيلته أو امتنع مثل من سبقوه، ليأتيني بعد يومين ظهرًا يحمل أغراضه على كتفه، متجهمًا يعلوه الامتعاض. سألته

عما جرى، فأجاب أن عمه مثل سائر الرعاة، أشل الخوف أي عزيمة في داخلهم على عكس ما اعتقد قبل أن يتركني، إلا أنه استطاع أن يقتطع منه وعدًا أن يأتينا رفقة بعض رعاة المنطقة الوسطى ليروا ما صنعت دون أي وعودٍ مسبقة بنصرة أو مؤازرة.

ابتهجتُ لذلك أشد الابتهاج، حيث بقيت على قناعةٍ أنهم مهما تخيلوا لن تصل أفكارهم لأكثر من كراتٍ من القماش تُغمس في الزيت ثم تُشعل أو صخور تقذفها الراجمات، فكيف لهم أن يدركوا معنى لانفجارٍ يخلّف موجات ضغطٍ تطيح بالرجال والأسوار؟ بل وكيف لهم أن يتخيلوا قطع الصخور الصغيرة التي تنطلق مع الموجات لتقتل من تصيبه أو ترديه مصابًا لا يقوى على الحركة؟!

لذا تصاعد في داخلي الأمل منتظرًا تنفيذ ذلك الوعد الذي سيمثل أول لبنة في بنائنا، إلى أن جاؤونا في صبيحة أحد الأيام، خمسة رعاة في صحبة كل واحدٍ منهم عدد من المرافقين من أبناء قبائلهم الوسطى.

ذهبنا في رفقتهم إلى أحد الوديان الصخرية الصغيرة، موعزًا لهم أن يختبئوا خلف أحد المرتفعات التي تحدها، قبل أن أضع إحدى قنابلي في منتصف الوادي، وما إن تواروا حتى أشعلت فتيلها ثم ركضت ناحيتهم، ليدوّي انفجار ضخم فاق أقصى آمالي؛ ارتجت الأرض من إثره ليهرعوا مبتعدين خشيةَ زلزالٍ أو ما شابه يتبعه. فلحقنا بهم أنا وفارس ورفقتي، بينما بدا عليهم خليط من الهلع والذهول والتخبط.

ما إن استوقفناهم حتى عاجلتهم: «**ما رأيكم الآن فيما صنعت؟**».

رد عم فارس: «**إنها قوة لم نرَ مثلها من قبل، لكن راجماتهم ترسل صخورًا ضخمة، وكرات نارٍ لمسافاتٍ بعيدة**».

- لن أسمح لهم بالاقتراب، سأملأ الأرض حول موقعنا بتلك القنابل مطيلًا في فتائلها، ما إن يقترب جنودهم سأنسفهم نسفًا، بل ولم لا نصنع راجمات مثلهم ونرسل عليهم من مواقعنا ما هو أشد بأسًا إذا ما جاؤونا. إن كراتهم وصخورهم لا تملك من القوة ما يضعها في مقارنةٍ مع صنيعتي، هي كرات من لهبٍ وقطع صخور، أما هذا يُدعى انفجارًا ترتج له الأرض، وقد جمعت الكثير من مواده التي تمكنني من صنع عشرات القنابل، بل إن أعتموني سأصنع المئات منها.

بدا عليهم التردد لبرهةٍ أنهاها عم فارس بقولهِ أنهم سيتشاورون أمرهم فيما بينهم قبل أن يرحلوا رفقة معاونيهم، ثم مر يومان دون جديدٍ، لم يأتني منهم أحد ولم يبعثوا برسالة، بينما أتقلّب فوق نيران نفاد صبري، تكاد تملؤني النقمة عليهم بقدر نقمتي على حكّام آربوس

عما جرى، فأجاب أن عمه مثل سائر الرعاة، أشل الخوف أي عزيمة في داخلهم على عكس ما اعتقد قبل أن يتركني، إلا أنه استطاع أن يقتطع منه وعدًا أن يأتينا رفقة بعض رعاة المنطقة الوسطى ليروا ما صنعت دون أي وعودٍ مسبقة بنصرة أو مؤازرة.

ابتهجتُ لذلك أشد الابتهاج، حيث بقيت على قناعةٍ أنهم مهما تخيلوا لن تصل أفكارهم لأكثر من كراتٍ من القماش تُغمس في الزيت ثم تُشعل أو صخور تقذفها الراجمات، فكيف لهم أن يدركوا معنى لانفجارٍ يخلّف موجات ضغطٍ تطيح بالرجال والأسوار؟ بل وكيف لهم أن يتخيلوا قطع الصخور الصغيرة التي تنطلق مع الموجات لتقتل من تصيبه أو ترديه مصابًا لا يقوى على الحركة؟!

لذا تصاعد في داخلي الأمل منتظرًا تنفيذ ذلك الوعد الذي سيمثل أول لبنة في بنائِنا، إلى أن جاؤونا في صبيحة أحد الأيام، خمسة رعاة في صحبة كل واحدٍ منهم عدد من المرافقين من أبناء قبائلهم الوسطى.

ذهبنا في رفقتهم إلى أحد الوديان الصخرية الصغيرة، موعزًا لهم أن يختبئوا خلف أحد المرتفعات التي تحدها، قبل أن أضع إحدى قنابلي في منتصف الوادي، وما إن تواروا حتى أشعلت فتيلها ثم ركضت ناحيتهم، ليدوّي انفجار ضخم فاق أقصى آمالي؛ ارتجت الأرض من إثره ليهرعوا مبتعدين خشيةَ زلزالٍ أو ما شابه يتبعه. فلحقنا بهم أنا وفارس ورفقتي، بينما بدا عليهم خليط من الهلع والذهول والتخبط.

ما إن استوقفناهم حتى عاجلتهم: «ما رأيكم الآن فيما صنعت؟».

رد عم فارس: «**إنها قوة لم نرَ مثلها من قبل، لكن راجماتهم ترسل صخورًا ضخمة، وكرات نارٍ لمسافاتٍ بعيدة**».

- لن أسمح لهم بالاقتراب، سأملأ الأرض حول موقعنا بتلك القنابل مطيلًا في فتائلها، ما إن يقترب جنودهم سأنسفهم نسفًا، بل ولم لا نصنع راجمات مثلهم ونرسل عليهم من مواقعنا ما هو أشد بأسًا إذا ما جاؤونا. إن كراتهم وصخورهم لا تملك من القوة ما يضعها في مقارنةٍ مع صنيعتي، هي كرات من لهبٍ وقطع صخور، أما هذا يُدعى انفجارًا ترتج له الأرض، وقد جمعت الكثير من مواده التي تمكنني من صنع عشرات القنابل، بل إن أعتنموني سأصنع المئات منها.

بدا عليهم التردد لبرهةٍ أنهاها عم فارس بقولِهِ أنهم سيتشاورون أمرهم فيما بينهم قبل أن يرحلوا رفقة معاونيهم، ثم مر يومان دون جديدٍ، لم يأتني منهم أحد ولم يبعثوا برسالة، بينما أتقلب فوق نيران نفاد صبري، تكاد تملؤني النقمة عليهم بقدر نقمتي على حكّام آربوس

مهدوا الوادي داخل دائرة المرتفعات، لكن في كل الأحوال ها قد آن الأوان كي لا يضيع مجهودهم سدى، فأولئك الأجداد على الأقل حاولوا.

نصبنا خيامنا وفرشنا، ثم سارعت إلى تقسيم أولئك الخلائق بعد المشاورة لعدة فئاتٍ واضعًا في إدارة كل فئةٍ أحد خواصي ممن ثبتوا معي حين تفرّق البقية، أولاهم فتتي التي استأثرت فيها بفارس وأكمل ويزن، بالإضافة إلى بعضٍ ممن انتقيتهم من أوائل القادمين، حيث ابتدر قسم منا في تصنيع البارود من مخزوننا القديم، بعدما صنعنا قدورًا من الصخر لتسهيل طحن المواد وخلطها، بينما أخذ قسم آخر في البحث عن المزيد من ملح الصخر والكبريت، وقسم ثالث اختص في صنع الحاويات الفخارية لقنابل البارود وفتائل الإشعال والإطار الخارجي، في حين لم أخبر أحدًا بطريقة الخلط والترطيب والتكوير سوى فارس وأكمل ويزن.

صنعنا العشرات من القنابل مختلفة الأحجام، قبل أن نلغّم بالكبيرة منها كل منافذ الدروب والممرات التي تطل على المناطق المستوية المحيطة بالقرية، مع إتمام حفر ككمائن للمشعلين تُغطى بالصخور أو بأوراق الشجر، ثم استخدمنا بعض القنابل الصغيرة في تسوية أجزاءٍ من الأرض داخل القرية، وبعضها في تكسير بعض سفوح المرتفعات التي تحدها من الخارج، بأن ننحت حفرًا، ثم نضع بها البارود ونفجره، وذلك لغرضين: أولهم أن نجعل تلك المرتفعات أشد حدة من الخارج فلا يتسلقها من أحد، وثانيهما استخدام تلك الصخور الناتجة عن التفجير في البناء داخل القرية.

أما الفئة الثانية التي باشرت العمل في ذات الوقت هي فئة البنائين، حيث هناك من عمل بالأسوار التي تسد ثغرات المرتفعات المحيطة بالقرية أو تعلوها، وغيرهم أخذ يبني صفوفًا منتظمة من منازل بدائية مربعة ذات طابقٍ واحد بسقوفٍ خشبية، على أن يتركوا ساحة صغيرة في منتصف القرية، ويعينهم من يقطعون الأشجار، ومن يهينون جذوعها وفروعها، ومن يجلبون مادة البناء.

ثالث الفئات عملت في الصيد برًا وبحرًا وجلب سائر الطعام الذي تُمثل الأسماك غالبيته العظمى ها هنا، موعزًا إليهم أنني أبتغي كل ما يمكن تخزينه من المئونة داخل القرية حيًا أو مجففًا بما يكفي ثلاثة شهورٍ على الأقل، والفئة الرابعة عملوا على صنع الأسلحة من حرابٍ وسهامٍ وسيوف. مهر الكثير منهم في هذه الصنعة، حيث يعرفون الصخور الغنية بالحديد، يجمعونها ويشعلون النار عليها، ثم يأخذون في الطرق والتشكيل، ذاك لأنهم اعتادوا صنع مثل تلك الأدوات لحياتهم الطبيعية من سكاكين وسهام للصيد وبعض السيوف، مرفقًا إليهم قسمًا تحت إشرافي لصنع عدة راجماتٍ على صورتها البسيطة بواسطة جذوع أشجارٍ

ضخمة. مجرد قائمة خشبية ثابتة يُربط فوقها جذع ممتد قابل للحركة، في أحد أطرافه ثقل صخري، والطرف الآخر يُنحت كحامل للمقذوف، ثم يبطن الحامل بالجلد وورق الشجر لمنع احتكاك البارود. ما إن أنهوها حتى بدأنا في اختبار مدى مقذوفاتها بواسطة الصخور ومتانة أربطتها، مع التعديل عليها مرة بعد مرة إلى أن استقررنا على أماكن وضعها فوق مرتفعات وأسوار القرية، وأين ستقع مقذوفاتها.

أما الفئة الأخيرة كانت قليلة العدد، مجرد خمسة أفرادٍ متفرقين دون قائد، انتقيتهم خفيفي الحركة تكسو ملامحهم وتصرفاتهم الفطنة، هم من عينتهم جواسيسًا للتسلل إلى حدود القرية الأخيرة التي تلي زورين قبل سلسلة الجبال مباشرةً، وتدعى غولار، حيث علمت ترتيب القرى من الغرب لدينا إلى الشرق عند مصب نهر جودي: غولار، زورين، رانتاز، قسطا، كيبول.

اقتصرت مهمتهم على التسلل بحذر عبر الغابة حتى حقول غولار ليتحسسوا أخبار حروب المملكتين عبر الحديث مع وافدي تلك الحقول بأي وسيلة أو بمجرد التصنت من بعيد أو بأي طريقة يرتؤونها، مع أخذ الحذر من وافدي القرى، إلى جانب استلاب بعض حبوب القمح والشعير وغيرها بين الفينة والأخرى.

أنهينا مهمتنا في بناء القرية خلال ثلاثة أشهر وبضعة أيامٍ من العمل المتواصل استمر فيهم توافد الوافدين. فتشت دومًا فيهم عن ميرا وأخويها الأشقياء؛ ليس عشقًا فقلبي موصد على إسراء وحدها، لكن عرفانًا بالجميل أو مودة تشبه مشاعر الأخ الأكبر، إلا أنها لم تأتِ ليتصاعد في صدري الخوف عليهم ظنًا أنهم أسروا.

maktabbah.blogspot.com

حتى ذلك الغروب الذي اكتمل فيه العمل وأغلقنا الأبواب مضيئين مشاعل من الكبريت فوق الأسوار والمرتفعات. بدا مشهدًا مهيبًا خفق له قلبي أكثر من أي وقتٍ مضى، فقد وضعت قدمي في الأخير على أول درجةٍ بحلمي وأملي وحبيبتي.

«إسراء..

يا من لست مارينا..

اقتربت ساعة لقائنا فاستعدي».

إلا أنه لم تمر سوى ثلاثة أسابيع وأخبرني المتلصصون بتوقف الحرب، لكننا لبثنا مواصلين في صنع الأسلحة والراجمات وصناعة البارود، حيث وضعت خطتي منذ أيام الكهف على بناء القرية وحمايتها في البداية قبل أن أمنعهم فيما بعد عن صعود سلسلة الجبال كلها، على أمل أن يتأخروا قليلًا في معالجة آثار حربهم، فالحروب لا تنتهي بكبسة زر، ولا تشفى جروحها

وتندمل ندباتها لمجرد توقفها.

لكنهم لم يمهلوني كي أصنع الراجمات التي انتويت وضعها على حواف سلسلة الجبال، حيث أخبرني المتلصصون الذين أضفت إليهم الكثير من أبناء القرية موسعًا في مجال عملهم بعد انتهاء الحرب حتى بلغوا أحراش رانتاز، وانتشروا على حواف سلسلة الجبال شمالا وجنوبًا، أن هناك جيشًا تحرك من رانتاز نحو المملكة الشمالية الأم قاصدًا التجمع هناك ثم الانطلاق نحونا. هرعت عندها إلى نسف ذلك الممر الذي صعدته برفقة جند آربوس لدى المقدمة الشمالية للجبال، نسفته في أكثر من موضع، لا سيما مكان استراحتهم، ثم وضعت العديد من قنابل البارود خلال دربهم المطل على البحر، وأعددت كمائن مشعليها قبل أن أتمم مهمتي خارج القرية بمراجعة مواضع البارود في منافذ الدروب التي تفضي إلى المنطقة المستوية المحيطة بنا.

في الأخير قسمت الرجال فوق الأسوار والمرتفعات المحيطة بالقرية بعدما اتفقنا على كافة خطوات دفاعنا، ما بين معمري الراجمات بقيادة أكمل، ورماة السهام الذين اخترناهم على عجلٍ ممن يجيدون الصيد بقيادة يزن، وفئتي التي استعدت بقنابل البارود الصغيرة ورافقني فيها فارس.

بعد أربعة أيامٍ وصلوا ليلًا عند سفوح سلسلة الجبال ناحية الشمال، لأفاجأ في الصباح التالي بمن جاءني عند القرية التي بقيت أتابع سير الاستعدادات بها، أخبرني أنهم لم يستخدموا دربهم القديم المطل على البحر، بل تركوا خيولهم لدى السفوح، ثم دخلوا نفقًا عند مقدمة سلسلة الجبال دون أن يلتفوا من عند البحر، قبل أن يظهروا أعلى القمم. لم ألحق تدارك هذا الأمر، بل والأنكى أنهم استخدموا دربًا بالأعلى مختلفًا عن ذلك الدرب الذي سلكته برفقتهم؛ ارتفع توتري وقلقي إلى عنان السماء، إلا أنني وضعت باقي أملي على التلغيم الذي وضعناه في سائر الدروب المؤدية للقرية، إلى جانب أنهم لم يصطحبوا راجمات معهم كما علمت، لم أدرِ هل استهانة بنا أم لصعوبة اصطحابها نحو القمم.

maktabbah.blogspot.com

بلغوا الدروب المؤدية لقريتنا من الناحية الشمالية بعد الغروب حاملين مشاعلهم، بينما تفرقوا في سرايا عبرها، بدوا نحو ألفي جندي، لكن ما إن توسطت فرقهم مواضع البارود إلا ودوى متفجرًا خلال معظم مساراتهم، لتتطاير أشلاء بعض الجنود، ويصاب آخرون بالشظايا، قبل أن يتراجع البقية فرارًا مذعورين على الرغم من عدم تفجر بارود بعض الدروب.

إلا أنهم لم ينسحبوا جميعًا مدحورين، حيث سمعت تصايح ما بدا أنهم قادة السرايا على جنودهم ليتجمعوا من جديد، وبعد أن ولى الكثير منهم هاربين عادوا للانتظام قبل مواضع التفجيرات، جال في خاطري أنهم علموا بشأن البارود، لأستنتج أن هناك خونة بين القبائل

خارج قريتنا أخبروهم بكثيرٍ من التفاصيل، لذا تجنبوا الممر الصاعد المهدوم، وتجنبوا الدرب المطل على البحر، أما المتفجرات التي وضعتها لدى الدروب المفضية للمنطقة المستوية المحيطة بالقرية أذكر جيدًا أننا أعددناها مساءً، إلى جانب تغطية التضاريس لنا في تلك المنطقة، فلم يرنا سوى أهلنا في القرية. لم يدخل القرية خونة بعد، لكن هناك الكثير منهم خارجها، وهذا يستلزم تفكيرًا جديدًا بعد تخطي تلك العقبة.

قطع تفكيري الوجِل أنهم بعثوا جماعات من خمسة جنود في كل دربٍ يتحسسون ما إذا بقي فيه من تلك الصواعق أو فرغت، قبل أن يشيروا لهم بأن المكان صار آمنًا، لتتبعهم الفرق من جديد نحو المناطق المستوية التي ما إن وطأوها حتى أشار أكمل حازمًا بضرب الراجمات.

هنا لاحظت ثغرة أخرى، تلك القنابل ينطفئ فتيلها في الهواء ما إن تقْذف، لكن ما أنقذنا أن اللائي وقعن فوق صخورٍ صلبة انفجرن من إثر اصطدام البارود، محدثين ضوءًا يقطع سواد الليل، أما اللائي وقعن لدى مناطق تجمع فيها زبد أو رمل لم ينفجرن، إلا أن الطامة حدثت عندما ألقى أحد الوافدين قنبلة البارود بلا مبالاة في حامل الراجمة، فانفجرت مدوية مطيحة بخمسة أفرادٍ من حوله، وناسفة أحد الأجزاء أعلى السور.

maktabbah.blogspot.com

بدا واضحًا أيضًا أن راجماتنا لم تكن بالقدر الكافي للردع، فبعد أن أوقعنا منهم الكثير؛ تسللوا عبر المواضع التي خلت من المقذوفات حتى بلغوا منتصف المنطقة المستوية، ليشير يزن لحاملي السهام بإطلاق سهامهم، وعلى الرغم من عدم تدريبهم المسبق على القتال، وكونهم مطاردي غزلان وحسب، إلا أنهم أبلوا بلاءً جيدًا مسقطين من أولئك الجنود قدرًا حسنًا، قبل أن تنفذ سهامهم ويقترب بقية الجنود للغاية من الأبواب، لألقي بورقتي الأخيرة: القنابل الصغيرة التي صنعتها مثل القنابل اليدوية.

صرنا نقذفها عليهم بالأيادي بعد إشعال فتيلها بأعدادٍ كبيرة، لتكون أكثر دقة في إصابتهم فاتكة بهم مشرذمة لجمعهم، لتفتر عزيمتهم بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من أسوارنا، وأتنفس أنا ومن حولي الصعداء حين بدأوا التراجع على إثر الانفجارات التي أخذت تطيح بأجسادهم، لكن أشد ما استرعى انتباهي أن هناك بضعًا وعشرين جنديًا أكملوا هجومهم حتى لمسوا أبواب قريتنا، حيث لم نلقِ عليهم بارودنا خشية تدمير الأبواب، مستبدلين ذلك بإلقاء بعض الصخور قبل أن يتراجعوا من جديدٍ عنها، لتحصد بعضهم قنابلنا، ويكتمل رجوع البعض، ويصبح معظم جيشهم أثرًا بعد عين.

إلا أنه اتضح لي إصرارهم الغريب على مجرد الوصول إلينا حتى وإن لم يدخلوا قلعتنا، كأن هذا أمر معنوي أكثر من كونهِ أمرًا يتعلق بالانتصار أو الانهزام؛ فكيف لأولئك العبيد أن

يقاوموا، بل ويصنعوا قرية ذات أسوار؟! كيف ونحن جند المملكة الشمالية الذين كنا نستعبدهم ونسبيهم دون مقاومة؟!

قدر كبير من الغرور دفعهم إلى ذلك، دفعهم لألا يتراجعوا حتى يبلغوا أسوارنا، ولينذروننا بأننا في متناول أيديهم، لكن إن تعلموا درسًا فقد تعلمنا دروسًا.

دوّى في القرية التهليل والاحتفال اغتباطًا بانهزام ذلك الجيش الذي فرت فلوله ولم أتعقبهم، حملوني على الأعناق هابطين من فوق المرتفعات نحو أهاليها في ساحة القرية، والذين صاروا يهتفون باسمي لأشير لهم بمعنى الصمت خاطبًا:

«إن أول الغيث قطرة، فلا يغرنكم انتصارنا اليوم، بل أبتغي استنفار القوى لما هو قادم. أريد من كل واحدٍ فيكم أن ينتفض مخرجًا أقصى ما لديه من عزم وطاقة، ولتعلموا أنهم سيلبثون لفترة يتخبطهم إفناء هذا الجيش، إلا أنهم لن يتوقفوا عند كرّة واحدة، لكن ليأتونا من جديد حتى نفنيهم مرة أخرى».

عادوا للتهليل والصياح، في حين اتجهت نحو منزلي يتبعني فارس وأكمل ويزن وبقية خواصي من الرجال الذين باشروا الإشراف على كافة الفئات، بينما احتفل بنا الأهالي عبر طريقنا إلى أن بلغنا داري، والتي بدت مثل مربع أحاطته الجدران الصخرية مفروشًا ببعض قطع الجلد التي افترشناها في دائرة في حين أضاء لنا مشعلين.

- لن يأتونا في القريب العاجل، أنا على يقين من ذلك، إلا أنني أشد يقينًا من عودتهم، لذا لا بُدّ أن نتعلم من أخطائنا ونسارع إلى تدعيم قوتنا.

maktabbah.blogspot.com

قاطعني فارس راسمًا الحزم، فكدت أنفجر ضاحكًا من هيئته التي لم أعتد رؤيتها في تلك الحالة منذ صاحبني بالجبال، دومًا بدا مازحًا مقهقهًا إلى أن حلت الساعة التي برز لنا فيها الجنود، ومن وقتها لم ينفك ذاك الحزم عن وجهه، حيث قال:

«هناك بعض من قنابل الدروب لم تنفجر».

أشرت برأسي موافقًا: «من المؤكد أن فتائل إشعالها انطفأت قبل أن تبلغ البارود مثلما حدث لمقذوفات راجماتنا، وسنتيقن من ذلك حالما يعود المشعلون، هل أرسلتم من يأتي بهم؟».

أجاب أكمل: «ننتظر حتى نتيقن من فرار باقي الجند خارج الجبال، وسيخرج إليهم بعض من رجالنا بالحراب والسيوف إلى أن يصلوا كافة المكامن».

أطرقت لبرهةٍ ثم استأنفت: «التغلب على معضلة الفتائل هين، قد نحشوها بالكبريت فلا تنطفئ، لكن لدينا عجز في الراجمات التي تتخلل مواقع مقذوفاتها مساحات كبيرة، يتوجب علينا معالجة ذلك بزيادتها وتجربتها بالبارود وليس الصخور، لدينا أيضًا عجز في السهام والأقواس، في حين ينقصنا الكثير من التدريب والتنظيم على حمل السلاح. نريد

جيشًا حقيقيًا».

أطرقت مجددًا قبل أن أعاود حديثي:

«إلا أن القنابل اليدوية أثبتت أنها أفتك أسلحتنا، من الضروري صنع مخزون كبير منها، ولن ننتظر في المرة القادمة أن تصل جيوشهم إلى هنا، سنتدرب على إلقاء القنابل الصغيرة من فوق حواف سلسلة الجبال مسابقين الزمن لصنع راجمات نضعها على نقاط محددة بتلك الحواف شمالًا وجنوبًا مقابل المملكتين، لنقذف أي مهاجم لدى اقترابه من بعيد قبل قذفه من قريب. في المرة القادمة لا بُدَّ أن نمنع أي قوة من مجرد صعود هذه الجبال».

أجاب فارس: **«لدينا مخزون كبير من ملح الصخر بالكهوف التي بلغناها، وسنبدأ في العمل باكرًا».**

- أريدكم أن تجمعوا البارود الذي وضعناه بالدرب الشمالي المطل على البحر، وتعيدون تلغيم الدروب القريبة. أريد أن يعمل عدد كاف من الرجال في صنع القنابل والراجمات والسلاح، أما فرقة التجسس فعليهم أن يعاودوا العمل من الصباح متوغلين في قرى المملكة الجنوبية التي يقينا سيصلها نبأنا، إلا أنه سيصل رفقة خبر إفناء جيش عدوها المهاجم بواسطة صواعق حارقة، لذا سيتحرزون كثيرًا قبل أن يفكروا في الاستجابة لدعوات عدوهم من أجل التحالف ضدنا.

لمعت حينها عيناي مجيلًا نظري في خواصي.

- إلا أنني سأستبق الجارة الشمالية وأبعث للجنوبية رسلي بهدية طالبًا السلام.

اعتلت الدهشة خلجات الجميع حين عاودت حديثي:

«ستصل أنباء الصواعق التي أفنت جيشًا كاملًا، لكن أن ترى غير أن تسمع. سأبعث لهم عشر جرارًا كبيرة من البارود كهدية قبل أن يقوم أحد رسلنا بتفجير إحداهن على أنه يعلمهم طريقة عملها، مرفقًا رسالة بأننا لا نبتغي عداوة معهم أو مع غيرهم، إلا أن الجارة الشمالية التي أخذنا شيئًا يسيرًا من أرضها بالجبال هي من ابتدأت حربنا. إننا نريد السلام مع ملك الجنوب الحكيم، وإن أراد وافدي البحر فليأخذهم. في كل الأحوال لن نستطيع الوصول إليهم، وإن أراد شيئًا من معادن الجبل فليصعد جنودهم في أمان على أن يعم السلام الدائم بيننا وبينهم».

بدا أنهم مشدوهون مما يسمعون، فكيف لمستضعفي الأرض أن يطلبوا تحالفًا أو سلامًا أو

هدنة، لأنهم لا يدركون منطق القوة تسود وتغير القواعد، لا يدركون أنني أرنو إلى تطبيق مبدأ فرق تسد بين جارتين لا تنتهي حروبهما. أبتغي استمالة تلك التي لم آخذ من أرضها دون أن ينقصهم سوى وافدي الجبل الذين اعتادوا أسرهم، ولن يضيرهم ذلك، لا سيما مع انقطاع أولئك الوافدين عن مملكة الشمال أيضًا.

ابتسمت مكملًا حديثي:

«أتدرون ماذا سيطلب ملك الجنوب؟».

أجابوا جميعًا:

«ماذا سيطلب؟».

- سيطلب طريقة إعداد هذه القوة، لكني سأراوغ بوعده منح المزيد من الجرار كل فترة إلى أن يستقر حالنا. هي مراوغة طويلة الأمد حتى نثبت جذورنا، مثلما راوغت الشماليين ليأتوا بي إلى هنا دون الكشف عن كل المواد أو طريقة التصنيع، وأظن أنهم حاولوا عشرات المرات لدمج ما عرفوا دون طائل، لا سيما وأن الأهم من معرفة المواد هو كيفية الإعداد والنسب، بالإضافة لافتقادهم لملح الصخر الموجود لدينا، وانعدام قدرتهم على تحديده، لكن لتعلموا أنه سيحل أوان نفاده يومًا ما.

قاطعني فارس: **«وماذا سنفعل عندها؟».**

- سننزل من الجبل ونغزو القرى حيث سنصنعه، سنغزو كافة المملكة الشمالية حتى تخضع لنا هذه الأرض.

تخبط الوجوه ألف هاجس حين أكملت:

«لا تظنوا أننا نقاتل في هذه الحرب من أجل أن نبقى في الجبال. أعرف جيدًا ما يدور في أذهانكم، وهو أن الحرب على الأرض ستكون أشد وطأة حتى وإن امتلكنا البارود، لأن جيوشهم قوية وأعدادهم كبيرة، ولأننا هنا نقاتل من وراء حصنٍ حصين، بينما نعرف أين نضرب وأين نلغم الأرض، أما في الأسفل سنكون مهاجمين إن نفد بارودنا أو تخللوا مواقع هجومنا فسيفتكون بنا، لأن جيوشهم تفوقنا من حيث الرجال والعتاد، ولكن ماذا إن نفد ملح الصخر قبل أن تستتب لنا الأرض؟! وهل تحاربون من أجل أنفسكم وحسب أم من أجل رفع الظلم عن باقي إخوانكم الذين يسومونهم العذاب كلما وفدوا أو الذين أسروهم من هنا على مدار سنواتٍ ولّت؟ ألا تريدون تغيير قواعد هذه الأرض التي امتلأت فُجرًا وجورًا؟».

عندها تلاقت عيناي بعيني فارس بينما ظهرت نفس رغبتي في عينيه، إلى جانب كونه الوحيد الذي يعلم أن لدي سببًا آخر فوق ما ذكرت، لكنه لم يصرح، فقطعت الحديث عن هذه المسألة مضيفًا:

«في الأخير هناك خيانة حدثت لا بُدّ أن نتحرز لها، وعلى الرغم من علمي أن الخائن لم يكن في قريتنا إلا أنني أريد التحرز من الجميع حتى من أهل القرية أنفسهم خاصة فيما يتعلق بخطط دفاعاتنا».

أنهيت حديثنا ثم انفض كل منهم إلى شأنه، وخلال ثلاثة أيام بعثت برسالتي نحو ملك الجنوب الذي لم يختلف رده عما توقعت، بل زاد عليه بإرسال هدية، بعض من الخراف الحية التي كانت تقطن الجبال قديمًا إلى أن استولت عليها المملكتان، وصارا يحتفظان بهم في حظائر. بدت هدية تنم عن فطنة ذاك الملك، حيث أدرك حاجتنا للزاد، ووشت عن رغبته ودًا حقيقيًا مما سيؤخر عودة جارتها إلينا لمدة أطول. منعت ذبحها إلى أن تتناسل، لا سيما وقد أخذ المئات يتوافدون علينا من سائر أركان الجبال بعدما أثبتنا منعتنا، مما استدعى كثيرًا من البناء داخل القرية حتى لم يعد بها موضع للمزيد، ليبدأوا في نصب الخيام في المنطقة المستوية حولها، حين لزم الأمر المزيد من التنظيم، لذا عينت من يقوم على شؤون القرية الداخلية رفقة عدة مساعدين له، طالبًا منه البدء في استكشاف أماكن للزراعة داخل القرية وخارجها، مطلقًا يده في تنظيم أمور الزاد والمتاع ونصب الخيام والمباني.

maktabbah.blogspot.com

في ذات الوقت أخذت أسابق الزمن في ترتيب أولويات الدفاع، حيث دار العمل بشأن الراجمات اللائي تحوط القرية، وتجربتها تحت إشراف أكمل، منتويًا أن تنفض الخيام ومن فيها إلى الداخل عند اقتراب عدو، ذلك رفقة إشرافي المباشر على عديدٍ من الرجال يقومون بجمع مواد البارود التي خصصت لها دارين كاملتين تقوم فيهما العديد من النساء بمهمات الطحن وإعداد الحاويات مختلفة الأحجام والفتائل، عدا الخلط؛ لم أغير قناعتي بشأنه.

في حين أوليت فارس ويزن -في غير أوقات الخلط- تعيين القائمين على التدريب لكل من يستطيع حمل السلاح من ذكور وإناث ومتابعة هذا الأمر، ما بين رماة السهام والمبارزين وملقي الرماح، خاصة مع تزايد الأعداد، بينما لم يتوقف العمل في إنتاج تلك المعدات، إلى جانب غنائمنا التي تجاوزت الألف سيف ودرع.

إلى أن بدأت في بناء الراجمات التي ستحيط بحواف سلسلة الجبال بعد قرابة شهرين من المعركة، وحينها جاءنا نبأ الاحتفالات لدى مملكة الشمال بحمل الملكة مارينا لولي العهد، بينما كنا نجتمع أنا وأكمل وفارس ويزن في مقر خلط البارود، ذات ليلة احتجب فيها القمر وتدثرت النجوم بالسواد.

لم أدرِ لم هبط الخبر فوق رأسي كالصاعقة. تركت صحبتي طالبًا منهم ألا يتبعني أحد، وصرت أهيم وحدي لدى الجبل خارج القرية حتى بلغت حرفًا يطل على البحر، جلست فوق صخرة ناظرًا نحو ظلماته التي لا تدنو من ظلمات قلبي محادثًا حالي مبتئسًا:

- هل ظننته لن يمسها؟

- لم أجيل ذلك في ذهني من قبل.

- إذن ماذا دهاك؟ هذا حال الحياة.

- كل ما في الأمر أن ذلك النبأ جاء ليؤكد زواجهما.

- وهل كان لديك شك في ذلك؟

- لا أعرف، من الممكن تسميتها حالة إنكار.

- قد آن أوان زوال تلك الحالة.

- صحيح، إلا أنني لن أتوقف عن عشقها.

- لكنها نسيت، وستصبح قريبًا أم الملك المنتظر.

- قلبها يذكرني.

- دعك من هذه الحماقات.

- ووعدي لها بالرجوع؟

- هل يجوز تنفيذ وعد لمن نسيه؟ ارتضِ وحدتك في هذه الأرض الغريبة.

- بل هم من أنسوها، ولا تفت في عزمي، فأقسم برب المشارق والمغارب لن يمنعني عنها سوى الموت.

- إسراء.. يا من لست مارينا.. أنا لست وحيدًا في هذه الأرض، فلا زلت في صحبتك ولا زلت عند وعدي.

عدت عند بزوغ خيوط الشروق نحو القرية التي صار يشغي داخلها وخارجها كخلية نحل، بينما انشغلت آربوس الشمالية باحتفالات دامت لشهر أنهيت فيه قسمًا كبيرًا من بقية استعداداتي. زدت تدعيم أسوار القرية وألغام دروبها، ووضعت الراجمات فوق حواف سلسلة الجبال شمالًا لدى عدة نقاط متباعدات في مواجهة آربوس الشمالية حتى مقربة بالميري، ولم أضع راجمات ناحية الجنوب وفقًا لحالة السلام بيننا، وذلك قبل أن تعود المناوشات من

جديد ما إن فرغوا من احتفالاتهم.

لم يبعثوا جيشًا كبيرًا مثل المرة الأولى، بل بدا أصغر من سابقه، وما إن اقترب من سفوح سلسلة الجبال ناحية الشمال حتى رجمناه بالمقذوفات، ليعودوا من حيث أتوا مرة أخرى.

تكررت المناوشات أكثر من مرة على مدار شهور، ليعتريني الشك بشأنها لا سيما أنهم أخذوا يقفون قبل مدى راجماتنا. ظننت أنهم يريدون استنفاد بارودنا، لكني لم آبه لهذا محتفظًا بالبارود لحين اقترابهم فقط، وركزت في تلك الفترة على مواصلة تدريبات أبناء القرية على القتال وخطط التحرك عبر قمم سلسلة الجبال استعدادًا لأن يجد جديد، وتمهيدًا لنزول الأرض يومًا ما. قسمت السرايا ما بين حاملي سيوف أو رماح أو رماة معينًا قادتها، وموزعًا ملقي القنابل الصغيرة بينها، والذين أوليناهم اهتمامًا جمًا بصنع حاويات مبطنة تُحمل على الظهر لحمل القنابل الصغيرة والتعديل فيها مرة بعد مرة، مع تحديد أعداد لتبقى منتظمة في هذا الجيش من أبناء القرية، وأعداد أخرى يتم تدريبها ثم تنصرف لشؤون الحياة على أن يتم استدعائهم حين الحاجة.

رافق كل ذلك أني أخذت أغرس في صدور الجند، بل وفي صدور سائر أهل القرية معاني الحرية والكرامة والانتماء لهذه الأرض التي احتوتهم من خلال لقاءات في المساء على أضواء المشاعل في المنطقة المستوية خارج الأسوار أو خطب ما بين حصص التدريبات، مذكرًا إياهم بحقيقتهم، وأنهم وأولئك الذين يقطنون المملكتين سواء فرقهم جشع الإنسانية وظلمها غرست فيهم الإقدام على الحياة حتى لو أضحى السبيل إلى ذلك هو الموت، فالأقسى من الموت أن تعيش مفتقدًا لأهون مقومات الحياة.

maktabbah.blogspot.com

إلى أن جاءني ذات يومٍ أحد المتلصصين مضمدًا إثر سهمٍ اخترق كتفه، ليخبرني أن بقية فريقه قتلوا بينما استطاع الإفلات بصعوبة نحو آربوس الجنوبية التي أمنه جنودها، وأن جيوش آربوس الشمالية تتجمع منذ شهورٍ لدى قرية غولار، حيث يصلونها فرادى دون تشكيلات عسكرية لكيلا يثيروا الانتباه قبل أن يأخذوا في التسلل عبر الغابة المحيطة بنهر جودي مبتغين وصول السفح السفلي لمنتصف سلسلة الجبال، تحديدًا عند مهبط شلال بالميري، دون أن يعلم أين بلغوا.

أدركت أن في الأمر غدرًا لمرة أخرى، فهذه المنطقة لم نضع بها راجمات بالأعلى فوق الجبال، حيث تمنعنا البحيرة الضخمة، كذلك تتشابك الغابات على الأرض تحتها لذا يصعب مراقبتها، بل ولا نستطيع إلقاء القنابل اليدوية من تلك المسافات البعيدة على جانبي البحيرة.

عقدت اجتماعًا على عجل بعد أن أرسلت متلصصين جدد ليستكشفوا أمر تلك القوات التي صرت على يقينٍ أنهم يعرفون الدرب الذي سيصعدون من خلاله أو النفق الذي سيسلكونه حتى يبلغوا القمم فذلك هو استكمال الخيانة. وعندها قررنا أن نفض الخيام مغلقين أبواب القرية، إلى جانب إرسال الرماة وبعض ملقي القنابل اليدوية ليتخذوا مواقعهم فوق الأخاديد ومخارج الأنفاق على جانبي بالميري، في الوقت الذي بعثت فيه بعضًا من أبناء قبائل المنطقة الوسطى ليتسللوا كامنين بقنابلهم لدى أنفاقها الصاعدة فهم أكثر دراية بتلك المنطقة التي كانوا يقطنونها، مع استدعاء كافة أفراد المحاربين وتجميعهم استعدادًا للحرب خارج القرية إن بلغت تلك القوات المهاجمة قمم جبالنا، فلن نتركهم هذه المرة -إن عبروا الأنفاق أو صعدوا القمم من حيث لا ندري- يحيطون القرية بأعدادهم الكبيرة، التي قد تعجز قوانا المتأخرة في صدها، بل سنجعل أولى خطوط دفاعاتنا خارج القرية وثانيها فوق أسوارها.

في اليوم التالي جاءني المتلصصون ليخبرونني أن الأعداد في الغابة ليست كبيرة كما تخيلنا، لذا ظننت أنها خديعة وأنهم يريدون مهاجمتنا من الشمال، في حين يلهوننا من المنتصف، فأرسلت من يستكشف أخبار الشمال، بينما يجري توزيع القوات في المنطقة المحيطة ببالميري، ليأتي الخبر بأن ثمة قوات ضئيلة كسائر المناوشات السابقة.

صرت في حيرة من أمري ليومين مضطربًا متوجسًا إلى أن جاءني في منزلي أثناء اجتماع مع رفقتي وقادة السرايا عند الشروق، من أخبرني أن هناك سيدة من الوافدات تبتغي لقائي ليست من سكان القرية. أذنت بفتح الأبواب لها وإدخالها، ليخفق قلبي لمرآها.

ميرا..

التي لولا وجود قادة المحاربين إلى جواري لاحتضنتها، في حين بدت شاحبة تنهج من فرط الإعياء قبل أن تقول:

«كل ما ترونه حولكم مجرد تمويه ليس إلا».

قطبت حاجبي واعتلى الاندهاش قسمات الرجال، لكنها استكملت:

«هناك خيانة تحاك من أجل الإيقاع بكم، أتعرف ذلك الكهف الذي أخذتك منه يوم فرارك جريحًا؟».

- ماذا به؟

- يتسلل منه الجنود قادمين من البحر عبر زوارق صغيرة مساءً منذ عدة ليالٍ، صاروا

يتجمعون في كهف قبيلتنا، وكهفين آخرين، بينما يصطحبون راجمات ضخمة مفككة، حتى صاروا بالمئات هناك، وما إن زادت أعدادهم حتى تسللوا عبر الأنفاق نحو موضع بالقمم يتوارى بين المرتفعات التي لا تتخللها مساراتكم في المساء السابق، حيث بدأوا في تجميع الراجمات، بينما يحميهم من وصل من القوات التي لا يتوقف تدفقها كل مساء، مبتغين تكوين ثغرة ما بين تمركز جنودكم بشمال قمم الجبال وقريتكم التي في منتصفها. سيهدمون القرية بواسطة تلك الراجمات الضخمة بأهلها ومبانيها وبارودها قبل أن تهجم قوات لا قبل لكم بها إن لم تستبقوا ذلك إليهم.

ما إن انتهت حتى انتفضتُ واقفًا مغيرًا خططي، حيث أدركت لما تأخر هجومهم كل تلك الفترة، فقد اتضح أنهم كانوا يعدون لنا شركًا محكمًا. أرسلت من يجمع الكثير من الجنود الذين وضعتهم عند المنطقة المحيطة ببالميري تاركًا أمر القوات الموجودة في الغابة لأولئك الكامنين بالأنفاق، مع قلة ممن تركتهم حول ضفاف بالميري، قبل أن أرسل فرقة كبيرة من خمسمائة فرد بقيادة فارس رفقة ميرا لتدمير ذلك الكهف الذي يلجون منه قبل قدوم المساء، وتدمير معداتهم القابعة بالكهوف الكبيرة، وأسر رعاة القبائل المتواطئين، على أن يلحقوا بنا نحو موضع الراجمات بمجرد أن ينتهوا من خلال نفس الأنفاق التي استخدمها أولئك الجند في الصعود، ثم يدمرونها هي الأخرى، وانتظرت تجمع القوات التي أرسلت في طلبها حتى بلغونا وخرجنا في ألفين مقاتل منتظمين في عشر فرق، متجهين نحو البقعة التي أخبرتْ ميرا عن موقعها لأكمل الذي رافقني قائدًا لسرية مبارزين، بينما قاد يزن سرية الرماة، بعدما تركنا في القرية حامية صغيرة من النساء.

ما إن اقتربنا من سهلٍ يسبق المرتفعات التي تحد موقع تجميع الراجمات قبيل الغروب حتى انهالت علينا سهام رماتهم الذين كانوا كامنين فوق تلك المرتفعات، لتتشتت صفوف جندنا، ويفر بعضهم، ويرفع حائزو الدروع دروعهم اتقاءً لتلك السهام، قبل أن نتراجع بعشوائية نحو المدى الذي لم تعد تصبنا فيه سهامهم.

صرخت بإعادة تنظيم الصفوف، إلا أنني قبلما أجيل بذهني الموقف الذي بتنا خلاله لا نقدر على إلقاء قنابلنا اليدوية لأنها لن تصلهم، وتشتُت صفوفنا الذي حدث؛ وجدنا قواتهم تراصت لدى أعالي المرتفعات وبدأت هجومها سريعًا.

أطلقت صراخًا بإعداد القنابل اليدوية وإلقائها ما إن يقتربوا، وقبل أن يبلغوا مرماها صرخ يزن لجنوده أن يطلقوا سهامهم التي يتخطى مداها مدى القنابل، ليصيبني الوجل حين أدركت أنني من هول الصدمة بدأت أفقد تركيزي، ونسيت الأمر برمي السهام، ولولا أن عالجه يزن لخسرنا تلك الميزة.

وعلى الرغم من الأثر الفعّال للسهام، ثم القنابل التي تلتها، إلا أنهم لم يسعفونا قبل أن تشتبك معنا تلك القوات المندفعة بشراسة، ليصير إلقاء القنابل فيهم مصابًا لنا ولهم، ورمي السهام ذا أثرٍ محدود.

بدوا مقاربين لنصف قواتنا لكن أكثر دراية بالقتال، حيث اخترقوا الصفوف وصاروا يعملون القتل فينا، بينما نقاوم قدر استطاعتنا حين التف حولي أكمل ومعظم جنود فرقته ليدفعوا عني القتل الذي أخذ يزيد في قواتنا للدرجة التي لو استمر عليها سيفنوننا خلال ساعتين، لأتخذ عندها أقسى قرارٍ من الممكن اتخاذه، حيث لاحظت أن ميسرة جيشهم قليلة الأعداد، لذا صرخت في أكمل أن يصطحب الجند الذين يحملون على ظهورهم القنابل من بين المحيطين بي أو ممن يستطيع جلبهم، ثم انسحبت بهم إلى يمين ساحة القتال الدائر، بينما أصرخ في كافة الجند بالثبات والمقاومة لأجل أطفالهم ونسائهم في قريتنا، فيتبعني بالصراخ كافة قادة السرايا.

حماني أكمل وفرقته الذين تلاحموا ليجعلوا بيني وبين القتال الدائر سدًا حالمًا ارتكزت أنا وبعض الجند خلفهم. صرنا نشعل القنابل ونلقيها في قلب ساحة القتال على أقصى ما تهبنا أيادينا فوق الكتل البشرية المتلاحمة، ليتفرق الجند من جيشنا وجيشهم متطايرين الأجساد، بينما ولى هاربًا من لم تصبه القنابل من الفريقين، حيث تراجع بعض جندنا في اتجاه القرية، في حين تراجع جنودهم ناحية المرتفعات محاولين إعادة تنظيم جيشهم عند مدى لم تصله القنابل، لكن بعدما أصابهم مصاب عظيم.

في ذات الوقت حاد نحو فرقة أكمل الكثير ممن لم يهربوا من جندنا ليساعدوه في مواراتي وحمايتي أنا ومن معي من ملقي القنابل، وليحتموا بقوتها بعيدًا عن مواضع وقوعها، وحينها صرخ فيهم أكمل: «**ألحموا الصفوف فلا يمر من بينكم أحد حتى ولو بجثثكم**».

لكن يزن قام بعملٍ لم يدر في خلدي للمرةِ الثانية، لم يكمل هروبه رفقة الهاربين، بل صرخ في بقية فرقته أن يثبتوا، وفي الوقت الذي أخذت فيه قوات آربوس تنطلق نحو موقعي من جديد بعد أن نظموا فلولهم؛ انطلقت سهام رماتنا نحوهم تحصد منهم الكثير، ولحقت بها القنابل التي منحنا ابتعادهم عن قواتنا فرصة إلقائها عليهم وحدهم مرة أخرى مستبقين قدومهم، بينما بقينا خارج مرمى سهام رماتهم المرتكزين فوق المرتفعات.

بالإضافة إلى ذلك أخذ يزن يصرخ في جنود فرقته تارة، ويصرخ في باقي الجند بالعودة تارة أخرى، حتى التحمت بقية قوات آربوس المهاجمة في الجدار البشري أمامي الذي صمد هذه المرة ولم يتفرق حتى عندما سقط أكمل صريعًا، إلى أن عادت بقية قواتنا مرة أخرى ليحاصروا بقية ذلك الجيش ويفنونهم عن بكرة أبيهم بعدما قُتل ما يقرب من ثلثي جنودنا

بأيديهم وبيدي.

عندها أمرت الجند بمطاردة رماة سهامهم واغتنام الراجمات بينما بدا مصابي عظيمًا، جثيت على الأرض محتضنًا جسد أكمل المسجّى أمامي وصرت أبكي، بينما أنظر إلى مئات القتلى والجرحى الذين قتلت منهم الكثير بيديّ، إلى أن اجتذبني يزن آمرًا الجند برفع جسده. كفكفت دموعي واجمًا يعلوني الأسى حتى جاءني فارس وميرا عند الغروب بعدما أتما مهمتهما، هالهما ما رأيا إلا أنهما واسياني بالنصر الذي تحقق، وصارا يخبرانني بينما بقيت على ذات شرودي وأسفي أن مهمتهما أنجزت على أتم وجه، حيث لم يقاومهما سوى قلة من رعية القبائل المتواطئين، قتلا منهم البعض وأسرا آخرين، ولما رأياني مطرقًا لا أنطق؛ اصطحباني آفلين نحو القرية، بينما استمر عمل الجند في نقل المصابين والقتلى نحوها كي ندفنهم في قبورٍ تليق كما أوعزت إليهم قبل رحيلي، لأبقى على ذات حالي بعد الدفن طوال ليلتي، في حين يواسيني فارس وميرا على فقدان أكمل، وأني قمت بما لزم فعله، ولولا فعلتي لانهار كل ما بنيناه، في حين اضطلع يزن ومن نجا من قادة الجند بباقي ترتيبات الدفاع من وضع نقاط مراقبة لدى حواف الجبال المطلة على البحر، وتدعيم قواتنا المرتكزة عند شمال ووسط قمم الجبال، وإعادة تنظيم باقي الجند في مواقعهم.

علمت بعد يومين أن تلك القوات التي تمركزت عند الغابة والسفح الشمالي انسحبت، وحين استنطقنا أسراهم أخبرونا أنهم كانوا ينتظرون إشارة من أجل الهجوم. ثم حان بعدها وقت الحساب، حيث اتضح أن أشد الخائنين ثلاثة رعاة، وُعدوا بصكوك معمرين وإقامة في المملكة الأم هم وبعض ممن بقي معهم من قبائلهم التي تفرق معظمها إثر رحيل أهلها نحو قريتنا، أحدهم كان الراعي الذي ضمد جرحي، والذي شفعت له ميرا بأن شهدت أنه مغلوب على أمره لأن ابنه من تولى ذلك الاتفاق وقُتل أثناء مقاومته هجوم فرقتنا، ورعاة قبيلتين أخريتين تم أسرهم.

في الصباح التالي أمرت بجمع الخلق وسط القرية، حيث أعلنت حكمًا بإعدام الراعيين قبل تعليق رقبتيهما على أعلى قمة في الجبال ليكونا عبرة للقاصي والداني، حالما أمرت بحبس الراعي الذي ضمدني كرامةً لودٍ سالف، ولشهادة ميرا بشأنه، ويكفيه ما لاقاه من موت ابنه، إضافة إلى حبس بعض المأسورين من قبيلته ومن القبيلتين المجاورتين ومن جند آربوس، من ثمّ خطبت في أهل القرية ما إن أتممنا قطع رقبة الخائنين قائلًا:

«من الآن سيكون العقاب صارمًا، من أراد أن ينضم إلينا لا نرفضه، أما من يخون هذه الأرض سيُفعل به الأفاعيل في المرة القادمة. من الآن أقسم أنهم لن يغزونا في الجبل مجددًا، وإن فعلوا ليكون به هلاكهم».

ليعلو هتاف لم أبتهج له كالماضي، لا سيما وغصتي لم تفارق حلقي بعد. وفي ليلتها خرجت نحو حافة الجبل المطلة على البحر مرة أخرى، لكن هناك من تبعني، ما إن اقترب خلف ظهري حتى عاجلته: «**تصرين على إنقاذ حياتي للمرة الثالثة**».

ضحكت وأردفت: «**لكنك تصر على حبها**».

رددت وأنا على نفس حزني الذي لم يتزحزح:

«**أين تواريتِ كل تلك الفترة؟**».

جلست إلى جواري وأجابت: «**عندما عدت إلى القبيلة عاقبوني على هروبي، لا سيما وقد استنتجوا أنني أمعنت في الهرب لأساعدك، في حين بقوا في العذاب لثلاثة أشهر. لم يدرك الراعي حين احتضنك أنك ستكون سببًا في كل ذلك الوبال الذي لاقوه، لدرجة أنه تمنى أن أعيدك نحو القبيلة ليأسرك الجنود، ولما عدت أنا قرر حبسي لمدة عام كعقاب، لكن ابنه الذي خانك تزوجني فوق زوجته**».

عقدت حاجبي لتستأنف: «**نعم، الذي قُتل، أجبروني على الزواج منه، فالراعي هو ولي كل فتاة في القبيلة، وطالما ابتغى ابنه زواجي وأبيت، لكن ما إن صرت منبوذة بينهم، أمعن الراعي في عقابي بهذه الزيجة التي يعلم أني أرفضها، من وقتها لم يترك لي ابنه مناصًا للهرب حتى علمت بغدره، فاستمتُّ في هروبي نحوكم، ثم عدت رفقة تلك القوات لأطهر الجبل من رجسه**».

- هل إنقاذي أهم من إنقاذ نفسك؟

- أتدري؟ أشعر أنني لن أموت إلا فداءً لك، لم ينبض قلبي سوى بحبك.

صمت لبرهة لا أعرف ماذا أقول، ثم رددتُ مغيرًا وجهة الحديث: «**وأين أخواكِ؟**».

زالت ابتسامتها على حين غرة، فقد كانت دومًا سريعة التقلب بين المشاعر، لأدرك قبل أن تنطق من دموعٍ ترقرقت في عينيها أن جنود آربوس أخذوهما. احتضنت رأسها إلى صدري قائلًا:

«**هل أخذوهما؟**».

أومأت بمعنى الموافقة، لذا واصلت:

«**أعدك أنني سأحررهما قبل سنواتهما السبع**».

كفكفت دمعاتها واعتدلت: «**صدقًا؟**».

أومأت بمعنى الموافقة، لتواصل:

«حتى وإن وافتني المنية قبلها؟».

ابتسمت وقلت:

«بل سنحقق ذلك قبلها لتعيشوا سويًا أبد الدهر».

أخذتنا الأحاديث من بعدها حتى أشرق اليوم التالي، لأبدأ من جديد في استيعاب دروس المعركة الأخيرة، ممهدًا لوعودي التي صارت تتراكم فوق بعضها ولن يحلها سوى النزول لهم.

قلعة سرابوس

بعد الحرب بليالٍ معدودة، أعلنوا مولد ولي العهد ابن الملكة ماريانا، من أطلقوا عليه اسم جاد، بلغني أنه أشبه بأمه، لذا تمنيت لو أراه على الرغم من كونهم سيرضعونه كرهًا لذلك المارق المتمثل في شخصي، بينما لا أدري ما صار إليه انطباعها عني، هل تتعاطف مع المجرم الذي يقض مضاجع أهل القصر وأهل مملكة الشمال برمتها، أم أنها لا تراني سوى عدوٍ لملك ابنها المستقبلي؟ هل لا زلت أراود أحلامها، أم بتُّ غريبًا حتى عن عقلها الباطن؟ ألف يا ترى وألف تساؤل، لكني انشغلت بعدها عن احتفالات آربوس التي ستدوم لشهورٍ في تعلم دروس المعركة الأخيرة، من دون تسرع أو ضغوط، لا سيما وقد صرت على قناعةٍ بأنهم لن يقدروا أو بالأحرى لن يحاولوا اختراق الجبل من جديد، إلا أن قناعتي الأكبر ودرسي الأول تمثل في اعتبار أمر الحرب على الأرض ضربًا من المستحيل في أوضاعنا الحالية وإن امتلكنا البارود، فجنودهم أشد منا بأسًا، أكثر تدريبًا وعددًا، بل قادرين على تحييد أمر تلك القوة التي نتميز بها عندما تتلاحم الجيوش، إلى جانب افتقارنا للخيل والفرسان الراكبين الذين لم نواجههم بعد، لأخلص إلى يقينٍ ثابت وهو أن تحصننا في موقعٍ مجهز للدفاع بحنكة هو ما يعصمنا عنهم ويزيد من خسائرهم كلما حاولوا الاقتراب، لهذا فإن منطقة الغابات مثلت نقطة ضعفٍ وعدم مراقبة البحر يعد ثغرة كبيرة، كذلك تيقنت من ضرورة وضع أعين لنا بكهوف الجبال التي تسكنها القبائل التي صار يتوافد أهلها من بعد حربنا الأخيرة، ولكن بقي هناك شرذمة قليلة من رعاةٍ تغلغل الكبر في أنفسهم رافضين أن يصيروا تابعين لدى قوة حقيقية بدلًا من كونهم متبوعين لدى جحور الفئران، وهؤلاء هم الأكثر خبثًا، بينما بقي في رفقتهم بعض من الخائفين أو المعاندين، أما درسي الأخير تعلق بقواتنا التي بدا أنه يلزمها الكثير من التمرس على الالتحام والقتال الحقيقي وليس المبارزة في ساحة تدريب، حتى وإن بقي أمر الحرب على الأرض انتحارًا.

صدق توقعي وعشنا سنتين من السلام أتممنا فيهما توسعات في القرية في اتجاه البحر حتى بلغنا قمة الجبل المطلة على ساحل البحر لدى سفح تضربه الأمواج بشدة، بعد كثير من الردم أو التمهيد بواسطة البارود، لتصير هيئتها كهيئة الممالك وليس القرى، صارت ذات دروب متقاطعة وبعض منازل من طابقين، في حين تركنا في قلبها ساحة دائرية خالية، كذا دعمنا أسوارها بطبقاتٍ من الصخور إلى الحد الذي صارت عليه تلك الأسوار لا تنهار بقصف البارود من بعيد، بل يستلزم تدميرها ثقب حفر فيها وملئها به قبل تفجيرها.

مددنا فرعًا صغيرًا من بالميري إلى بحيرتنا الصغيرة منشئين سدًا فوقه عند حافة الأولى كي لا يجف ماؤنا طوال العام، بينما تخلله عن جانبيه مواضع لزراعة الغلال، إلى جانب

زراعتها في بعض الوديان، ليتبع ذلك تبادل بعض المنتجات والسلع كالأسماك مع آربوس الجنوبية، وتظهر الملابس الكتانية بيننا.

أنشأنا دارًا لتعليم الصغار القراءة، الكتابة، الرسم، والتاريخ الحقيقي الذي يحكي أن أصل آربوس هم الوافدون الذين يجيئون من بلادٍ غريبة حالما أشرفت على تلك الدار بنفسي، تزامن ذلك التطور داخل القرية مع تحديد ساحات لتدريب الجند خارجها وإعدادهم على الصمود والتلاحم والاندفاع، كذلك تدريب الرماة على تكتيكات جديدة لا سيما مع بزوغ أفضلية السهام في بعض المواضع، حيث جرى التدريب على استخدام قنابل صغيرة للغاية تعلق بالسهام، ثم تطلق بعد إشعال فتيلها، إما لتفجيرها بين جند العدو من أبعادٍ تجاوز مرمى الأيادي أو لأجل تفجير بارودٍ مدفون في الأرض دون مشعلين كامنين.

ومن أشد ما أوليته اهتمامي هو إنشاء قلعة صغيرة عند السفح السفلي للمنطقة الوسطى من الجبال، تحديدًا على ضفة نهر جودي إلى جوار مسقط الشلالات لتلافي ثغرة الغابة، وكي تكون لبنة نزولنا للأرض، حيث بدأنا في تشييدها أثناء شهور الاحتفالات بولي العهد، بينما تغطينا الأشجار المرتفعة في تلك البقعة التي لا تبلغها دوريات جند غولار، رفقة حذر وروية شديدين وأثناء الليل وحسب، حيث بنينا ثلاثة أسوارٍ خلال الجذوع، في حين كان الرابع الخلفي هو سفح الجبل ذاته، الذي تخلله نفق صاعد استخدمناه لنقل مواد البناء على أن يبقى لأجل الانسحاب لأعلى في حالة سقوط تلك القلعة. أتممنا دفاعاتها وراجماتها، بينما استطعنا تثبيت بعض راجمة من التي اغتنمناها على حواف بحيرة بالميري فوق القمم أعلى القلعة، لنبقى على استغلال ميزة الجبل لصالحنا، ثم قمنا بتلغيم القلعة ذاتها، وتلغيم النفق الصاعد، حتى إذا ما اضطررنا لانسحابٍ نهدمها فوق متعقبينا. سيطفئ الأنوار آخر المنصرفين، قبل أن نبادر في الأخير إلى إزالة الأشجار داخلها، وتوزيع الجنود فوق أسوارها، في حين بقيت محاطة بالأشجار خارجها حتى ذلك الوقت.

أتممنا ما أردنا خلال السنتين، نسونا فيهم ولم أنسهم، لكن ما إن بلغهم أمر القلعة التي ظهرت على حين غرة بين الأشجار حتى بدأت هجماتهم التي صمدت القلعة في مواجهتها بفضل الرماة والقنابل اليدوية والراجمات العلوية التي أشعلت الغابة أمام القلعة على مسافاتٍ بعيدة، لنبتدر بين هجماتهم وبعضها إزالة الأشجار الرابضة أمام القلعة على مراحل، وكلما أفرغنا مكانًا وضعنا محله الألغام التي تشعل بواسطة السهام لتقل قدراتهم على مهاجماتنا أكثر وأكثر، ويدرك قادة جندهم كما ندرك؛ أن تحصننا يمنع اقترابهم ويزيد خسائرهم كلما هاجموا.

ما إن توقفت هجماتهم على القلعة لشهرٍ بما أوحى رضوخهم لوجودنا على الأرض لأول

مرة؛ أعلنت عن إقامة احتفال في ساحة القرية في ليلة اكتمال القمر، موعزًا بتسمية مملكتنا باسم مملكة الوافدين، واعتبار أول تابع لها على الأرض هو قلعة سرابوس، على أن يصير ذلك اليوم عيدًا سنويًا لنا. لم أشعر بقيمة هذا الأمر إلا عندما رأيت الابتهاج والحبور مرتسمًا فوق وجوه أهل المملكة كبارًا وصغارًا من قبل ليلة الاحتفال بعدة أيام كأنها لأول مرةٍ تُبنى، لكني لم أبتغِ احتفالًا إلا بعد نصرٍ حقيقيٍ على الأرض، الذي تحقق بإتمام القلعة ورضوخهم لوجودها.

في ليلتها أُضيئت المشاعل أعلى قوائم نصبناها في قلب الساحة الكبيرة، وفوق أسوار القرية والمنازل. وزعنا الطعام والشراب على أهل المملكة الذين تراصوا في دائرةٍ كبيرة تاركين في قلبها دائرة فارغة استعرض فيها بعض الجند مهاراتهم في القتال، بعدها قامت بعض النساء يتراقصن في دائرةٍ على أصوات تصفيقهن كعادتهن في الأعراس، بينما توسطتهن ميرا التي ارتدت ثوبًا كتانيًا أزرق كلون عينيها أظهرها كحوريات البحر بل أكثر جمالًا، قبل أن تجتذبني إلى منتصف دائرتهن راقصة بقدميها، لتلتف دائرة رجاليٍ حول دائرة النساء مصفقين حالما حاولت أن أجاري نغمة تصفيقهم قدر استطاعتي. كانت أسعد لياليهم، لكني احتفظت بقناعة مؤداها أن أسعد لياليّ لم تأتِ بعد.

مرت سنة أخرى من بعد إعلان مملكتنا، زدت فيها تدعيم أسوار قلعة سرابوس ودفاعاتها، بينما ازدهرت الحياة في القرية التي صارت آمنة مطمئنة، حين جاءت الأنباء بوفاة الملك زايد، وتعيين الملكة مارينا وصية على عرش الملك جاد ابن زايد.

ابتهجت لذلك أشد الابتهاج لاعتباري أن إحدى عقد وصولي إليها قد خلت. صار يتقاذفني الحنين إليها ضاربًا أمواجه المتلاطمة في صدري كضرب تلك الأمواج بسفح الجبل على حافة مملكتنا، وما زاد من حبوري أنني اعتقدت إمكانية تسوية أزمات هذه الأرض بطريقةٍ سلمية، مرجحًا أنها وإن نسيت ما كانت عليه إلا أنها ستظل محتفظة بأخلاق قلبها اللين، لذا وبعد أن بلغ مسامعنا أنها صارت الآمر الناهي بشأن مملكة الشمال، وبعد كثيرٍ من التفكير والمشورة، أرسلت لها رسالة طالبًا السلام، على أن تتحسن معاملة الوافدين عمومًا ويصيروا مواطنين أحرار يتنقلون بين الممالك الثلاثة بحريةٍ بحثًا عن الحياة والعمل، وألا تطبق قاعدة السنوات السبع على أهل الجبال، في حين يستمر تطبيقها على وافدي البحر.

إلا أن الغريب الذي لم أتوقعه أنها أمرت بإعدام الرسول قبل تعليق رأسه على بوابة المملكة الشمالية، تلك البوابة التي شهدت أول احتضانٍ بيننا حين دفنت رأسها في صدري ليتشرب دفقات دمعاتها وانتفاضات جسدها.

صرت أتساءل في ليلة ذلك الخبر بينما أجلس لدى شرفة المنزل الذي اتخذته مطلًا على

البحر:

«هل لهذه الدرجة قسي قلبك؟

ماذا فعلوا بكِ لتتغيري إلى هذا الحد؟

حتى أضحيتِ مارينا ولستِ إسراء..

لكن أيًا كان اسمك..

إسراء..

مارينا..

لا أقدر على أن أملأ قلبي سوى بحبك».

بعد ساعاتٍ من التخبط خطر في بالي ذلك الراعي الذي كشف لي أسرار آربوس منذ سنواتٍ خلت، متسائلًا عما إذا بقيَ لديه المزيد من تلك الأسرار أو حتى مزيد من التفاصيل عما أخبر، متأملًا أن أجد لديه حلًا لأمرها فتعود إلى سابق رشدها، إلا أن الوقت بدا متأخرًا على الذهاب إليه، لذا عدت إلى شرودي لبرهةٍ قبل أن تعاجلني طرقات أحد حجاب داري ليخبرني أن فارس لدى الباب، أذنت له بالدخول، فما إن جاءني وجلس إلى جواري على مقعدٍ خشبي في شرفتي حتى ابتدرني مشيحًا وجهه ناحيتي:

«يبدو أن ما فعلته تلك الملكة الشمطاء أضاق صدرك وانتويت أن تقدم على ما أتوق إليه».

تنهدت بزفيرٍ طويل.

- أتدري من تكون تلك الملكة الشمطاء؟

- زوجة الملك زايد الشامط.

قهقه كعادته إلا أنه توقف حين لاحظ جمود ملامحي.

- إنها حبيبتي التي رافقتني من أرضي الغريبة.

اعتلى الذهول نواصي وجهه بينما أملت رأسي نحوه شاردًا بنظري.

- إن قدّر لي الوفاة في هذه الأرض قبل أن تصير لنا، وقدّر لكم الانتصار من بعدي، فلا تهنها وأحسن إليها، واكتم ذلك الخبر بيننا.

- لن يكون هناك نصر دونك.

- هذا ما أبتغي تغييره أيضًا، علموا الصغار الكرامة والعزة قبل القراءة والكتابة والرسم، أن يكونوا أبطالًا حقيقيين، علموهم الشرف والانتماء إلى الأرض، علموهم مقاومة الظلم مهما اشتد، وأن الحق أشد، لتصير هذه المملكة من بعدي وطنًا مليئًا بالأبطال، فالوطن يعيش بأبنائه وليس بالتراب والمباني والأسوار.

لانت ملامحه قبل أن يجيب:

«لا تقلق على هذه الأرض التي ارتوت بالدم والعرق، لكنك سترى نصرنا، أقسم لك أنك ستراه».

عندها غيرت دفة ذلك الحديث سائلًا عن الراعي وكيف حاله، لا سيما وأنني راعيت بأن يصير حبسه كتحديد إقامة إجباري وليس حبسًا حقيقيًا، ليرد قائلًا: **«ميرا هي من اعتادت زيارته».**

عاد لقهقهته.

- إن تلك الفاتنة الشقراء سلبها حبك الحياة فلا ترى سواك، بينما أضلعك تحوط قصر الملكة.

- لم لا تتزوجها يا فارس؟

- أقول لك لا ترى سواك وتسألني لم لا أتزوجها؟!

- ولم لم تتزوج غيرها؟

- لم أرَ من هي أجمل من تلك الصورة بعد، وهل يجوز أن ألقي بها في الأسر بحماقتي وما إن تولّي أسارع أنا للزواج؟! لم تمر سنواتها السبع ولا زلت على أملٍ في تحررها.

طرق الحاجب باب الدار مرة أخرى لأعرف القادم قبل دخوله، هي ميرا التي اعتادت زيارتي في غير أيام الكد والعمل الشاق، يقينًا توقعث انحدار مزاجي بعد مقتل الرسول، فجاءت لتروح عني، لكن فاجأها وجود فارس حين ولجت إلى الشرفة، إلا أنها ألقت السلام ثم بادرت إلى الجلوس على مقعدٍ ثالث شاردة بنظرها نحو البحر.

اشتد عودها، صارت لبؤة صعبة المناص، قوية الشكيمة، تقاتل مثل الرجال، إلا أنها ما إن تقترب مني حتى تصير هرة أليفة مستكينة، لا أعرف ما الذي ارتأته بشأني على مدار هذه الأعوام ليجعلها في تلك الحالة؟!

بعد قليلٍ من الحديث بشأن مملكتنا غادرنا فارس، لتقترب ميرا إلى الكرسي المجاور.

- ساءك ما حدث للرسول؟

أخرجت زفيرًا متراخيًا.

- إلى حدٍ لا تتخيلينه.

- إنها ترتعد خوفًا منك، وترتعد خوفًا على ملك ابنها.

- فتقتله؟

- إن هذا لهو الرد الأقسى حتى تثبت أنها ليست أنثى ضعيفة تستمال بطلب السلام من ذلك الشاب الذي غير موازين هذه الأرض.

اكتسى وجهها بابتسامةٍ أحسستها دون أن أراها قبل أن تستأنف:

«ثم من الأكيد أنها علمت بقدر وسامتك وشدتك».

ابتسمت مغيرًا دفة الحديث.

- كيف حال الراعي؟

ناظرت البحر من جديد.

- زاد عمره أضعاف السنين التي ولت حسرةً على موت ابنه، لكنه لا يحمل لك ضغينة ولا لهذه الأرض، بل أصبح يراك صاحب نبوءة حقيقية.

- أريد مقابلته.

- في الصباح نذهب سويًا.

- بل أبتغي أن ألقاه وحدي.

اقتربت بمقعدها حتى تلامس كتفينا قبل أن تميل رأسها على كتفي.

- أصبحت تُخفي عني كثيرًا من الأمور.

ابتسمت.

- بل أنتِ من تغيرتِ.

انتفضت رافعة رأسها متكلمة بحزمٍ.

- من؟ أنا؟ أنا التي ارتضيت أن تراني أختك الصغرى كما تقول دومًا، وأراك حبيبي الأوحد بينما يمر العمر دون أن أعرف لهذه الحكاية نهاية، من تغيرت؟

جذبت رأسها لأضعها على كتفي مرة أخرى بينما أبتسم.

- هل لا ترين أي تضحياتٍ قدمتيها سوى الذي تقولينه؟ عندما يتعلق الأمر بالقلب تفقدن عقولكن.

أحسست بابتسامتها مرة أخرى فعاجلتها:

«**لمَ يبدو الإرهاق عليكِ؟**».

تنهدت.

- تعرف أني أحب الملاذات الآمنة.

- لا أفهم مقصدك.

- اخترت منزلي بعد التوسعة فوق أحد الجُزُف التي ردموها، وصرت أعبث في أرضيته من وقتها بين الحين والآخر.

- إلى أن تصلين إلى نفق؟

- أنت تعرف ميرا.

- أعرف أنها كالفئران لن تتوقف عن الحفر حتى وإن غزونا الأرض كلها.

ضحكت بصوتٍ رنان اهتز له رأسها على كتفي قبل أن تهدأ وتأخذنا الأحاديث لبرهة، ثم ران الصمت علينا بعدها لساعاتٍ كعادتنا، إلى أن تملك منها النوم فانصرفت نحو سكنها القريب، لأبادر في الصباح التالي بالذهاب نحو الراعي في منزله. بدا عليه الكبر كما أسلفت ميرا عندما جلسنا إلى طاولةٍ في صالته.

- سآمر الجند بإنهاء عقوبتك، وسيحق لك التنزه بين جنبات المملكة منذ اليوم.

رمقني بنظرةٍ لا تحمل كراهية، بل حملت الأسى مجسدًا.

- وهل تظن أن ذلك سيمثل فارقًا؟

- لم لا؟

- لقد أسديت إلي معروفًا بحبسي، حتى لا أرى الناس يحتفلون بما حاول ابني وأده في مهده ولاقى حتفه نظير فعله.

- تقول ميرا أنك لا تحمل لي ضغينة ولا لهذه الأرض.

- بل أحقلها لنفسي على عدم الميل لجانبك منذ البداية، لعاش ابني عندها، فقد صرت على يقين بأنك قادر على ترويض الحديد وليس النفوس وحسب.

- هل اقتنعت بنبوءتي؟

- بل اقتنعت بتفردك مثلما حكوا عن تفرد زهير الأول.

عقدت حاجبي.

- هل لا زال هناك من الأسرار المزيد؟

- لو اكتمل نهجك كنهج زهير ستعرف وحدك البقية.

- هذا يعني أن هناك ما يمكن كشفه.

- من يصل لكافة أسرار هذه الأرض يملك قوة لا قِبل لأحدٍ بها.

- لمَ لم تقل ذلك في حديثنا الأول؟

- لأنني عندها لم أؤمن بما تناقلوه عبر الأجيال، ظننتها أساطير وخرافات حتى جئت محققًا ما ظنناه من قبيلها.

- أخبرني عن تلك الأساطير.

ابتسم بشفتين متهالكتين: «**كل الأساطير تدور في فلك الحوريات، بعضها متناقض والبعض متوافق ولن تفرّق بينهما إلا إن بلغتهن**».

أحسست لوهلةٍ أن الكهل يُخرف إلا أنه أضاف: «**حتى بخصوص موقع هذه القرية القديمة التي شيدتم فوقها مملكتكم تدور الأساطير، فلم يختَرها الأجداد لتلك الميزات التي رأيتموها وحسب**».

- لماذا لم تقاوم القرية قديمًا طالما امتلكت أسرارًا غير ما رأيناه؟

- لأن الأجداد لم يبلغوا الحوريات، لكن عرفوا أنهم في هذا الموقع قريبين منهن.

- زدتني حيرة، وأنا الذي جئت بحثًا عن تفسيرات.

- التفسيرات عندهن وليست عندي.

- إذًا أين البقعة التي اعتاد الملوك زيارتهن فيها؟

- قالوا أنه كهف يملؤه الماء عند مقدمته لدى البحر، إلا أن سقفه يرتفع كلما اتجه ناحية

بطن الجبل، وعند ناحيته الأخرى هناك مسطبة تعلو منسوب الماء، لها كوة مفتوحة على نفق يمتد عبر الجبال إلى الجانب الآخر خلال متاهة من الأنفاق لها نقش قديم احتفظ به الملوك وحدهم حتى خيانة الحوريات. لم يكن يدخل من خلال النفق حتى الكوة سوى الملك وحده، وينتظر فوق المسطبة حتى يرفعن رؤوسهن في الكهف ليلة المحاق في الشهر الأول كل عام، قبل أن يجددوا سويًا عهد زهير.

- إن امتلكن القوة، ما الذي منعهن من الانتقام؟

- ستعرف إن بلغتهن.

ابتسم عندها، لا أعرف هل من قبيل التعجيز أم الاستبشار، إلا أن حديثنا انتهى عند هذا الحد لأتركه، موعزًا للجنود بإنهاء عقوبته، بينما صرت متحيرًا بشأن ما أخبر بخصوص تلك الأساطير، وهل هي مجرد خرافات كهلٍ في أواخر أيامه أم أن الخرافات هنا أقرب للتحقق من الحقائق ذاتها؟ وإن صدق ما ذكر فكيف السبيل إلى تلك القوة؟

في الأخير عدت إلى أرض الواقع كما اعتدت منذ وطأت قدماي هذه الأرض آخذًا في التشاور بشأن ماذا سنفعل بعد مقتل الرسول، لا سيما وقد بدا أولئك القوم مدركين جيدًا لكوننا لا نملك إلا قوة التحصن، لذا يرفضون السلام معنا، وما من سبيلٍ لفرضه إلا بأن نظهر المزيد من البأس.

بعد كثيرٍ من التشاور وجمع الأخبار استقر أمرنا على أن غولار تعد قرية صغيرة وليست مثل زورين ورانتاز اللتين تلياها، إن استطعنا غزوها بأي وسيلة أو حتى إثارة القلاقل حول أسوارها منزلين بهم الخسائر في الأرواح والمتاع ما بين الفينة والأخرى فقد يدفعهم ذلك للإذعان لنا، ومن يدري إن عم السلام قد يستقر حال مظلومين هذه الأرض دون المزيد من سفك الدماء ومن بعدها قد يتحقق أملي وأراها ولو من بعيد.

لذا ابتدرنا تنفيذ ذلك بهجماتٍ محدودة، حيث أخذ يتسلل إلى تلك الأسوار عبر الغابة بعض جنود قلعتنا، ثم يقومون بإلقاء القنابل أو السهام المفخخة على حرسها وأسوارها، لتظهر أسوارها تمنعًا على قصف القنابل من بعيد على اختلاف أحجامها، في حين استعدت سهامهم وراجماتهم للمقتربين في كل الأوقات، إلى جانب ظهور قدرتهم على اختراق الغابة بجيادهم متعقبين جنودنا، والذي سبب لنا الكثير من الخسائر.

وفوق ذلك بادلونا بهجماتٍ مثلها، حيث أخذ يتسلل بعض جنودهم متوارين إلى الحد الذي يمكنهم من قنص حراس أسوار القلعة بسهامهم قبل أن يبدأوا في استخدام متفجرات ضعيفة كالألعاب النارية، أدركت أنهم يحاولون خلط ما عرفوا، إلا أنهم لم يصلوا سوى لتلك

المفرقعات الضعيفة التي لا تصيب طائر صغير، لكنه مثل شيئا من التقدم لديهم، بينما لم يحدث شيء من التقدم في موقفهم من المهادنة، خاصة أننا لم نستطع أن نثبت قوة تجبرهم على ذلك، إلى أن طرأ ما غير من هذه الحالة، عندما صار يهرب إلى قلعتنا من وافدين تلك القرية بعض نفرٍ بين الحين والآخر متسللين من حقولهم إلى الغابة قبل أن يصلونا. اعتدنا ألا نرقيهم إلى المملكة فوق الجبل إلا بعد مدةٍ يثبتون فيها ولاءهم، ليبتدر بعض منهم الحديث عن وافدي غولار -وهم كثر- بأنهم قد يهبون لنصرتنا إن ابتغينا غزوها.

لا أعلم لِمَ لمْ يراودني ذلك الخاطر من قبل، من الجائز أن يكون السبب ذكراي مع الوافد الذي صرخ مستغيثًا بالجند عند رانتاز يوم هروبنا الأول، أو بسبب ما وجدت عليه الوافدين بالجبل من الاستكانة والانهزامية إلى أن أثبتّ لهم قوة البارود، بل ولم يتحركوا نحونا بكثافة إلا بعد انتصارنا الأول، لكن الحال قد تغير، ومن المؤكد أن آمال التحرر من العبودية قد داعبت صدور البعض من أولئك العبيد في تلك القرى، فلمَ لا نستخدم المكيدة كما استخدموها ضدنا من قبل؟ لا سيّما وقد حدث في المملكة الأم ذاتها ما مكننا من الهرب منها بعد تدبيرٍ من ذلك التنظيم حينها.

لم لا نجد بينهم من يتمنى دخولنا لتلك القرية فاتحين؟! ولن نحتاج الكثير منهم، بل قلة يفتحون لنا الأبواب على حين غفلة بعد أن يتعاملوا مع حرسها، غدر مدبر يعقبه هجومًا كبيرًا خاطفًا وليست أعدادًا محدودة يلهون، خاصة مع صغر تلك القرية عن التي تليها، وزيادة جندنا وارتفاع قدراتهم وامتلاكنا البارود.

لذا أصدرت قرارًا بوقف تلك الهجمات المحدودة، مصدّرين إحساسًا باليأس في الوصول لمبتغانا، آملين أن تتراجع التدعيمات التي استقرت بغولار إلى سابق مواضعها بعدما استنفرت إليها ردًا على هجماتنا الحمقاء، في حين نشط أمر المتلصصين الذين صاروا يترصدون الفلاحين أو رعاة الأغنام بين الفينة والأخرى، وبحذرٍ شديد صاروا يحاولون الانفراد بأفرادٍ محددين منهم أوعز إلينا الهاربون نحونا بصفاتهم وأماكن حقولهم، إلى أن بلغوهم وأوعزوا إليهم بالانتماء لنا ونشر ذلك بين وافدي القرية، ليستغرق الأمر عدة أشهر حتى تراجعت التدعيمات إيمانًا منهم بتوقفنا عن العبث، وبقيَ في القرية قوتها الأساسية، بينما استجاب لنا حشد من وافديها استعدوا لساعة الانطلاق، ولخطط الهجوم، بعدما أمدونا بسائر المعلومات عن قوات القرية، مواضع تمركزها، ومناوبات الخدمة، حالما بقينا متابعين لأسوار زورين، حتى إذا ما خرج منها دعم متجهًا نحو غولار نعرف أن خططنا قد أحبطت.

إلى أن حل النهار الذي جمعنا فيه قدرًا كبيرًا من الجند في القلعة مزامنين احتفال آربوس السنوي الذي يحضره بعض قادة جندهم ويعودون في اليوم اللاحق، ثم اتجهنا عبر الغابة

نحو غولار رفقة راجمات صغيرة مفككة، مقتنصين في طريقنا من نجده من دورياتها، حتى تمركزنا على مشارفها وسط الجذوع التي وارتنا عند منتصف الليل. نصبنا راجماتنا في نقاط سلف تحديدها، بينما تدق قلوبنا طبول الحرب خشية تعثر مخططاتنا.

ومع حلول ساعة الاتفاق حالما وقفت أمام الجند متوسطًا يزن وفارس، أصدر بعض جنودنا أصواتًا مثل عواء الذئاب دون قذيفة أو سهم، لنسمع صوت صرخاتٍ وهتافٍ أوحى بحالةٍ من الهرج بالداخل، أعقب ذلك سقوط بعض جندي من فوق الأسوار إلى خارج القلعة، قبل أن تمر عدة دقائق وتُفتح البوابة التي قصدناها هاجمين هاتفين بحياة مملكة الوافدين، لنجد حرس البوابة ما بين قتلى وجرحى.

عندها أرشدنا رجالنا لدى تلك البوابة إلى مواقع الجند عند بوابتيها المتبقيتين، وفوق الأسوار، وفي دار السلاح، فانطلقت فرقتان بقيادة فارس ويزن إلى البوابات ومواقع التمركز بالأسوار، بينما انطلق باقي الجيش برفقتي عبر طرقات القرية إلى دار السلاح، حيث لاقينا بعضًا من جنودهم بفنائها يهرعون للدفاع عن قريتهم، منهم من لم يسعفه الوقت لارتداء لباسه الحربي أو التمنطق بسيفه، حين حدث اشتباك بالسيوف غير متوازن القوى لصالحنا، لم يدم طويلًا قبل أن يعلنوا استسلامهم. أحكمنا السيطرة على دار السلاح، وكبلنا أسرانا خلال ساعتين دون خسائر تذكر، بينما تراصت بعض فرق جندنا بفنائها، وبعضهم لدى ساحة كبيرة ربضت أمام بوابتها.

أتاني فارس ويزن أمام بوابة دار السلاح مخبرين بإحكام السيطرة على كافة أسوار وبوابات القلعة، والتي استبق رجالنا في داخل القرية إلى معظمها ساعة الهجوم الأول كما خططنا، لذا لم يجدوا لديها مقاومة تذكر، وأنه لم يعد ينقصها سوى بعض الدعم من جنودنا، لذا بعثت من الجند دعمًا لمن تركوهم عليها رفقة قنابلهم المعدة للإلقاء بواسطة الراجمات وسهامهم المفخخة والقنابل اليدوية، بينما خرج الكثير من أهل القرية إلى الطرقات على أصوات الاشتباكات والصرخات والتهليل، منهم المعمرون والوافدون. صاروا يتوافدون أمام دار السلاح مع بزوغ خيوط الشروق، متوجسين من تراص جندنا أمامهم وداخل فنائهم. أراد فارس أن يصرفهم إلى دورهم إلا أنني استوقفته خاطبًا فيهم: «**الجميع آمن على نفسه وماله وداره وأولاده، ما انطلقنا من معاقلنا سوى لإرساء العدل والمساواة بين الجميع، من أراد منكم الرحيل فليرحل، ومن أراد البقاء فليبقى، لكن لتعلموا أنه ما عاد منذ اليوم عبيد وأسياد، الكل سواسية في عرفنا وشريعتنا**».

لتتباين ردود الأفعال على وجوههم، حتى الوافدين، منهم من شعرت أنه يأنف الحرية، لكن أكثرهم صاروا يهتفون باسم مملكة الوافدين، في حين اكتست وجوه المعمرين بالوجوم

والخوف.

ما إن استقرت الأوضاع وانصرف الناس في الطرقات، وقبل أن أحدد من سيعود ومن سيبقى على تلك القرية، عاجلني فارس بينما وقفنا أمام جندنا المتراصين: «**اتركني على هذه القرية**».

ابتسمت.

- تعرف أني لا أحزم أمرًا دونك، لكني أتمنى أن تجدها بين وافديها.

اتسعت ابتسامته مربتًا على كتفي.

- سنكمل عبر سائر الأرض من أجل كل الوافدين.

شددت على كتفيه.

- سنكمل سويًا.

تركت فارس رفقة قسم كبير من الجند لدى غولار، بعدما تركنا بها قدرًا كبيرًا من القنابل اليدوية والسهام المفخخة وقنابل الراجمات، بينما عدت بصحبة يزن نحو القلعة بقسم كبير من غنائم السلاح والجياد والأسرى، في حين عينت فرقًا صغيرة كدورياتٍ بالمنطقة ما بين قلعة سرابوس وغولار لتأمينها، عبر الغابة أو لدى النهر.

قابلتنا ميرا قبل أسوار القلعة رفقة بعض الجند، لأشعر بمدى التوجس الذي بقيت فيه طوال مدة غيابنا من قدر الاستبشار والابتهال الذي كسى خلجاتها ما إن رأت عودتنا، لتعم الاحتفالات القلعة بالنصر، كذلك تزينت أبواب المملكة فوق الجبل لأول مرةٍ بالورد، وصاروا يلقونها على صفوف الجند لدى دخولنا منتصرين، بينما نلوح لهم باستبشار، ويبادر بعض الجند إلى الخروج من الصفوف قبل وصول الساحة كي يحتضنوا أبناءهم وزوجاتهم، إلى أن استقرت صفوف الجند بالساحة، وخطبت فيهم وفي أهالي القرية بالأمل والنصر قبل أن أصرف الجند للراحة.

ما إن استقر بي الحال لدى المنزل حتى احتضنتني قائلة:

«**لن تخرج دوني مرة أخرى**».

أبعدتها برفقٍ ممسكًا بكتفيها ناظرًا نحو عينيها:

«**أنا أرتكن إلى وجودك مكاني**».

شعرت بامتعاضٍ لاح بوجهها نظير إبعادها فربتَ على خدها قائلًا: «**طالما بقي من هم**

مثلك بيننا فستدوم تلك المملكة».

ابتسمت وأردفت: «**سأعود إذًا إلى القلعة حتى انتهاء هذا اليوم واستقرار الحال بها**».

لتتركني أعيد خططي التي سيغيرها ذلك النصر، لكن دون تمشيم في أن تنجح مثل تلك الطريقة التي انتصرنا بفضلها هذه المرة.

لقاء

على مدار ثلاثة أسابيع حاولوا استعادة غولار بهجماتٍ متتالية، إلا أن أسوارها القوية التي دعمها البارود تمنعت عليهم، وأنزل بهم جندنا خسائر متلاحقات دون التحام أو كرٍ وفر، ليتوقفوا في الأخير عن الهجمات المتلاحقة، ويستعيضون ذلك بهجماتٍ كل بضعة أيامٍ رفقة محاولاتٍ متنوعة لاختراق الأسوار لم تأتِ بجديد، بينما زادت خسائرهم، إلى أن توقفوا عن المحاولة في الأخير، فيما بدا رضوخًا منهم لضياعها من بين أيديهم. توجست في البداية من أمرهم، لكن مرت بعد ذلك بضعة أسابيع دون مناوشات أو هجوم، فبدأت الطمأنينة تتسلل إلى نفسي، وأخذت أجيل في ذهني وقتها أن أعيد عليهم طلب السلام، إلا أنني تريثت كيلا أظهر جزعًا ونحن المنتصرون، ولأمنحهم وقتًا للتفكير في مدى بأسنا وشدتنا التي تهدد سائر أرضهم بطريقة أو بأخرى.

في تلك الأوقات جاءت الأخبار بأنهم أخلوا زورين من وافديها بعدما علموا بخيانة وافدي غولار، قبل أن يزيدوا تدعيماتها بقدرٍ كبير، وكأنهم يستعدون للحرب أو يخشون هجومًا جديدًا، إلا أن الغريب في أمرهم أنني بينما كنت أتفقد أحوال مملكتنا الأم ذات نهار، جاءني أحد الجنود ليخبرني أن هناك رسولًا جاء برسالة من مملكة الشمال إلى قرية غولار يطلب تسليمها لي وحدي؛ ابتهجت لذلك متيقنًا أنهم سيجنحون للسلم هذه المرة، لذا أذنت بإحضاره على عجل وأحسنت استقباله حين جاؤوا به خلال يومين إلى غرفة مشورتي المتواضعة بمنزلي، التي وضعوا مقابل بابها مقعدًا كبيرًا من أجلي استند إلى الحائط، في حين تراص أمامه صفان من ثلاثة مقاعد خشبية في كل صف، أجلسوه على أولهم، حالما بدا جنديًا صلب الملامح مفتول البنية، في حين اعتلى البقية يزن وميرا وثلاثة من قادة الجند، حيث لم أسمح بقدوم فارس.

بعد لحظاتٍ من التفرس المتبادل بينه وبين جنودنا أخرج من جيب قميصه ورقة بنية ملفوفة بخيطٍ أخضر، مد يده بها لتلتقطها ميرا التي جلست في الكرسي المقابل لكرسيه. كادت أن تفتحها على الرغم من انعدام معرفتها بالقراءة والكتابة حين قلت:

«لا تفتحيها».

ثم أوليت وجهي ناحية الرسول.

- هل الملكة من كتبتها بخط يدها؟

أومأ بمعنى الموافقة.

- نعم يا سيدي الملك.

أشرت إلى ميرا بإحضارها، التي ما إن ناولتها إلي بوجهٍ ممتعض حتى شعرت بارتعاشٍ صال في أوصالي وضلوعي، كدت أقبلها أمام الجمع لكن الحياء منعني، فضضتها برفقٍ لتسقط قطرة من عيني ما إن رأيت خط يدها الذي أعرفه، لكني تمالكت حالي متظاهرًا أن هناك ما أصاب عينيّ، إلا أن عينيّ اغرورقتا بالدموع ما إن بدأت القراءة.

«من الملكة مارينا سليلة الملك زهير الأول وصية مُلك آربوس الشمالية، إلى الملك يوسف ملك مملكة الوافدين.

جاءتنا من قبل رسالتك بطلب السلام رفقة شرطين وضعتهما، وهما تحرير أبناء الوافدين ليتنقلوا بين الممالك الثلاثة بحريةٍ إلى جانب عدم تطبيق قاعدة السنوات السبع على وافدي الجبل، أحيطك علمًا أننا موافقون على شرطك الثاني، أما الأول فنحن نوافق على تحرير وافدي الجبل وحسب مع تحسين معاملة وافدي البحر دون حرية تنقلهم، لأنهم يمثلون قدرًا كبيرًا من العاملين في شؤون المملكة المختلفة، ولتعلم أن لدينا سجلات للفصل بين الصنفين محفوظة في كل مجال عملٍ يرحَل إليه الوافدون من ساحة استقبالهم، وما إن ينتهي اتفاقنا سيلاحظ أهل مملكتكم رجوع الكثيرين ممن فقدوهم في السنين الأخيرة ممن لم تمر سنواتهم السبع. إن ارتضيت ما نقدمه فلنا شرطان لأجل عموم السلام، أولهم الانسحاب الكامل من غولار وعدم التحرش بالمملكة من جديد، أما الثاني هو تحرير كافة أسرانا.

والسلام ختام».

مسحت دموعي مبتسمًا لصحبتي.

- إنها دموع الفرحة بالسلام.

ابتسم الجميع عدا ميرا التي كدت أشعر بنارٍ تسري من جسدها إلى الأرض، إلا أنني حاولت تجاهل إحساسها بالريبة آمرًا باصطحاب الرسول نحو دار منظم شؤون المملكة كي يستقبله إلى أن نبت في الأمر، ليأتي في الحال أحد حجاب داري ويصطحبه خارجين قبل أن أتلو عليهم الرسالة.

أخذنا في التشاور بشأنها، لارتئي في ليلتها أنها خطوة في طريق إرساء العدل المبتغى، لذا بعثت مع رسولها في الصباح التالي خطابًا مفاده أننا موافقون بشرط ألا يتم انسحابنا من غولار إلا بعد تحرر وافدي الجبل، إلى جانب أننا سنصطحب منها إلى مملكتنا كافة وافديها الذين يرغبون في ذلك.

٢٧٠٦٠٦٥٦٩٨

تمنيت أن أرفق أي كلمات تحمل الحنين والشوق لها، إلا أنه غلب على ظني أنها لن تفض الرسالة بنفسها، بل سيقرؤها الوزير الكهل عليها إن بقي حيًا أو غيره إن كان قد ولّى، لذا اقتصرت على الكلمات الرسمية الجادة، ليعود بعد عدة أيام نفس الرسول بموافقتهم على أن يتم توقيع العهد بعد ثمانية أيام عند موضع البئر الثاني الذي يتخلل طريق الصحراء من لدى آربوس إلى المقدمة الشمالية لسلسلة الجبال وقت انتصاف الشمس للسماء، وألا يصطحب أي من الملكين سوى عشرة جنود في تلك البقعة المكشوفة للعيان، قبل أن ينصب كل من الفريقين خيمته، ثم يتراجع جند الفريقين لمسافة عن الخيام، أتحرك من بعدها نحو خيمة الملكة وحدي حيث نوقع عهدنا.

أرسلت موافقتي دون تردد حالما خالجني أمل بأنها تتمنى لقائي كما أتمنى رؤيتها، ولم لا؟ أليس من الجائز أن صورتي لا زالت تراود أحلامها؟ ألم تخبرني ذلك بعدما فقدت ذاكرتها؟ بل من المؤكد أنني لبثت مستقرًا في قلبها، فذاكرة القلب لا ترضخ لذاكرة العقل.

صار يتخبطني الحنين كمركب صغير وسط محيط تتلاطم أمواجه، كورقة شجر في منتصف عاصفة شديدة، كفراشة بين سرب من النسور، متشوقًا لتلك اللحظة التي فيها ستقع عيناي عليها من جديد، إلا أن ميرا جاءت شرفتي ليلة موافقتي على ذلك اللقاء، بينما جلست مناظرًا البحر كعادتي، بدا عليها ضيق لم أعهده من قبل، حين جذبت كرسيها بعنف وجلست مشيحة بوجهها ناحيتي.

- لا أريد ذهابك لذاك اللقاء، ابعث بديلًا عنك في ذلك.

ابتسمت ملتفتًا نحوها.

- لا يجوز ذلك يا ميرا، سيعتبرونه تقليلًا من شأن الملكة، وقد يحبط الاتفاق برمته.

- أشم رائحة غدر.

- كيف لهم أن يغدروا؟ تلك المنطقة مكشوفة لأبعاد كبيرة، وجندنا سيصطحبون سهامهم المفخخة وقنابلهم اليدوية، هم من عليهم التوجس وليس نحن.

- لا أدري خطتهم، لكن لا تستهن بإحساسي.

- وماذا بيدهم أن يفعلوا إن أسروني؟ ستبقى مملكتنا في ذات قوتها. ستبقين في قلعة سرابوس، وفارس في غولار ويزن في المملكة ذاتها.

- بل سأصاحبك إن قررت الذهاب.

قطبت ما بين حاجبي راسمًا علامات الحزم.

- هذا أمر وليس اختيارًا.

أفلتت دموعها مجهشة في البكاء، فأخذت رأسها إلى صدري.

- لن أستأمن من هو خير منكم على هذه الأرض التي زهقت مئات الأرواح لأجلها.

ردت من بين دموعها:

«قلبي يكاد يقفز من صدري هلعًا عليك».

- مررنا بما هو أسوء ونجونا.

استسلمت لإصراري ليغلفنا الصمت لبرهةٍ حتى هدأت، قبل أن ترفع رأسها ناظرة نحو عينيّ.

- يقولون أنها شديدة الجمال.

زممت شفتيّ.

- لا أعرف، ولن يمثل الأمر فارقًا لي.

- لِمَ أشعر بالكذب يطل من عينيك؟

- ولمَ قد أكذب؟

- منذ رأيت رسالتها الأولى تغيرت ملامحك ولان قلبك وتوقف عقلك.

- توهمات ليس إلا.

- إذًا لماذا لم تسأل عن حبيبتك وتضمنها في الاتفاق؟

انعقد لساني لوهلةٍ قبل أن أجيب:

«لن أضع شروطًا خاصة في اتفاقي، لكني سأخبر عنها الملكة عندما أقابلها علهم يجدونها».

قرأت كذبي مجددًا إلا أنها لم تضف جديدًا، بل ابتعدت بمقعدها بمقدار ذراع، وناظرت البحر دون حديث بيننا، ولم تمر سوى برهةٍ قصيرة قبل أن تهم إلى مغادرة منزلي، لتتردد عليّ خلال الليالي اللاحقات، لكن بوجهٍ مختلف عما عهدته منها، وتخبرني في كل ليلةٍ أنها تخشى ذهابي، ثم تنصرف دون طول مكوثٍ كعادتها.

بينما تفرغت لتنظيم شؤون المملكة والدفاع على مدار تلك الأيام عاهدًا إليهم بالاستعداد

وكأننا مقبلين على حربٍ وليس سلام، حتى الليلة التي في نهارها التالي سننطلق نحو اللقاء حين جاءتني ميرا من جديد. جلست إلى جواري واتكأت برأسها على كتفي كعادتها سابقًا، فلم أستغرب التقلبات التي اعتدتها حتى أردفت:

«سأكل قلبها وأمضغه بأسناني إن مستك بسوء، أقسم لك أنني سأصل إليها وآكل قلبها».

- بل لا تمسيها بسوء.

رفعت رأسها ناظرة نحو عينيّ بتفرس وكأنها أدركت الحقيقة قبل أن أنطقها.

- هي حبيبتي التي جاءت برفقتي من الأرض الغريبة، استأثر بها الملك لنفسه بينما استطعت الهرب منهم.

كسى وجهها ابتسامة وارت الكثير من الألم الذي وشت به عيناها.

- إذًا لم قتلت الرسول واستمرت في محاربتك؟

- لأنها لا تذكرني.

أحسست بشيءٍ من الارتياح في قسماتها إلا أنها أضافت:

«وهل ستتذكرك في هذا اللقاء؟».

- لا أظن.

عادت برأسها إلى كتفي مقاومة دموعًا لم تفلح في وأدها حين أضافت: **«الآن أعذر رفضك طوال تلك السنين، بل اغفر لي ما قد سبق من إلحاحي».**

- أنا من يحق عليه أن يطلب الغفران منكِ، واعذري كتم تلك الأخبار عنكِ فيما سبق.

رفعت رأسها وكفكفت دمعاتها.

- لكني لا زلت عند قولي بخشيتي عليك من هذا اللقاء.

ابتسمت جاذبًا رأسها إلى كتفي، ليكون ذلك آخر ما قالته، بعدها مرت الساعات ولم تغادرني لنبقى متيقظين طوال ليلتنا حتى جاوزنا منتصف النهار التالي. ذهبت برفقتها إلى القلعة حيث تجهز الركب الذي حددته من بين الجند.

امتطينا خيولنا بينما أخذت دموع ميرا تسيل منهمرة على خدها إلى أن انطلقنا، لأفارق ميرا وتشتد خفقات قلبي كلما اقترب موعد لقائي بإسراء، إلى أن خيّمنا في منتصف طريقنا

عند الغروب قبل أن أبعث من يستكشف أمر موقع اللقاء على أن يلاقينا في الصباح التالي قبل موعد وصولنا بقدر ساعة، وفي الصباح واصلنا مسيرنا إلى أن قابلنا ذلك المستكشف مخبرًا بأن جنودهم وصلوا كما اتفقنا في عشرة جند فقط صحبتهم الملكة وإحدى وصيفاتها.

استبشرت لذلك مكملين دربنا حتى بلغنا الموقع قبل أن يهرع الجند إلى نصب خيمتي على بعد عدة أمتارٍ من خيمتها، ثم تراجع جندنا وجندهم لمسافة كبيرة حين ابتدرت بالسير نحو كوخها حالما شعرت أن صدري يكاد ينشر شذى الغبطة والحنين ناثرًا بذورها فوق أرض الصحراء القاحلة كي تنبت شوقًا ولهفة، إلى أن ولجت من باب الكوخ حيث رأيتها للمرة الأولى منذ سنين خلت.

خفق قلبي أكثر من أي وقتٍ مضى، لم تتغير ملامحها، هي إسراء التي أعرفها منذ يوم الفنار، كانت تجلس على مقعدٍ خشبي لدى طاولة دائرية مرتدية فستانًا أسود، في حين علا رأسها تاج توسطته إحدى اللآلئ، بينما وقفت وصيفتها من خلفها. ما إن رأتني حتى تسللت دمعة من طرف عينها مسحتها على عجل. اقتربت حتى جلست فوق المقعد المقابل لمقعدها، مسلطًا نظري على وجهها، في حين حاولت مرارًا أن تحيد بنظرها عن سهام عيني.

- هل ما زلت أراود أحلامك؟

نظرت نحو عينيَ.

- وهل تعرف السبب؟

- بالطبع أعرفه، لكني لا أعرف هل ستصدقين ما سأحكي أم ترفضينه؟

- أشعر أنني أعرفك منذ سنين طويلة.

أومأت بمعنى الموافقة مبتسمًا.

- من قبل أن نأتي سويًا إلى هذه الأرض.

- قلبي يصدقك، لكن عقلي يستميت رافضًا من أجل الدفاع عن ملك ابني.

عندها ودون سابق مقدمات سمعت تصايح وركوض خيل، في حين بدأت الدموع تنهمر من عينيها. قمت من مكاني فزعًا، وقبل أن أعود إلى باب الكوخ قابلني جنديان من جنودهم أسقطوني أرضًا مكبلين أطرافي.

ظننت لوهلة أنه ستقوم معركة مع جنودي الذين يملكون البارود، فخشيت على حياتها لذا صرخت:

«أخرجوها من الكوخ على عجل، جنودي سيرجمونكم».

لكن ما إن ولجنا خارجين حتى رأيت معركة نشبت عند موقع جنودي العشرة، بينما أحاطني جنودهم الذين رافقوا الملكة. ما لبث ذلك الشجار أن انتهى قبل أن يأتي قرابة الثلاثين جنديًا من جنودهم مقتادين أربعة من جنودي جرحى مكبلين، حين صرخ أحدهم:

«قاموا بخيانتنا يا سيدي يوسف، تواروا في حفر تحت الأرض خلف موقع تمركزنا من قبل قدومنا ولم نشعر إلا بسهامهم وهي تخترق ظهورنا، قتلوا البقية وأسرونا».

ليضحك قائد جنودهم ناظرًا نحوي في غيظٍ:

«بل تواروا منذ يومين، لا تظن أيها البائس أنك وحدك من تستطيع الكيد».

لم تتوقف دمعات إسراء التي امتطت فرسها ولحقت بها الوصيفة على فرسٍ آخر قبل أن يضعوني أنا وجنودي الأربعة مكبلين فوق خمسة من الخيل ساقهم خمسة من الجند الراكبين مسرعين نحو مملكة آربوس الشمالية، بينما تبعنا بقية جندهم ركضًا.

أثارت الخيل كثيرًا من الغبار وراءنا. حاولت أن أنظر خلفي بين الفينة والأخرى مخترقًا ذلك الغبار بنظري، ليس جزعًا على نفسي، بل افتقادًا لمملكتي وأهلها الذين صرت أبعد عنهم رويدًا رويدًا حالما يأكلني التوجس على مصيرهم من بعدي، وقد أضحى مصيري الذي سقت نفسي إليه جليًا.

ولجنا من بوابة آربوس عند غروب اليوم التالي لأجد أهلها قد اكتظت بهم الشوارع هاتفين باسم الملكة، لاعنين لي ولمملكة الوافدين، بينما صاروا يقذفوننا أنا وجنودي بقطع الحجارة ومخلفات الطعام، حتى بلغنا قصر الملكة، ساقونا خلاله ليعيدونني إلى ذات غرفة الحبس وحدي، بينما وضعوا جنودي في غرفٍ مجاورات. أدركت عندها أنهم سينتظرون يوم آربوس القادم الذي سيحل خلال أيام كي يقتلونني أمام الأشهاد منهين النبوءة ومرسلين تهديدًا صارخًا لمملكتنا ولكافة وافدي الأرض، إلا أنني عدت لنفس جلستي مستندًا إلى الحائط ناظرًا نحو النور المتخلل للقضبان، أبتسم أحيانًا ويعتريني الغضب في أخرى وأبكي في غيرها، يمر أمام عيني شريط حياتي منذ وطئت قدماي تلك الجزيرة رفقة أم إسماعيل التي ولت دون طائل، وإسراء التي لا أحمل لها ضغينة حتى ولو غدرت بي، فأنا من أوقعت بنواصينا في هذا الشرك المحكم، لتتزوج الملك وتنجب ولي العهد الذي خشيت على ملكه، بينما أتجه نحو الجبال منتويًا العودة لأجلها فأنشأ حياة لأولئك المستضعفين، غير نادمٍ على كل ما مضى، غير آبهٍ بما سيفعلونه في جسدي، موقنًا أن مملكتنا ستقاوم من بعدي وتزهر من جديد، وأن حبي لإسراء لن يتزعزع حتى يرافقني إلى مرقدي الأخير.

«إسراء..

مارينا..

آن الأوان لأستسلم وأنكث وعدي فاعذريني..

فلن يثنيني عنه سوى حتفي..

وها قد لاح».

في اليوم التالي جاءني الكهل الذميم رفقة بعض من جنده ممسكين بسياطهم ليرتسم وجهه بابتسامته الماكرة قائلًا:

«لن تولّي إلى حتفك إلا بعدما تخبرني بأسرار البارود».

ابتسمت.

- أقسم لك أنك لو قطّعت لحمي قطعة تلو قطعة حتى العظام فلن أنطق ولو بكلمة.

استشاط غضبًا آمرًا جنوده بتكبيلي، ورفع قميصي قبل أن يبتدر جلدي بيدهِ غيظًا وحقدًا. صارت تنزل الجلدات على ظهري، بينما أضحك بشدةٍ مظهرًا المنعة والاستخفاف إلى أن خارت قواي ولم أعد قادرًا على الحركة. تهاويت إلى الأرض راقدًا على وجهي، ليقترب بوجهه حتى لفحت أنفاسه رأسي ثم قال: **«هذا قسمٌ ضئيلٌ مما ستراه في أيامك اللاحقات وفي يوم الساحة».**

لكن الغريب أنه لم يأتِ من بعدها لتمر عدة ليالٍ دون جديد، حتى تلك الليلة التي تسبق يوم آربوس، إذ فاجأتني حركة وصوت جنود لدى الممر الذي قبع باب زنزانتي لديه، ظننت أنه الكهل جاء ليودعني بعذابٍ جديد، إلا أن الباب فُتح ليدخل جنديان كبلاني واقفًا قبل أن يخرجا وتدخل إسراء. تفحصتني بعينين تائهتين ثم قالت: **«هل كنا متحابين كما قلت من قبل؟».**

ابتسمت وأجبت:

«لقد عشقتك من قبل مجيئنا إلى تلك الأرض، وأخبرتِني بشوقك عبر رسالة في أول أيامنا ها هنا، احتفظت بها لسنينٍ طوال إلى أن أخذوها مني بعد أسري».

نظرت نحو الأرض لتهرب من نظراتي المتفحصة:

«قالوا لي أنني من المعمرين واختطفت لدى الجبال إلى أن حرروني وزوجوني الملك».

لم تفارقني الابتسامة حين رددت: **«ولم أفقدوك ذاكرة حياتك قبل وقوعك بين أيديهم إن صدق ما قالوا؟»**.

عادت بنفس النظرات التائهة نحو وجهي.

- قالوا أن القاطنين في الجبل هم من فعلوا ذلك.

- وهل تعرفين أسرار فقدان الذاكرة، فتستردينها ويبين الحق من الضلال؟

اعتلى وجهها الأسف، بينما شابت عينيها حمرة اقتراب الدموع.

- أنا وصية على ابني الملك الصغير، والملك وحده هو من ينقلون له الأسرار، لا تظن أنني المتحكمة في سائر الأمور وحدي كما يشاع، بل هناك أولئك البغضاء.

- من هم؟

- قائد الجند والوزير ومستشاري الملك والكهنة، لهم حق عزلي إن اجتمعوا علىَ ذلك.

أجهشت في البكاء حين قالت:

«هم من دبروا تلك المكيدة وكنت أرفضها، أقسم لك أنني كنت أرفضها، لكني خشيت على نفسي وعلى ابني؛ لمحوا لي أنني لو رفضت سيعزلونني عن الوصاية ويستأثرون بابني».

ابتسمت لها بين دموعي التي أخذت تترقرق.

- وأنا أقدم حياتي راضيًا من أجلك.

علا نحيبها ثم سارعت إلى احتضاني بينما تقول وسط دموعها:

«أعرف أنني أحببتك يومًا ما، هذا ما يمليه عليَ قلبي، بل أعرف أنه لا زال ينبض بحبك».

- لا تبتئسي لأمري، وإن قدر لابنك أن يحكم هذه البلاد وحده، علميه الحق والعدل والمساواة، لكيلا يظلم مثلما ظلم أسلافه، ولكي يكون إنسانًا سويًا وليس مجرد قاتل أو مستبد، عندها ستطيب روحي في مرقدي.

تراجعت مكفكفة دموعها.

- عندما علمت أن الوزير جلدك، طلبت من قائد الجند بوقف ذلك، كما طلبت أن يكون قتلك رحيمًا في الساحة على أن أمنحه بعض المزايا باسم الملك.

ابتسمتْ من جديد، لكنها لم تنتظر مني ردًا حين فتحت الباب وهرعت إلى الممر ليدخل الجنديان ويحرراني من قيودي. اطمأن قلبي وتلونت الحياة أمام عينيّ من جديد، بل صرت مغتبطًا أكثر من أي وقتٍ مضى وكأنني ذاهب في الصباح التالي نحو عرسي وليس حتفي.

بقيت طوال ليلتي متيقظًا فرحًا إلى أن حل الشروق. ساقوني مستغربين ابتهاجي نحو ساحة الملك زهير، حيث وضعوني في ذات الغرفة التي حبسوني فيها بعد هروبي الأول، بينما امتلأت المدرجات بالحاضرين لرؤية صاحب النبوءة أثناء قتله.

ابتدروا اليوم بحديث صاحب الصوت الجهور الذي أعلن عن أسري رفقة أربعة من جنودي، لكن ما هالني وأطفأ فرحتي أنه حكى عن سقوط غولار وقلعة سرابوس والحصار المشترك من مملكتي الشمال والجنوب لمملكة الوافدين فوق الجبل بعدما استطاعت قوات الجنوب أن تدمر الراجمات التي وضعتها على حواف شمال الجبال.

تبدل فرحي إلى كمد وصرت أتوق إلى تكسير أغلالي والهرب حين أدركت خيانة مملكة الجنوب بعد وقوعي، من أبيت أن أضع راجمات قبالتهم باعتبار السلام بيننا، بل ومن المؤكد أنهم استخدموا تلك الجرار التي اعتدت منحها لهم على مدار السنين السابقات. لم يكن أحد ليستطيع أن يصعد الجبل إلا من لديهم، ومن يصعد الجبل يملك سرابوس، أما غولار فلم أدرِ ما شأنها، ولم أدرِ مصير فارس أو ميرا أو باقي أهلي بالجبل.

إلا أنني عدت للتمسك بالأمل سريعًا، واثقًا من صمود المملكة، فلن يستطيعوا الاقتراب من أسوارها بفضل يزن ورماتنا وراجماتنا، وستصمد تلك الأسوار أمام قصفهم البعيد.

ليقطع آمالي وهواجسي ذلك الصوت الذي أعلن بدء اليوم بقتلي قبل أن يفتح عدة جنود باب غرفتي ويسوقوني نحو منتصف الساحة مقيدًا بالأغلال، حتى إذا ما انتصفتها صرخت: **«ستعيش مملكة الوافدين وإن قتلتموني ألف مرة، سيعيشون كرامًا أحرارًا مثلكم. كلنا بشر سواسية، ولا يغرنكم تلك الأفضلية التي يخدرون بها عقولكم كي لا تطلبوا حياةً كريمة».**

ليقطع صريخي عدة انفجاراتٍ هزت كافة مدرجات الساحة، مع موجات ضغطٍ وأتربة ضخمة تطاير على إثرها الناس والجنود، وعم الهرج والمرج، حين توالت عدة انفجارات خارج الساحة ولمحت قدوم فرسان من إحدى أجزاء المدرجات التي تدمرت بالكامل، خلال الغبار والرمال المتطايرين.

تقدمهم فارس وميرا التي ما إن بلغتني حتى قفزت من على فرسها، حلت قيود قدميّ بينما التف الفرسان حولي في دائرةٍ مرسلين حممًا من القنابل اليدوية والسهام المفخخة في

كافة الاتجاهات. ركبتْ فرس ميرا حين لحقتني، ولكن امتطته في وضعٍ عكسي، وجهها نحو وجهي بينما صرخت: «**انطلق**».

انطلقنا جميعًا خارجين من الساحة نحو الدرب المؤدي للبوابة الجنوبية، بينما يحيطني الفرسان، في حين استمر إلقاؤهم للقنابل والسهام المفخخة في كل اتجاهٍ على الرغم من وضوح آثار دمارٍ سابقة طول الدرب، إلى أن خرجنا من البوابة الجنوبية حيث وقف هناك بعض الفرسان في انتظارنا.

انقسم الجند عندها إلى سريتين، إحداهما التي رافقني بها فارس وميرا انطلقت نحو الصحراء، والأخرى تمركزت مقابل الباب الجنوبي لتحبط أي محاولة لملاحقتنا.

حين صرخت فيهم: «**كيف فعلتمونها؟**».

ردت ميرا: «**سنحكي لك فيما بعد، لكن الأهم الآن أن نصل إلى المملكة، حتى تشد من أزرها ولا تسقط في أيديهم**».

ابتسمت معلقًا:

«**ستقاوم ولن تسقط**».

تم الجزء الأول بفضل الله.

انتظرونا في الجزء القادم (بقعة الحوريات).

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

عبد الفتاح عبد العزيز

٢٧٠٦٠٦٥٦٩٨

انتهيت من قراءة كتاب:

آربوس - أرض الوافدين

دار تشكيل للنشر والتوزيع

قيم الكتاب

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

شارك هذا الكتاب